الأخت إمّانُوِيل

"اعترافات راهبةٍ"

أفعالٌ وأقوالٌ

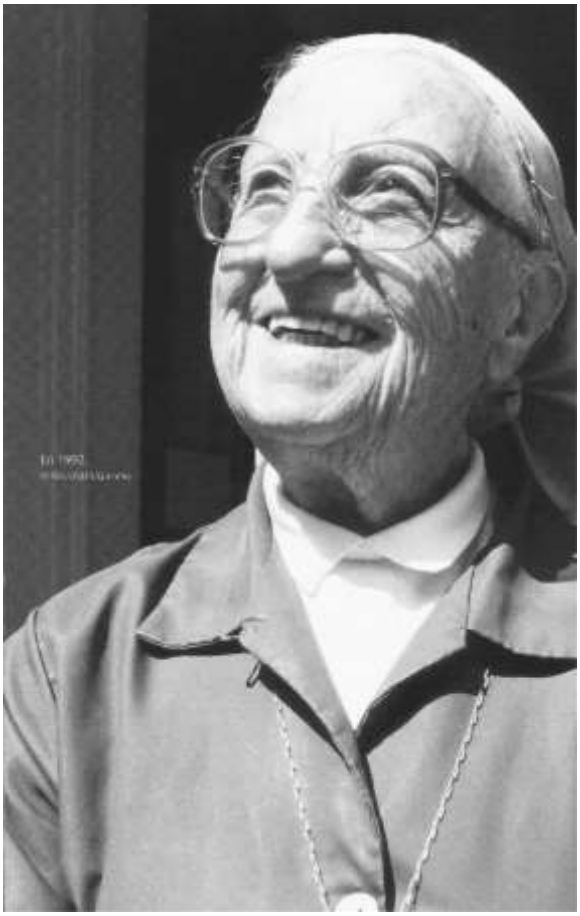

الأخت إمّانُوِيل

سلسلة النوابغ
١٧

الأخت إمّانُوِيل
"اعترافات راهبةٍ"

أفعالٌ وأقوالٌ

أديبٌ مصْلِح

٢٠٢٤

طبعة أولى

٢٠٢٤

* * *

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

الإهداء

إلى أخواتي العزيزات،

راهبات سيّدة الخدمة الصالحة،

مرسلات المحبّة، أخوات الأمّ تيريزا،

أخوات يسوع الصغيرات،

وإلى جميع من يضحّون بذواتهم كي يعيش آخرون،

ويفتقرون كي يكتفي معوَزون،

ويتألّمون كي يشفى مرضى،

وبذلك يُثبتون أنّ يسوع هو إله المحبّة،

وأنّ الإنجيل هو كتاب المحبّة!

أديب

تقديـم

الأب الياس زحلاوي

هنيئًا لِمَن حدثَ لها، أن رسَخ فيها حبُّ يسوع، منذ طفولتها، من حيث لا تدري، فحوّلها، وإن بثمنٍ باهظٍ، إلى شاهدةٍ خارقةٍ له!

تلك كانت حالُ مَن عُرِفت يومًا بالأخت "إمّانُوِيل"، منذ طفولتها حتى التاسعة والتسعين، حيث التقت وجهَ ربّها!

أجل، تملّكها حبُّ يسوع، منذ يوم قربانتِها الأولى، وهي في العاشرة، على نحوٍ يستحيل فهمُه، وقد لازمها بحيث اختارت الحياة الرهبانيّة، وهي في غليان صباها الشهوانيّ، حتّى صدمت جميع مَن عرفَها، وتوقّع لها التخلّي الوشيك عمّا اختارت...

إلّا أنّها ثبتت، وكان ثباتُها هذا مدعاة دهشةٍ دائمةٍ، ومحيّرةٍ للكثيرين والكثيرات، وكانت هي، أبدًا ودائمًا، في طليعة المدهوشين... والشاكرين!

وتنقّلت بين أديرةٍ كثيرةٍ، وفي بلدانٍ كثيرةٍ، وعرفت إداراتٍ، وقوانين، ومجتمعاتٍ مختلفةً، فيها، بالطبع، أنظمةٌ وعاداتٌ، وثقافاتٌ، ولغاتٌ، وديانات، مختلفةٌ، وكانت، على ما طُبِعت عليه من قوّة الأنا، واستقلال الفكر، والكثير الكثير من التحفّز الروحيّ، والتعاطف الإنسانيّ، أبدًا، راسخةً في حبّها الأوّل، صامدةً في نذورها الرهبانيّة، من فقرٍ وعفّةٍ وطاعةٍ، مستجيبةً لمبادراتها الجريئة، وغير المألوفة، ناشِرةً إلى ذلك، طمأنينةً وفرحًا، مع دهشةٍ، في جميع مَن حولَها، والناشطين معها. وكانت هي، أبدًا ودائمًا، في طليعة المدهوشين... والشاكرين!

وكان منها، حين آنَ زمان التقاعد الرهبانيّ، حيث يُرقَب الموت المحتوم، في صلاةٍ

وإيمانٍ، أن فاجأت الجميع بانتزاعها الموافقة القانونيّة، على العيش في "مدينة الزبّالين" بالقاهرة، راهبةً أجنبيّةً وحيدةً، وسط جموعٍ بشريّةٍ، تتحاشى التعاطي معها، لغرابتها وقسوتها، حتّى السلطات الأمنيّة هناك!

وفي حين كان الجميع يترقّبون، في خوفٍ واستهجانٍ، مآلها الشنيع و"المحتوم"، كانت هي، على مدى اثنتَيْن وعشرين سنةً، تعلن في السرّ والعَلَن، في "مدينتها" الجديدة، وفي عواصم العالم، حيث كان مثالها استنهض محبّين كثيرين "لزبّاليها" في القاهرة، و"مشرّديها" في الخرطوم، و"بائسيها" في مختلف بقاع الظلم الكثيرة: "إنّها أسعد إنسانةٍ على وجه الأرض"!

وإنّه لحقٌّ قاطعٌ بأنّ ما أنجزته بروحها، ومثالها، ومبادراتها و"كلمتها"، ما كان ليخطر ببالِ إلّا مَن كان قد اختارها، وهي بعدُ طفلةٌ، لا تدري من "حبّه" الفريد شيئًا!

أوَلَيس "هو" مَن كان قد قال، لألفَي سنةٍ خلت، في كلماتٍ بمنتهى البساطة:

"كلُّ مَن يؤمن بي،

يعمل الأعمالَ نفسَها التي أعملُها،

بل يعملُ أعظمَ منها"؟

فهنيئًا لنا بكِ، أختَنا "إمّانُوِيل"، بما كنتِ، وأنجزتِ وصرتِ!

وهنيئًا حقًّا، لِمَن أخذ على نفسه، وهو في ما يقارب سنّك، أن يدوِّنَكِ مرّتَيْن، في كتابَيْن له، استثنائيَّيْن، شهادةً لِمَن هو وحدَه، كلمة الحبّ والحياة!

دمشق في ٢٠٢٤/١٢/٢٥

تمهيد

عام ١٩٩٩ كنتُ قد أصدرتُ كتابًا بعنوان: "أنا الأخت إمّانُوِيل، أشهد..." (سلسلة النوابغ ٥).

وحينئذٍ، كانت الأخت قد أُمِرت بالعودة إلى دارٍ للراهبات المسنّات في فرنسا، منذ عام ١٩٩٣، وقد بلغتْ من العمر أربعًا وثمانين سنةً، قضت منها نحو إحدى وأربعين سنةً بالتعليم في استنبول، وتونس والإسكندريّة، وأقامت نحو اثنتَيْن وعشرين سنةً في مزابل "القاهرة". وكانت قد أُمِرت بالعودة منذ بلوغها سنّ الثمانين، ولكنّها كانت تلتمس إرجاء عودتها سنةً فسنةً، لأنّها لم تكن تُطيق البعاد عن أصدقائها جامعي نفايات القاهرة.

وأخيرًا، عادت وهي تظنّ أنّها عائدةٌ كي تموت في مركز جمعيّتها. ولكنّ الموت أمهلها عدّة سنواتٍ، استخدمتها من أجل تدعيم المشاريع الإنسانيّة التي كانت قد أنشأتها في مصر والسودان، على نحوٍ خاصٍّ، وساعدتها على المضيّ قُدُمًا نحو المزيد من التطوّر والازدهار.

فقد كانت المؤسّسات التي أُنشئت في فرنسا وبلجيكا وسويسرا، من أجل دعم مشاريع الأخت إمّانُوِيل في مصر والسودان وبلدانٍ آسيويّةٍ، تدعوها إلى إلقاء محاضراتٍ تتحدّث فيها عن مشاريعها وعن رغبتها في استمرارها وتطويرها، وكانت هذه المحاضرات تستدرّ المزيد من سخاء التبرّعات، وتُكسِب الأخت مزيدًا من شهرةٍ. وهذه الشهرة كانت تستدعي مزيدًا من ظهورها، ومن ثمّ مزيدًا من الدعم لمشاريعها.

ومنذ عام ٢٠٠٦، أي سنتَين قبل وفاتها، شرعت بتدوين ما وصَفَته "اعترافات راهبةٍ"، حيث، أكثر من اهتمامها بتفاصيل تلك الأحداث، جهدت في إبراز المعنى الروحيّ لكلّ ما أنجزت، وكشف النقاب عن مسيرتها الداخليّة الطويلة، التي اقتادها الله على دروبها، والقوّة التي أسبغها عليها، كي تقهر ميولها ورغباتها الفطريّة، ومكّنتها من السباحة عكس تيّار اندفاعها الجارف. وحاولت تفسير اختياراتها غير المتوقّعة التي أدهشت رئاسة جمعيّتها، وأتاحت لها تقديم أثمن الخدمات لمهمّشين منبوذين غائصين في حمأة القذارة وفي وهاد الجهل والمرض، ولم يبالِ بهم مسؤولٌ أو متطوّعٌ آخر قبلها، وانتشلتهم من قعر البؤس والازدراء، إلى قمّة الكرامة التي أعدّها الله لهم.

وقد لخّصت قصد اعترافاتها بالقول:

«من خلال هذا الكتاب سعَيْتُ إلى الشهادة للنداء السرّيّ نحو الحبّ الأعظم، الذي فشلتْ في قهره لديّ، أمواجُ الاضطرابات والخلافات. فمن رسالةٍ إلى رسالةٍ، من استنبول، إلى تونس، إلى الإسكندريّة، ظلّ هذا الحبّ مشدودًا إلى العطاء المطلق الذي لا عهدَ له بارتواءٍ. ثمّ عهدتُ زمنَ الحبّ الأكبر، ونشوةَ الاقتران بجامعي نفايات القاهرة المنبوذين، والصراعات التي خضتُها من أجل تحريرهم. وحينئذٍ، استدعتني صيحات أولادٍ يائسين من مختلف أقطار المسكونة.

لطالما كنتُ، من قبلُ، أسيرةَ تفاهةٍ مدهشةٍ، وعجزٍ عن فهم الآخر. وقد نجم ذلك عن المحيط الضيّق الذي كنتُ أدور في فلكه، وعن طبعي المتعجرف المنطوي على ذاته.

ولحسن طالعي أنّ التقائي أشخاصًا مميَّزين، وعبوري بحوادث غير مألوفةٍ، قد أسهما في تسديد أحكامي، وترسيخ قناعاتٍ جديدةٍ، أودّ مشاركةَ قرّائي بها، آملةً أن أكون، بذلك، قد أتممتُ اعترافي بحقيقة حياتي، وأعلنتُ إيماني بأنّ التفاعل مع الآخر، يحوّل أعماق القلب، ويُكسِب الحكم سدادًا، ويولّد فنّ حياةٍ وتفكيرٍ جديدًا».

وقد حفل كتاب "اعترافاتها" بصفحاتٍ طريفةٍ، متألّقةٍ، عميقة المعنى، وبعيدة التطلّعات.

ويسرّني أن أشرك القرّاء ببعضها كي تكتمل صورة الأخت إمّانُوِيل التي بدأتُ رسمَها في كتابي الأوّل عنها.

وربّما سيورد هذا الكتاب أحداثًا رويتُها في الكتاب الأوّل، ولكنّها مرويّةٌ بأسلوبٍ آخر، ولم يكن بدٌّ من التذكير بها من أجل فهم التحوّلات النفسيّة، التي قادتها إلى مخاطراتها الكبرى، بعد أن تخطّت سنّ الستّين.

الأخت المعلّمة

خطواتها الأولى نحو الربّ

مأساةٌ قاسيةٌ دَمَغتْ طفولتَها، وعكّرتْ صفاءَ عيش أسرتها الميسورة، السعيدة، عندما شاهدت الأمواج الهائجة تبتلع أباها، وتسلبها مَن كان كلّ دنياها. ومنذئذٍ، أدركت هشاشة كلّ أرضيٍّ.

وعن مناولتها الأولى كتبت:

«بغتةً، هبط شعاع شمسٍ على جسدي المضطرب، يوم قالت لي أمّي، ستبلغين سنّ العاشرة، قريبًا، وحان لك نيل مناولتك الأولى. فتوثّبتُ فرحًا، متخيّلةً ارتدائي ثوبًا أبيض، ومتلفّعةً حجابًا رقيقًا فوق شعري الأشقر. وبلهفةٍ قصدتُ رعيّة القدّيس ڤنسان دي پول، واستمعتُ إلى كاهنٍ شابٍّ يروي باندفاع قصّة يسوع، منذ ولادته حتّى قيامته... وفتَنَتْني مغامرة ذلك الإنسان الذي أقدم على الموت كي يخلّصنا، وكي يخلّصني، أنا، مادلين.[1] ولاحظتُ أنّ الكاهن كان غالبًا ما يقرن لفظة "الحبّ" بلفظة "الموت". وأدركتُ أنّ ذلك الإنسان، يسوع، أحبّنا، وأحبّني أنا، حتّى الموت، الموت على الصليب. وسحرني هذا الحبّ... فهل يوجد رجلٌ قادرٌ على حبّي، بهذا القدر؟ حتّى أبي لم يمت حبًّا لي!

"وقد أعطى الكاهن، كلًّا منّا إنجيلًا، وحرّضنا على قراءته بتأنٍّ، وخاصّة آلام يسوع في الجتسماني. ولمّا قرأتُ قول يسوع: "نفسي حزينةٌ حتّى الموت"، ثمّ قول الإنجيليّ: "كانت قطرات دمٍ كبيرةٌ تتساقط على الأرض"، أحسستُ أنّ تلك القطرات كانت تنثال على قلبي، وما زالت فيه».

وتذكر أنّ الكاهن حرّضهنّ على إثبات حبّهنّ ليسوع، من خلال تحمّل تضحياتٍ عن الآخرين، وأفهمهنّ أنّ التضحية ترتدي بُعدًا مقدّسًا، رائعًا، وشاقًّا. ومنذئذٍ أدركت

---

[1] اسمها قبل الترهّب، "مادلين سانكان".

قدسيّة المشاركة، وأنّ بالإمكان مشاركة يسوع من خلال البشر، على الأرض، ولا سيّما البشر البائسين. ومنذئذٍ، غدت الحياة، التي كانت تبدو لها تافهةً، ذات قيمةٍ، إذ غدا بالإمكان تقديسها فقط من خلال المحبّة والمشاركة.

وشرعت تخوض صراعًا بين البهيمة والملاك، في داخلها، بين رغبات جسدها، وتطلّعاتها الروحيّة.

وحدَثَ ما أثّر تأثيرًا حاسمًا على مستقبلها. ففي سنّ الثانية عشرة مُنِحت، مكافأةً على نجاحها في الدروس، كتابًا ضخمًا مصوّرًا عن مخاطرات المرسَلين في أفريقيا. وقد ولّد هذا الكتاب في نفسها رغبة الرسالة والشهادة. وقرّرت الذهاب إلى أفريقيا، عندما تكبر، وإطلاع الأولاد، هناك، عن حبّ يسوع لهم، غير آبهةٍ باحتمال قتلها، وتقطيعها إربًا إربًا، وأكلهم لها. وغدت تُعلن جهارًا، "سأصبح راهبةً، ومرسلةً، وشهيدةً"، مثيرةً سخريّة شقيقتها الكبرى وأخيها الأصغر.

وذات يومٍ، جاء أخوها يضجّ فرحًا، وزفّ لها نبأ سماح البابا بيّوس العاشر بالتناول، يوميًّا، لكلّ راغبٍ، إذا كان في حال النعمة، فكتبت:

«كان تأثير تلك البشـــرى عليّ صـــاعقًا، وأعلنتُ باندفاعٍ قراري: "منذ الغد ســأتناول كلّ يومٍ!"... ومنذ ذلك اليوم من خريف عام ١٩٢٠، أصــبح القدّاس اليوميّ محور حياتي، ومنبع فرحي، وقوّتي، وتوثّبات حبّي... وقلّما مرّ يومٌ لم ألبِّ فيه نداء من كان يدعوني. آلاف المرّات، منذ سـنّ الثانية عشـرة حتّى بعد الثمانين، تلقّيت قوّة الربّ الذي كان يعيدني إلى موقعي الصحيح إثر كلّ انزلاقٍ، في كلّ يومٍ من أيّامي».

وفي هذا السبيل كان عليها خوض صراعٍ دائمٍ بين جسدها وقلبها كي تظلّ وفيّةً لحبيب روحها.

وعن رغبتها في اعتناق الحياة الرهبانيّة تقول إنّها لمّا فاتحت أمّها بهذه الرغبة أجابتها:

"ليس لديك ما يؤهّلك لحياة الأديرة، ولن تصمدي أُسبوعًا واحدًا في ديرٍ. وأنا لا أريد أن تصبحي موضع سخريّةٍ، فتدخلين وسرعان ما تخرجين. انتظري حتّى بلوغك سنّ الرشد، وحينئذٍ ستكونين حرّةً بفعل ما ترغبين فيه". كانت، آنذاك، في الثامنة عشرة، وكانت سنّ الحرّيّة تبدأ في الحادية والعشرين.

عام ١٩٢٧، أرسلتها والدتها إلى لندن كي تتعلّم اللغة الإنكليزيّة، لدى عمّتها الراهبة التي كانت رئيسةً لمدرسةٍ تابعةٍ لأخوات سيّدة "سيون"، حيث وجدت هدوء النفس، وباحت لعمّتها برغبتها في تكريس ذاتها للرسالة.

ولمّا لحظت عمّتها تردّدها بين الحياة العلمانيّة والزواج من جهةٍ، والحياة المكرّسة من جانبٍ آخر، نصحتها بقضاء ثلاثة أيّام خلوةٍ، في مكانٍ بعيدٍ، وإنضاج قرارها بحرّيّةٍ تامّةٍ. فاختلت في دير راهبات في ضواحي لندن، حيث كان كاهنٌ ينصحها كلّ صباحٍ بموضوعٍ تشبعه تأمّلًا. فاستعادت جوّ استعدادها للمناولة الأولى، وتأمّلها في آلام المخلّص في بستان الزيتون، وتساقط قطرات دم يسوع على قلبها.

وفي اليوم الثالث نصحها الكاهن، تسهيلًا لاتّخاذها قرارًا، أن تأخذ ورقتَيْن، وأن تقسم كلًّا منهما إلى قسمين، وتُبرز على كلٍّ منهما، بوضوحٍ وصراحةٍ، من جانب مزايا الزواج، ومن جانبٍ آخر محاذيره وخطره على نفسها. وعلى الورقة الأخرى محاسن الحياة المكرّسة من جانبٍ، ومخاطرها على نفسها في الجانب الآخر. وبعدئذٍ، مقارنة الحسنات والمساوئ في الحالتين، واتّخاذ قرارها على ضوء ما تراه الأفضل لها.

وقادتها تلك المقارنة الواعية إلى اختيار الحياة المكرّسة، في جمعيّة راهبات سيّدة "سيون"، التي تستهدف العناية بالفقراء، وتعليم أبنائهم، في حياةٍ تندرج على وقع الصلاة، وتنعم بالأمان والاستقرار النفسيَّيْن.

وجديرٌ بالتنويه أنّ تلك الجمعيّة كان قد أسّسها الكاهنان الأَخَوان تيودور وألفونس

راتسبون، وكان الأخ الأكبر تيودور قد ارتدّ باكرًا عن اليهوديّة، واعتنق العقيدة الكاثوليكيّة وأصبح كاهنًا، فنبذَتْه أسرتُه جمعاء، وكان أخوه الأصغر أشدّ الحاقدين عليه. وكان لهما عمٌّ يملك مصرفًا ورغب في تزويج ابنته الوحيدة إلى ابن أخيه ألفونس، وجعله مدير مصرفه، ثمّ وريثه.

ولكنّ ألفونس، قبل عقد زواجه، رغب في القيام برحلةٍ ترفيهيّةٍ، قادته إلى روما، وهناك حدّثه صديقٌ كاثوليكيٌّ عن الإيقونة العجائبيّة التي كلّفت السيّدة العذراء الراهبة "كاترين لابوريه" بسكّها ونشرها، وفق نموذجٍ أعدّته العذراء بنفسها. وأسبل صديق ألفونس في رقبته هذه الإيقونة فتقبّلها بدافع المجاملة. ثمّ اتّفق أن رافق ألفونس صديقه إلى كنيسةٍ، حيث كان عليه أن يُعدّ لجنازة أحد رفاقه، وهناك حدث ما قلب كيانه، فعزف عن الزواج، والعودة إلى فرنسا، وعن المصرف ووراثة ثروة عمّه، ثمّ أصبح كاثوليكيًّا، فكاهنًا، وانضمّ إلى أخيه تيودور، وأقاما في القدس، وهناك أسّسا رهبنة سيّدة "سيون"، هدفها غوث الفقراء، وتعليم أبنائهم.

كانت مادلين، إذن، قد حدّدت هدف حياتها، ووجدت طريقها، وقرّرت أن تكون راهبةً واقفةً حياتها على خدمة المحرومين، وإنهاضهم من وهاد البؤس والجهل والمرض.

لم تتوهّم بأنّها غدت في مأمنٍ من تجارب الضعف، ولكنّها كانت واثقةً بأنّ الذي كرّست ذاتها لخدمته من خلال أصدقائه الأثيرين المهمّشين، قد قهر الموت والشرّ، وأنّه سيعينها على قهر كلّ وهنٍ.

واستقلّت باخرةً، عائدةً بها إلى فرنسا، وخطر لها أن تودّع حياة اللهو، فاسترخت على متن الباخرة، وأشعلت سيكارةً، وجاء شابٌّ غريبٌ، وجلس إلى جانبها، ودار بينهما الحوار الطريف التالي:

– تدخّنين، يا آنسة؟

- كما ترى، سيّدي.
- وإلى أين أنت ذاهبةٌ، يا آنسة؟
- إلى الدير، يا سيّد.
- مع هاتين العينين، يا آنسة؟
- لن أتركهما عند الباب، يا سيّد.
- أنا ذاهبٌ إلى برلين، يا آنسة.
- موفّقٌ، يا سيّد.
- ألا تريدين أن تأتي معي، يا آنسة؟
- هل تريد أن تدخل، أنت أيضًا، إلى الدير؟
- لا بالتأكيد.
- إذن لن نلتقي بعد.

ومضى الشابّ وحيدًا إلى برلين.

بروكسيل ١٩٢٨

في بروكسيل استعادت مادلين التأهّل لتفصيل الثياب قبل الظهر، ومتابعة دراسة الفلسفة واللاهوت، بعد الظهر، في معهد القدّيس لويس. وكان القرار الذي اتّخذته في لندن ما زال صامدًا، حيًّا. واختارت مرشدًا روحيًّا لها، الأب "ريشمان" (Rychmans)، وروت له كلّ مغامراتها في لندن، وأطلعته على قرارها كي يقنع والدتها بالسماح لها بدخول الدير قبل بلوغها الحادية والعشرين من سنواتها. فازداد دهشةً، وسألها:

- هل أنت جادّةٌ، يا آنسة سانكان؟
- مؤكّدٌ، أبتِ!
- هل تريدين نصيحتي، حقًّا؟
- لهذا السبب جئتُك.
- إذن، تزوّجي في أسرع وقتٍ.
- مستحيلٌ. فأنا مدعوّةٌ إلى حياةٍ مكرّسةٍ.

وما لبثت أن شرعت تتبدّد السكينة الروحيّة التي غشت نفسها في لندن، وساورتها تجارب خطيرةٌ، وربّما كانت قد أطاحت بها لولا صلوات والدتها المستمرّة، من أجل إنقاذ نفسها. ولمّا أطلعت الفتاة مرشدها على ما تعرّضت له، ذُعِر، وأكّد لها أنّ نجاتها كانت أعجوبةً، وقد لا تتكرّر. وجدّد دعوته لها إلى الزواج السريع كي لا تنزلق إلى الدعارة، ونصحها بالعزوف عن فكرة الحياة المكرّسة. فأجابته:

- أنت تقيّد دعوتي وتلجمها!
- ألا تعلمين أنّ الحياة المكرّسة تقتضي الالتزام بنذورٍ؟

– هذا بالطبع ما أصبو إليه: الارتباط بنذور الفقر والعفّة والطاعة!

– الفقر؟ أمّك تقول إنّك لا تنفكّين تطلبين مالًا لإنفاقه على تبرّجك وأناقتك.

– في الحياة الرهبانيّة، لا تبرّج، ولن أملك سوى ثوبٍ واحدٍ، يدوم العمر كلّه، فلن أحتاج إلى مالٍ.

– وماذا عن العفّة؟

– ليس في الدير رجالٌ، ولا فرصة غوايةٍ.

– وماذا عن الطاعة، وأنت لا تخضعين لأحدٍ، بدليل أنّك اخترتِني مرشدًا، وأنت مصمّمةٌ على عدم الأخذ بنصائحي. في الدير لن تستطيعي قول سوى كلمة "نَعَم"، هل فهمتِ؟

– هذا ما أسعى إليه. فقد ضقتُ ذرعًا بذاتي، وإنّي أبحث عن نظامٍ يقيّدني ويلزمني بقول "نَعَم".

ولمّا ضاق الكاهن ذرعًا بمحاولاته الفاشلة في إقناعها بوجهة نظره، هتف:

– علامَ جئتِ تسترشدينني؟

– كي تُقنع والدتي بالسماح لي بدخول الدير، في الحال.

– هذا مستحيلٌ. فعندما ستُسجَنين، ستجنّين، وستجنّنين الدير كلّه معك.

– إذن، أنت تلقيني على دروب الدعارة، حسب قولك. وستتحمّل مسؤوليّتي أمام الله والبشر!

– ماذا تقولين؟

– الحقيقة الصرف.

وحينئذٍ، شرعت مادلين تنتحب متمتمةً: "أنا تائهةٌ، وأنت ترفض إنقاذي. أرجوك، أبتِ، تعال غدًا، وقل لوالدتي: "دعيها تدخل الدير، وسرعان ما ستعود وتتزوّج". وأنا أقسم لك، أنّي، إذا عدت من الدير، ففي يوم عودتي سأقصد نادي رقصٍ، وسأقترن بأوّل شابٍّ يعجبني، أو بالثاني، وسأنفّذ رغبتكما".

وفي الغد جاء الكاهن، وعبّر عن استعداد الفتاة. واستجابت الوالدة لاقتراحه، وسارعت إلى مراسلة عمّة مادلين كي ترسل كتاب توصيةٍ إلى فرع الجمعيّة في باريس، بقبول مادلين في الابتداء. ولكنّها في الآن عينه كتبت هي أيضًا إلى رئيسة الدير في باريس، محذّرةً من عدم امتلاك ابنتها الصفات المؤهّلة للحياة الرهبانيّة، لأنّ سلوكها ليس، دائمًا، سويًّا، وهي تفتقر إلى روح الانتظام والانضباط، والتقوى والحشمة، والتضحية بلا حدود، وهي نزوعةٌ إلى التأنّق والتظاهر.

ولكنّ دعوتها كانت أقوى من كلّ عيوبها. وكانت واثقةً أنّ الأب السماويّ لن يدعها تقع، مثلما كان والدها يحرص على سلامتها، عندما كانت ترتمي بين ذراعيه.

وانطلقت بلا متاعٍ، ملبّيةً دعوة يسوع لها في مناولتها الأولى، ودعوة الرسالات البعيدة من أجل خدمة المحرومين، تحدوها ثقةٌ راسخةٌ بأنّ يسوع هو الرجل الوحيد الذي لن يخيّب رجاءها.

المبتدئة

يوم دخلت المركز الرئيس للجمعيّة في باريس، قالت لها الرئيسة، الأمّ كونستانتينا: "تلقّينا رسالة الأمّ فيديليس، رئيسة فرعنا في لندن تُعلِمنا أنّك راغبةٌ في مباشرة مرحلة الابتداء.

– من أجل هذا أنا هنا. هل أباشر غدًا؟

فابتسمت الرئيسة التي كانت قد تلقّت، أيضًا، تحذير أُمّ مادلين، وقالت:

– بل سنُخضِعُك، قبل ذلك لامتحانٍ.

وأرشدتها إلى النظام الذي يتعيّن عليها التقيّد به، وإلى الخدمات المطلوب منها أداؤها. وأردفت: "لا خروج من الدير، ولا نزهات في شوارع باريس".

– "بالتأكيد لن أخرج. حتّى إنّي لم أخبر عمّاتي بوجودي هنا".

وبسرورٍ، صارت تنهض في الخامسة، وفي الخامسة والنصف تكبّ على التأمّل وحضور القدّاس، منفّذةً النظام بحذافيره، أدقّ تنفيذٍ. غير أنّها في قاعة الطعام كانت بؤرة فرحٍ، مثيرةً عواصف من الضحك الصاخب، حتّى بين السيّدات المسنّات المقيمات في الدير.

وفي هذه الأثناء جاءت إلى الدير فتاتان إيطاليّتان، زريّتا الهندام، كانتا تتناولان طعامَهما بصمتٍ. وسارعت الراهبة المكلّفة بإلباس الراهبات، إلى تسجيل مقاس كلٍّ منهما من أجل إعداد زيّهما الرهبانيّ. فهرعت مادلين إلى الرئيسة مستوضحةً عن سبب إعداد الزيّ الرهبانيّ للقادمتَيْن الجديدتَيْن، وإغفال إعداد زيٍّ لها. وفي شيء من الإحراج أجابتها الرئيسة:

– "أنتِ لم تُقبَلي بعد، إذ يبدو أنّك مثيرةٌ للصخب. وسيقرّر مجلس الإدارة، غدًا، بشأن مصيرك.

كانت رئيسة الابتداء قد اطّلعت على تحذيرات والدتها، فاستفسرت الراهبات العاملات مع المبتدئات، فأكّدت الأخت التي تُعنى بقاعة الطعام: "إنّها تثير ضحك حتّى السيّدات المسنّات، وارتأت أن لا حاجة إلى مجنونةٍ تُشيع الصخب بين المبتدئات. فاستدعتها الرئيسة، واستمعت إليها، وتبيّنت حيويّتها الفيّاضة الصاخبة، ولكنّها لحظت، في الآن عينه، تصميمها على الاستجابة لدعوتها، ورجحت كفّة توصية عمّتها، رئيسة فرع الجمعيّة في لندن على تحذير والدتها، وتقرّر إخضاعها لفترة اختبارٍ.

وكانت مادلين قد اختارت اسمها الرهبانيّ، بناءً على رواية الإنجيل أنّ العذراء ستلد ابنًا تدعوه عمّانوئيل، أي "الله معنا"، وهي كانت عازمةً على تحويل مادلين الضاجّة المضطربة، إلى إمّانُوِيل، التي تحيا مع الله، وبعونه.

ويوم الخامس من شهر نوّار (أيّار) ١٩٢٩، خلعت مادلين الثياب الملوّنة التي كانت تبرز أناقتها، واستبدلتها بثوبٍ وحجابٍ أسودَيْن خاليَيْن من أيّ زخرفٍ، وأخذت بها نشوة التحرّر، عبّرت عنها بقولها:

"في تلك اللحظة لم أعُدْ، كما كنتُ، ابنة حوّاء، التي تعدُّ الجمال الجسديّ هو القيمة الجوهريّة، ولا تولي اهتمامًا إلّا لبريق العيون، ورسم الشفاه، واحمرار الخدّين، ونعومة البشرة، ولمعان الشعر، وفتنة الصدر، وانسياب الساقين... تحرّرت من عبوديّة افتتان الذكر، التي طالما أرّقتني. فلتذهب الآن إلى الجحيم. لن أكون، بعد الآن، فريسةً مقدَّمةً دائمًا، ودائمة الجوع... أخيرًا شعرتُ بحلاوة الحرّيّة، حرّيّة الجسد، والقلب، والإرادة، انتهت مادلين سنكان، وحلّت محلّها الأخت إمّانُوِيل، أخت الجميع. لقد تحرّرتُ من عبوديّة الشهوة، وسأكون الهاربة الدائمة مع يسوع مستمدّةً قوّتي منه، وتحدوني باستمرار نفحة "الحبّ الفائق"، متحدّيةً الأزمات، وتجارب الشكّ. سأتوثّب فوق الأمواج والعوائق، رشيقةً، ضاحكةً، يدًا بيدٍ مع المسيح الحبّ، مقدّمةً لكلّ إنسانٍ مجّانيّة المحبّة المشعّة. فليتمجّد اسم الربّ. وافرحي يا إمّانُوِيل، ولا تخافي، الابتداء بانتظارك".

ولمّا تيقّنت رئيسة الابتداء من عزمها الوطيد على الثبات في دعوتها، عكفت على إعدادها روحيًّا. وبرقّةٍ وتؤدةٍ، علّمتها أنّ على الراهبة أن تضحّي، أحيانًا، بآرائها الشخصيّة، وبكبريائها.

لا ريب أنّ ذكريات العبث الماضية، كانت تقتحم نفسها، بين حينٍ وآخر، ولكنّها، عملًا بنصيحة معلّمة الابتداء، كانت تدعها تعوي، ولا توليها بالًا. وكانت الصلاة التي تندرج حياة الدير على وقعها، تُمِدُّها بالمنعة لمقاومة أعتى التجارب. وكانت عذوبة حبّ الله تُنسيها كلّ متعةٍ أرضيّةٍ. وبهذا الحبّ ذاته تقبّلت ممارسة الطاعة، فكانت نظرةٌ على الصليب كافيةً لملء نفسها سلامًا، وصفاءً، وتسليمًا، ولا سيّما أنّها كانت تساعدها على تحقيق ما ابتغته من الحياة الرهبانيّة: التغلّب على أنانيّتها وشهواتها وتمرّدها. وتعلّمت أنّ الوسيلة المثلى لمواجهة المصاعب الكبرى هي الحبّ الأعظم، والتجرّد الكلّيّ. وتعلّمت من نذر الفقر ألّا تعدّ أيّ شيءٍ في الدير ملكًا خاصًّا لها.

وهذا التحرّر من الأنانيّة، والشهوة والامتلاك، هيّأها لتقديم محبّةٍ مجّانيّةٍ للجميع، ولجاهزيّةٍ دائمةٍ لخدمة كلّ محتاجٍ، وللانغماس حتّى قعر البؤس البشريّ، من أجل تخفيفه.

ومع اقتراب نهاية سنَتَيِ الابتداء، وأوان الارتباط بنذورٍ، استدعتها رئيسة الابتداء واستفسرتها عن استعدادها للانخراط في حياة الرهبانيّة إلى الأبد، رغم طبعها المتفجّر. فأجابت:

- ها قد أمضيتُ سنتَيْ الابتداء برضًى.
- ولكن هل ستصمدين خمسين أو ستّين سنةً أو أكثر؟
- أكثر أو أقلّ، لا يهمّني.
- ما زلتِ حرّةً بالعودة من حيث أتيتِ. فهل، مع ذلك، تريدين الارتباط بنذورٍ؟
- أجل، بالتأكيد. فالحبّ هو الارتباط للحياة وللموت.

حينئذٍ، خضعت مادلين لامتحانٍ كنسيٍّ، بغية التأكّد من الدافع الذي يحدوها إلى الانخراط في الحياة الرهبانيّة، بمعزلٍ عن ضغوطٍ من أيّة جهةٍ، فأكّدت اتّخاذها هذا القرار مخالِفةً نصائح والدتها، وحتّى الكهنة الذين كانوا يعرفون تمرّدها، وفيضَ حيويّتها، وكَلَفها بالتأنّق، وجهدوا في ثنيها عن الحياة الرهبانيّة، خشيةَ عجزها عن الصمود، مُعلنةً:

– دافعي هو تكريس ذاتي لله، ولخدمة كلّ متألّمٍ في العالم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأُسقف الذي أقسمت على نذورها بين يديه، لم يقتصر على السؤالَيْن التقليديَّيْن اللذيْن يُطرَحان على كلّ راهبةٍ، بل أضاف سؤالًا ثالثًا، وكأنّه مفصّلٌ لها شخصيًّا، فقال: "هل ستقوَيْن على الصمود مع ما تتمتّعين به من شخصيّةٍ قويّةٍ؟ فاستهجنت هذا السؤال، وكأنّ الحياة الرهبانيّة وقفٌ على الشخصيّات الهزيلة، الهشّة، وأجابت:

– أجل، أبتِ، سأصمد، لأنّي لستُ وحدي، بل الله معي".

وأوضحت أنّها تريد الارتباط بنذورٍ، لكي لا تنظر إلى الوراء، وأنّها بمعونة يسوع والسيّدة العذراء، وجمعيّتها، ستقوى على الوفاء لنذورها، وأنّ النذور هي نبع ازدهارها النفسيّ، وكلّ سعادتها.

وكانت رئيسة الابتداء قد أوضحت لها ولأخواتها المُقدِمات على الارتباط مثلها، أنّ الحبّ هو الذي دعاهنّ، والحبّ يعني عطاء الذات المطلق، كما أحبّ يسوع حتّى الصلب كالعبيد المجرمين، جاعلًا من الحبّ ترياقًا للكراهية والموت، وأطلعتهنّ على أنّ كلًّا منهنّ ستتلقّى، في الغد سلسةً وصليبًا، رمزًا لتقيّدهنّ بمَن عنى له الحبّ بذل دمه.

وكان اليوم الكبير يوم الأحد الواقع في ١٩٣١/٥/١٠، فارتبطت مادلين بالنذر لسنةٍ واحدةٍ، ثمّ جدّدتها سنةً فسنةً. على امتداد ستّ سنواتٍ، قبل الارتباط بنذورٍ مؤبّدةٍ.

طَلَبُ والدتها الوحيد، يومذاك، هو أن تكون راهبةً صالحةً.

غداة إبرازها النذور استدعتها رئيسة الدير، وقالت لها: "نظرًا لشهادتك العلميّة، أرى إرسالك إلى السوربون، من أجل الحصول على إجازةٍ تخوّلك التدريس في معاهد عليا. فأجابت:

– ولكنّي كنتُ قد طلبتُ منك تكليفي بخدمة الفقراء، ووعدتِني بذلك.

– إذن، يمكنك الذهاب إلى اســـتنبول، وتولّي التعليم الابتدائيّ في مدرســـتنا المجّانيّة. وكم من بؤسٍ هناك!

– أجل، أرسليني إلى استنبول.

– أنا شخصيًّا أُفضّل إرسالك إلى الجامعة. ولكنّي لن أضغط عليك. فكّري في الأمر مليًّا.

– لقد أشبعتُ الأمر تفكيرًا، وأنا مستعجلةٌ إلى خدمة الفقراء.

لم يتحقّق حلم الأخت إيمّانويلّ بالرسالة في أفريقيا، بين آكلي البشر، ولكن ها إنّ أطفال تركيّا الفقراء يمدّون لها أيديهم، وستسارع إلى انتشالهم من بؤسهم، والانطلاق بهم إلى حياةٍ كريمةٍ، رافعي الهامات.

هيّا إلى استنبول!

استنبول ١٩٣١ - ١٩٥٥

فرع الجمعيّة في استنبول كان يضمّ ستّين راهبةً تترأّسهنّ الأُم "إلڤيرا" (Elvira)، التي كانت تحسن الإصغاء والاستيعاب، ومحبّة كلّ راهبةٍ كما هي. وبهذه المودّة الرقيقة والحازمة كانت تبدّد الخلافات التي لا بدّ أن تنشب بين ستّين راهبةً، وأن تشيع بينهنّ السلام والوئام. وكان من حسن طالع الأخت إمّانُوِيل أن تستهلّ مسيرتها الرهبانيّة مع رئيسةٍ من هذا النمط.

المدرسة الابتدائيّة المجّانيّة في استنبول كانت تضمّ نحو خمسين طالبةً، معظمهنّ بنات أُسرٍ مسيحيّةٍ فقيرةٍ، يونانيّاتٍ، وأرمنيّاتٍ، مهمّشاتٍ بسبب دينهنّ. ومن حسن طالع الأخت إمّانُوِيل، أنّها حظيت بمعاونةِ معلّمةٍ تركيّةٍ، تُدعى الآنسة مادلين، ولولاها لانقلبت الدروس إلى فسحة تسليةٍ دائمةٍ. فقد كانت الأخت إمّانُوِيل، آنذاك، توّاقةً إلى جعل التعليم وسيلة متعةٍ للطالبات. ولكي تعلّمهنّ النظافة غطّست دميةً في ماءٍ، وغسلتها بصابون، ثمّ سرّحت شعرها، وطالبت الفتيات على أن يأتين في الغد متألّقاتٍ نظافةً، مثل الدمية. وشاع المرح والهَرَج في الصفّ، فتدخّلت معاونتها الآنسة مادلين، وفرضت النظام، واستعادت دروس القراءة دورها.

وبما أنّ الكاپيلّات كانت ملاصقةً لقاعات الدرس، كانت الأخت ترفع إلى الربّ نظرها، بين فينةٍ وأُخرى، وتشكر له منحها أولادًا تحبّهم معه. وكانت، أحيانًا، ترافق الطالبات المسيحيّات إلى الكاپيلّا، وتطوف معهنّ درب الصليب، وتشعر بفرحٍ غامرٍ.

وذات مساءٍ أخذت بها، فجأةً، رجفةٌ شديدةٌ، وارتفعت حرارتها إلى أربعين درجةً، وأُجبرت على التزام الفراش، وشخّص الطبيب لديها هجمة تيفوئيدٍ حادّةً. وإذ لم تكن مضادّات الحيويّة القادرة على مقاومة تلك الأمراض قد اكتُشفت، بعدُ، قدّر الطبيب

أنّ موتها محتّمٌ، فاستُدعيت والدتها على عجلٍ. وكانت شدّة الحرارة، قد أفقدتها رشدها، وجعلتها تهذي، وتشتم الأطبّاء والممرّضات، وشرعت مخيّلتها الجامحة تصوّر لها أقبح الصور وأقذرها. وحينئذٍ، تذكّرت والدتها أنّها قرأت في صحيفةٍ بلجيكيّةٍ، أنّ نقل دمٍ جديدٍ قد ينقذ من الموت، في حالات الخطر الدائم. واقترحت أن يُجري الطبيب الذي كان يعالجها، نقل دمٍ، أملًا في إنقاذها. وقال الطبيب: "على كلّ حالٍ هي هالكةٌ. فلنجرّبْ". وتبيّن أنّ دم الأمّ الرئيسة والأخت "تيودورا" يتوافقان مع زمرة دم الأخت إمّانُوِيل، وتمّ نقل جرعاتٍ من دميهما إليها، فساعدا على إنقاذ حياتها.

وكانت النشرة الدوريّة العامّة التي تُصدرها الجمعيّة قد أطلعت نحو ألفي راهبةٍ منتسباتٍ إلى الجمعيّة، في مختلف أرجاء العالم، على أنّ راهبةً شابّةً تُدعى الأخت إيمّانويل تحتضر في استنبول، فارتفعت إلى السماء حزمةٌ كثيفةٌ من صلواتهنّ المتشابكة، ونالت لها الشفاء.

هذه الحادثة ضاعفت تصميم الأخت إمّانُوِيل على مواصلة الرسالة التي كرّست لها حياتها، وأترعت نفسها فرحًا. وكانت الساعات التي تقضيها في الكابيلّا، أمام "مقرّ القربان المقدّس"، متخشّعةً، مستمدّةً القوّة على متابعة رسالتها، قد وثّقت علاقتها بالربّ، ودعمت تفانيها في خدمة الطلّاب الفقراء، كما أنّ مودّة الأمّ إلڤيرا، وسهرها الرقيق اليقظ كانا يُمِدّانها بدعمٍ منيعٍ.

وكان لعطف الأمّ إلڤيرا، ولحنكتها، ولإرشادها الحكيم يدٌ في تمكين الأخت إمّانُوِيل من تخطّي الأزمة النفسيّة، التي سبّبتها الأزمة الصحّيّة القاسية وأوهنت أعصابها. ولا ريب أنّ من عوامل انتشالها من تلك الأزمة كان حبّها المضطرم ليسوع، وعطفها الحنّانيّ على صغارها الفقراء، وساعدها أيضًا ولعها بالمطالعة، ووجود مكتبةٍ في الدير، زاخرةٍ بكلّ أنواع الكتب التي كانت توفّر لها كلّ المطالعات التي تهواها.

ولاحظت رئيسات الأخت إمّانُوِيل أنّ مستوى ثقافتها يؤهّلها لتدريس الصفوف المتوسّطة والثانويّة، عوضًا من هدره في تدريس الصفوف الابتدائيّة. فاقترحت الرئيسة البدء بتكليفها بتدريس الصفوف المتوسّطة. ولكنّ هذا الاقتراح هبط على قلب الأخت إمّانُوِيل هبوط الرصاص والحنظل، لأنّها لم تُطِقِ الانسلاخ عن أبنائها الصغار الفقراء. ولمّا تبيّنت الأمّ الرئيسة ذلك، آثرت عدم إكراهها على ما لم يجد في قلبها قبولًا، وإرجاء الأمر إلى سنةٍ دراسيّةٍ تاليةٍ.

وفي ختام السنة الدراسيّة، صارحتها الرئيسة: "أعلم أنّك تحبّين الفقراء الصغار، وها قد تسنّت لك سنةٌ أخرى معهم، ولكنّك تمتلكين قدراتٍ تعليميّةً أكبر من تعليم الصفوف الابتدائيّة، وبإمكانك تحقيق خدماتٍ جلّى، في هذا المجال، حيث يمكنك تثقيف شبّان الوسط الميسور على المشاركة وعلى النهوض بمستوى الفقراء. أليس هو هدف مدارسنا؟ فبعض هؤلاء الشبّان سيتولّون مراكز قياديّةً، مستقبلًا، فأعدّيهم لإحلال العدل والمحبّة. ألا تريدين المساهمة في هذه المهمّة، وأنتِ مؤهّلةٌ لها؟

في البدء كُلِّفت بتدريس أولادٍ تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٣ سنةً، ثمّ كُلِّفت بتعليم فتياتٍ تركيّاتٍ ويونانيّاتٍ، وأرمنيّاتٍ، ويهوديّاتٍ، أنهينَ دراستهنّ الثانويّة، ورغبنَ في تعلّم اللغة الفرنسيّة وأدبها. وكان ذاك هو الجوّ الملائم لدعوة جمعيّتها المسكونيّة، ولمهمّة تقريب الأديان والطوائف بعضها من بعضٍ. وقضت الأخت إمّانُوِيل في تنفيذ هذه المهمّة ثلاث سنواتٍ مترعاتٍ حماسًا واندفاعًا، مع فتياتٍ لا يصغرنَها سوى سنواتٍ معدوداتٍ، ومتعطّشاتٍ إلى النهل من ثقافتها، وقد أتاحت لها تلك السنوات كُلّ أصناف التبادل والتواصل.

وقد جهدت الأخت في توجيه الفتيات إلى الحبّ العطاء، عوضًا من الحبّ الغنيمة، مستخدمةً أسلوب سقراط في مساعدة كلّ فردٍ على إنجاب كنوز نفسه الدفينة.

وذات يومٍ، رافقت ثلّةً من المتطوّعات إلى معمل حياكةٍ ونسيجٍ، حيث شاركنَ العاملات في لفّ الخيوط على مواسير. وفي يومٍ آخر واكبت مجموعةً أكبر عددًا من أجل تقديم هدايا لأيتامٍ ومُسنّين مهمَلين، ولكَم شهدنَ مناظر بؤسٍ وإهمالٍ، وكم كانت أصغر مبادرات العطف تملأ بالغبطة نفوسًا، لم تتذوّق طعم العطف قطّ، أو حُرِمت منه طويلًا.

وكان فريقٌ منهنّ يرافقها إلى مساكن الصفيح، للتعبير عن محبّتهنّ لسكّانها. ولاحقًا، ثابرت بعضهنّ على تأسيس جمعيّاتٍ تُعنى بالمهمّشين، وربّينَ أبناءهنّ على التزام العدالة الاجتماعيّة.

ودأبت على غرس ذوق الجمال الفنّيّ من خلال المسارح العالميّة ولا سيّما الإغريقيّة، وعلى تقدير الذوق السليم والخَفَر. وعلّمت التلميذات تمثيل مسرحيّاتٍ شهيرةٍ على مسرح المدرسة.

ولكي تُلزِم مئتين وأربعين طالبةً الصمت، أثناء وجبة الغداء، كانت تدعوهنّ إلى تذوّق سمفونيّةٍ بتهوفن التاسعة، بهدوءٍ، وتفسّر لهم مواطن روعتها.

وبيّنت لهم أفضال الجهد، بترديدها على مسامعهم، باستمرارٍ، قول الشاعر ڤيكتور هوغو: "الأحياء هم المناضلون"، وأقوال حكماء آخرين، فالجهاد هو الذي يرقى بطاقات البشر إلى أسمى مستوًى، ويساعد على مواجهة الأوقات المشمسة، والأوقات الملبّدة بالغيوم، بسلامٍ واحدٍ.

نذورٌ مؤبّدةٌ

بعد قضائها ستّ سنواتٍ في استنبول، وتجديدها، في هذه الأثناء، نذورها سنةً فسنةً، حان وقت خيارها الالتزام بنذورٍ دائمةٍ، أو العودة إلى الحياة العلمانيّة. فاستدعتها رئيستها وسألتها هل هي تفكّر بإطالة شعرها، ملمحةً إلى احتمال رغبتها في العودة إلى الحياة العلمانيّة. ولم يرُق هذا التلميح للأخت إمّانُوِيل، ولكنّ الرئيسة التي كان واجبها يفرض عليها دعوتها إلى رَوْز قرارها بحرّيّةٍ، وإمعانٍ، صارحتها بحِرصها على توخّي ازدهارها النفسيّ، ولا سيّما أنّها على بيّنةٍ من فيض حيويّتها، ولطالما كانت ساعدتها على تخطّي مِحَنٍ طارئةٍ. وبصّرتها من احتمال أن تخلفها رئيستُها تفتقر إلى مثل انفتاحها وتفاهمها، فعليها أن تقلّب الأمر بتأنٍّ في فكرها، تحسُّبًا للمستقبل. ولكنّ الأخت أجابتها:

"– لقد أعملتُ فكري مليًّا، واتّخذتُ قراري. أعلم أنّك ستتركيني، ذات يومٍ، كي تلتقي يسوع في السماء، ولكنّ يسوع لن يتركني، في حياتي أبدًا، وسنصار معًا، وسأصمد بقوّته".

وانطلقت تدندن أغنيّة "عندما نكون اثنين سيختلف الأمر".

ويوم ١٩٧٧/٩/٨، ارتبطت الأخت إمّانُوِيل بنذورٍ مؤبّدةٍ، وحّدتها، للحياة والموت، بحبيبها يسوع.

وعام ١٩٣٨ فُجع الشعب التركيّ بوفاة أبيه "أتاتورك"، مصطفى كمال، الذي كان قد أشرع البلاد على نظامٍ ديمقراطيٍّ، علمانيٍّ، متحرّرٍ من سيطرة "شيخ الإسلام"، ومن كلّ تأثيرٍ أجنبيٍّ، ومن التعصّب، ومنع كلّ لباسٍ يشير إلى دينٍ. ولكنّه اتّصل بالأمّ رئيسة الراهبات. ومع أنّه لم يعفِها من واجب استبدال الثوب الرهبانيّ بثيابٍ مدنيّةٍ رجاها ألّا تغلق مدرستها في تركيّا، حيث كانت بناته بالتبنّي يتعلّمنَ، وكان يقدّر تعليمهنّ المنفتح على كلّ الثقافات.

غير أنّ مركز الجمعيّة الرئيس في باريس لم يُطِق استبدال راهباته في تركيّا زيّهنّ الرهبانيّ بزيٍّ مدنيٍّ، وآثر نقل المدرسة من استنبول إلى بلدٍ آخر أكثر ليبيراليّةً. ولكنّ الأُمّ إلڤيرا ظلّت حريصةً على متابعة رسالة مدرستها في استنبول، فطارت إلى باريس، ولكنّها فشلت في إقناع الرئاسة العامّة بوجهة نظرها، فلجأت إلى كردينالٍ في روما مسؤولٍ عن الجمعيّات الرهبانيّة، فاقتنع برؤيتها، وبوجوب عدم التضحية بمؤسّسةٍ تؤدّي خدماتٍ جُلّى، بسبب الاضطرار إلى تغيير زيٍّ. واضطرّت الرئاسة العامّة بقبول استمرار مدرسة استنبول في أداء رسالتها، حيث هي، ولكنّها أصرّت على التزام احتشام اللباس.

وكانت قضيّة إلباس كلٍّ من ستّين راهبةً زيًّا مدنيًّا خاصًّا، مغرقًا في البساطة، موضوع تندّرٍ، فكانت كلّ راهبةٍ تبكي بعينٍ قباحة زيّها، وتضحك بالعين الأُخرى، سخريّةً، على قباحة زيّ زميلاتها. ولكنّهن تنفّسنَ الصعداء لمّا زارهنّ الكردينال "رونكالّي"، الذي أصبح البابا يوحنّا الثالث والعشرين، وشاهدنَ زيّه المدنيّ الهزليّ.

وبالإجمال، كانت تضحية الراهبات بزيّهنّ التقليديّ المحبوب درجةً أُخرى على سلّم التجرّد.

عام ١٩٣٩، انتقلت إلى جوار ربّها رئيسة فرع الجمعيّة في استنبول الأمّ إلڤيرا، وتذوّقت أخواتها الراهبات إلباسها ثيابها الرهبانيّة، واحتفال الكردينال رونكالّي بجنازتها، وتدافع حشود المعزّين التي ضمّت أفواج الأصدقاء، وسفراء الدول، وجماهير البسطاء. وبالإجمال، دلّ ذلك الاحتفال الحاشد على مدى تقديرٍ عامٍّ لمدرسة تثقّف الناشئة على تخطّي حواجز الجنسيّات، والديانات، والطوائف.

واعترفت الأخت إمّانُوِيل أنّ من نِعَم الربّ عليها أنّها حظيت بمواكبة رئيستَيْن استثنائيّتَيْن، الأمّ ماري ألفونس، رئيسة الابتداء، التي قضت حياتها محدّقةً إلى المطلق،

حتّى كان يخيّل لمحدّثها أنّها تهبط مباشرة من سماء الله إليه، وكانت ترى في كلّ إنسانٍ، أيًّا كان، انعكاسًا لجمال الله، فكانت كلّ نفسٍ تجتذب محبّتها جذبًا لا يُقاوَم.

أمّا الأُمّ إلفيرا، فكانت تحدّق إلى الكائن البشريّ، ومنه ترتقي إلى الله، جامعةً محبّتهما، في تناغمٍ رائعٍ.

الأولى دفعتها إلى المطلق الذي كانت متعطّشةً إليه، وبه تخطّت أنانيّتها وشهواتها، فأدركت أنّ بحثنا عن المطلق إن لم يُعبّر عن عطف الله على القريب، فما هو إلّا تناقضٌ مع تعاليم الإنجيل. أمّا الأمّ إلفيرا فقد جعلتها تدرك أنّ خدمة المحتاج هو الطريق المثلى إلى الله. ومن جهةٍ أخرى نصَحَتها بألّا تبشّر أبناء الديانات الأخرى بالمسيح، بل أن تبثّ فيهم حبّ يسوع لجميع البشر من خلال محبّتها وخدمتها لهم، بلا تمييزٍ.

في تلك الفترة مُنِيَت والدة الأخت إمّانُوِيل بعلّةٍ ألزمتها الفراش، وسُمِح للأخت بزيارتها، وحينئذٍ ساورتها شكوكٌ بجواز تركها طريحة الفراش وحيدةً، ولكنّ والدتها المؤمنة بادرت إلى طمأنتها بأنّ شقيقتها وحفيداتها يزرنها باستمرارٍ، وما عليها، هي إمّانُوِيل إلّا العودة إلى حيث يدعوها الربّ.

استنبول ١٩٤٤ - ١٩٤٩

رغبت الرئيسة التي خلفت الأُمّ إلفيرا، أن تتولّى الأخت إمّانُوِيل، تدريس فتياتٍ أنهيْنَ دراستهنّ الثانويّة. وكان لا بدّ لها، في سبيل ذلك، من امتلاك إجازةٍ جامعيّةٍ. وبما أنّ السبُل إلى السوربون كانت، حينذاك، متعذّرةً، بسبب الحرب، فقد انتسبت الأخت إلى كلّيّة الآداب والفلسفة في جامعة استنبول، حيث كان أستاذ الفلسفة يهوديًّا، ومدرّس اللغة التركيّة مسلمًا، وكلٌّ منهما يؤمن أن لا خلاص خارج دينه، وكانت الأخت إمّانُوِيل مقتنعةً أن لا خلاص خارج يسوع. وشرعت تخوض صراعًا إيمانيًّا حافلًا بالريَب والتساؤلات، دام طويلًا.

كانت مشبعةً بالفلسفة الإغريقيّة، ومع ذلك كانت تعلم أنّ فلاسفةً حديثين لا يقلّون عن الإغريقيّين عمقَ فهمٍ، أمثال هنري برغسون، قد شكّكوا بصحّة الفلسفة الإغريقيّة، وتوقّعت أن يشكّك فلاسفةٌ لاحقون بفلسفة برغسون.

وانخرطت في بحثٍ جاهدٍ عن الحقيقة الصرف، وفي مقارنة الأديان. وفي كلّ دينٍ لمحت ومضات نورٍ وبُقَعَ عتمةٍ داكنةً. وقد سحرتها ومضات في تعاليم بوذا وكونفوشيوس، وتعاليم شرقيّةٍ أخرى، ولدى نبيّ الإسلام محمّد، الذي دمّر أصنام الكعبة، وأعلن عبادة الله الواحد. ولكنّها، في الإنجيل لم تعثر على ومضاتٍ، بل على الشمس في سمتها. ولكنّها من جرّاء تأثير ديكارت، حاولت فهم العقيدة المسيحيّة على ضوء تحليلاتٍ عقليّةٍ، وكأنّها عمليّةٌ هندسيّةٌ، محدّدة المعايير. وعبثًا حاولت الاسترشاد بسارتر وكاموس، غير أنّها على غرار "سيزيف" الإغريقيّ كانت تجهد في

رفع صخرةٍ إلى القمّة، لا تلبث أن تهوي إلى الوادي. وأخيرًا، اقتنعت أنّ كلّ "الأطعمة الأرضيّة" عاجزةٌ عن إشباع نفسٍ خلقها الله على صورته، وآثرت السير في ضباب الشكّ، على التلاشي في العدم.

وكانت إعادة تأمّلها في الإنجيل تهدّئ جيشان فكرها، فتهتف مع بطرس: "إلى أين نمضي، يا ربّ، ولديك تعاليم الحياة الأبديّة؟". وآمنت أنّ الحقيقة الصافية هي الكامنة في الإنجيل، ولكنّها لم تجزم بأنّ الديانات الأخرى، خاليةٌ من كلّ حقيقةٍ. وهكذا قادها الشكّ والبحث الدائب إلى الاغتناء الروحيّ، واستطاعت محاورة أناسٍ من جميع الأطياف والمعتقدات باحترامٍ متبادلٍ.

مسعًى مسكونيٌّ

لاحظت الأخت إمّانُوِيل أنّ طالباتها الأورثوذكسيّات شديدات التعصّب. ولم يصعبْ عليها فهم موقفهنّ. فالأرثوذكسيّون لم ينسوا، قطّ، الحملة الصليبيّة الرابعة التي أدّت إلى انهيار القسطنطينيّة، والإمبراطوريّة البيزنطيّة، وسهّلت استيلاء العثمانيّين عليها.

وذات يومٍ اقترحت الأخت أن تنشد مع طالباتها الأورثوذكسيّات ترتيلةً تكريميّةً لوالدة الإله، فأنشدنَ معها نشيدًا رائعًا للعذراء. وحينئذٍ، اقترحت أن تقابل معهنّ، يوم السبت المقبل، البطريرك أثيناغوراس. للوهلة الأولى بدا لهنّ اقتراحها إمعانًا في الجرأة والمخاطرة. فحينذاك، كان مجرّد دخول كاثوليكيٍّ إلى كنيسةٍ أورثوذكسيّةٍ، أو دخول أورثوذكسيٍّ، إلى كنيسةٍ كاثوليكيّةٍ يُعَدُّ تدنيسًا، وحذّرتْها طالباتها من موقف بطريركهنّ الذي قد يرفض استقبالها، ولكنّها أجابتهنّ، بثقةٍ، أنّ البطريرك أثيناغوراس هو أسمى من هذه الترّهات. وتمّت الزيارة.

في مكتب استقبال البطريرك رشق الأختَ كاهنٌ متلفّعٌ بغطاء رأسٍ مهيبٍ بنظرةٍ قاتلةٍ، ولم يُطقْ أن تطلب راهبةٌ كاثوليكيّةٌ مقابلة البطريرك. ومع ذلك، سارع إلى إطلاع صاحب الغبطة على الفضيحة المجلجلة. وما لبثت أن حدثت المعجزة، فقد حضر البطريرك أثيناغوراس، والبسمة تشعّ على كلّ محيّاه، وضمّ الأخت إمّانُوِيل، إلى صدره، قائلًا: "شكرًا لمجيئك"! وخاطب طالباتها: "لا تقلقنّ للأحداث الجارية، فإنّ كلّيّ القدرة "الپانتوكراتور"، هو أقوى من الشرّ". وتبادل البطريرك والأخت، برهةً، حديثًا ودّيًّا، ولكي يبدّد دهشة الفتيات المرافقات للأخت، أخبرهنّ: "لمّا كنت في بوسطن، لطالما أقمنا احتفالاتٍ دينيّةً مشتركةً مع الكاثوليكيّين. والآن، أتطلّع إلى لقاء أخي البابا

بولس السادس، حيث سيلهمنا الروح القدس، بأن نلتقي". وقد ألهمهما الروح القدس للالتقاء في القدس حيث تعانقا.

لقد كان أثيناغوراس رائدًا شجاعًا، ونبيًّا منصتًا إلى إلهامات الروح القدس. ولا ريب أنّ لقاء الأخت إمّانُوِيل بذلك البطريرك الأورثوذكسيّ كان لافتةً مُضيئةً، ومعلمًا حاسمًا في مسيرتها المسكونيّة.

تعاونٌ مع المسلمين

أدركت الأخت، باكرًا، ضرورة إتقان اللغة والثقافة للبلد الذي نصبت فيه خيمتها. وشجّعتها رئيستُها على المضيّ في هذا المضمار، واختارت لها الأستاذ فوزي المتملّك من اللغة التركيّة الحديثة. وبفضله اجتازت خطواتٍ سريعةً في امتلاك اللغة التركيّة.

وتسرّب هذا النبأ إلى الأُسقف الكاثوليكيّ في استنبول، فرغب أن تتعاون الأخت مع الأستاذ فوزي من أجل ترجمة كتاب التعليم المسيحيّ إلى اللغة التركيّة، خدمةً لرعيّته. واندرجت الترجمة في جوّ ودٍّ وتعاونٍ رائعٍ، وفي تبادل حواراتٍ مثمرةٍ بين أستاذٍ مسلمٍ راسخ الإيمان بإسلامه، وراهبةٍ كاثوليكيّةٍ وطيدة الإيمان بيسوع. ولمّا حان موعد ترجمة سرّ التجسّد، روى الأستاذ أنّ والده، كان يُلقّنه القرآن في صغره، وحدّثه، يومًا، عن ولادة العذراء ليسوع، فاعترض الفتى فوزي محتجًّا باستحالة أن تلد عذراء. وما كان من والده إلّا أن أنزل به صفعةً رنّانةً، قائلًا: "ألا تؤمن بقول القرآن إنّ العذراء أنجبت عيسى؟" ومنذئذٍ نبذ الشكّ في هذه العقيدة.

وحان وقت ترجمة موضوع الإفخارستيّا، ووجود يسوع الفعليّ، جسدًا ودمًا، في القربان المقدّس، فسأل الأستاذ الأخت:

– أنتِ امرأةٌ ذكيّةٌ، فكيف تؤمنين بذلك؟". فردّت:

– وأنت رجلٌ ذكيٌّ، فكيف تؤمن بولادة عيسى من عذراء؟

فضحك، وهو يردّد: "إنّها قضيّة إيمانٍ، لا تخضع للنقاش".

واستأنفت الأخت إبداء رأيها في الموضوع، فأقرّت:

– أنا منذ سنّ الثانية عشرة، أتناول، كلّ يومٍ. وقد خَبرتُ القوّة الفائقة التي يؤتِنِيها ذاك الذي أومن بوجوده شخصيًّا في القربان".

– "طبعًا ينبغي عيش السرّ كي نؤمن به".

لقد ارتضى الأستاذ فوزي الشهم أن يقدّم لمواطنيه المسيحيّين تعليم دينهم باللغة التركيّة، رافضًا تقاضي أيّ أجرٍ، مكتفيًا بفرح الخدمة.

ولاحقًا، حرصت مدارس الراهبات في مصر على أن يُلقِّن القرآن معلّمٌ مسلمٌ، استجابةً لطلب الباباوات الذين، منذ القرن السادس عشر، دعوا إلى احترام أتباع الديانات الأخرى، موضحين أنّه إذا كان مسلمون، في دولٍ مستعمرةٍ، قد ارتدّوا إلى المسيحيّة طمعًا بترقٍّ اجتماعيٍّ، أو بمغانم مادّيّةٍ، فلم يكن ذلك بطلبٍ من الكنيسة.

وداعًا يا استنبول

ما توقّعته الأمّ إلفيرا، حدثَ. فعقب رحيل الرئيستَيْن اللَتْين أحسنَتا استيعاب الأخت إمّانُوِيل، وساعدتاها على الازدهار الروحيّ، لم تمتلك رئيساتها اللاحقات حنكة احتمال طبعها المتفجّر، وضبطه في إطارٍ لا يُعرقل زخمها الرسوليّ، وازدهارها الروحيّ، وكان معظمهنّ صارماتٍ في التقيّد بحرفيّة النظام، وغير قادراتٍ على الإغضاء عن انحرافاتٍ ضئيلةٍ تقتضيها المحبّة، أحيانًا. وكان ذلك يفجّر براكين غيظ الأخت وتمرّدها، وتجد مشقّةً في كبح جموحها، ولا تجد لذلك، ملجأً سوى ساكن الكابيلّا الذي كانت تشكو له خيبتها وتستمدّ منه قطرات عزاءٍ وقوّةٍ.

في ذلك الجوّ المتوتّر اشتدّ إلحاحًا عليها نداء المحرومين. فأكثرت من زيارة "مساكن التنك" في استنبول، حيث تتكوّم أُسر المحرومين، في مساكن من صفيحٍ عتيقٍ صدئٍ، محرومةً من أدنى مقوّمات الصحّة، والعيش الكريم.

صحيحٌ أنّ سكنها، هي الأخت، في الدير، لم يكن طافحًا بالرفاه، فغرفتها ضيّقةٌ، وواطئة الباب، فتضطرّ إلى الدخول إليها مطأطئة الرأس، ومع أنّ طعام الدير مغرقٌ، عمومًا، بالشظف، غير أنّه كافٍ، ومُشبعٌ.

ومنذ عام ١٩٤٠، شرعت تراودها فكرة العيش في مساكن التنك مثل المحرومين ومعهم، على أن تعود كلّ صباحٍ إلى ديرها للصلاة والتدريس، فتستطيع أن تبثّ في طالباتها المترفات الشعور بمعاناة سكّان بيوت التنك. وسارعت إلى التماس إذن ممارسة هذه الحياة من إدارة الجمعيّة في باريس، التي رفضت طلبها لأنّ نظام الجمعيّة كان يقضي ألّا تغيب الراهبة عن ديرها، لحظةً واحدةً بعد غياب الشمس. فإذا كان ضميرها يفرض عليها الإقامة وسط الفقراء، فلتقدّم طلبًا بالانسلاخ عن الجمعيّة، كي تحصل

لها إدارتها، من روما، على إعفاءٍ من نذورها. واتّضح لها أن لا خيار لها سوى البقاء في الدير، والالتزام بنظامه، أو مغادرته.

أمعنت، إذن، الأخت إمّانُوِيل، إعمال الفكر مليًّا، ملتمسةً بحرارةٍ أنوار الروح القدس، واستولت عليها خشية مغبّات هشاشتها، وطبعها الجيّاش، في حين أنّ جوّ الدير كان كفيلًا بإخراس "عواء" طبعها، وتسكين العاصفة المتلاطمة في أعماقها، فضلًا عن السند الدائم الذي كان يؤمّن للراهبات العلاقات الأخويّة، والصلوات الجماعيّة المنتظمة، والإرشادات الروحيّة التي كان يغدقها مرشدٌ روحيٌّ مستنيرٌ، وما كان يُمِدّها كلّ ذلك من استقرارٍ نفسيٍّ يبدّد الصدمات الطارئة، أحيانًا، بين أفراد الجماعة، في حين أنّ فقدانها كلّ عوامل الاستقرار هذه، كان كفيلًا بالقضاء على تحقيق المُثُل التي كرّست لها حياتها.

هذه الخواطر كادت تعيد إلى نفس الأخت إمّانُوِيل هدوءًا هزّته زيارةٌ قامت بها إلى ديرهنّ الأمّ ماغدولين يسوع رئيسة جمعيّة الأخوات الصغيرات، المستلهمات مثال القدّيس شارل دي فوكو، وروحانيّته. فأسّسنَ جمعيّةً غايتها مقاسمة حياة الأشدّ فقرًا، في مسكنهم، وطعامهم، ولا سيّما في بلدان العالم الثالث.

وخُيِّل إلى الأخت إمّانُوِيل أنّها عثرت على ضالّتها، في تلك الجمعيّة، فباحت للأمّ ماغدولين: "الآن تحقّق حلمي، فسأبقى راهبةً، وأحيا فقيرةً مع الفقراء. فأرجوك أن تستقبليني في جمعيّتك".

– هذا مستحيلٌ.

– لمَ؟ فأنا مستعدّةٌ للحياة والموت، مثل الفقراء، ووسطهم.

– ولكنّي لا أستطيع أن أنتزع راهبةً من جمعيّة سيّدة "سيون".

– بل أنا أقدّم ذاتي لَكُنَّ، طوعًا.

حينئذٍ، أوضحت لها الأمّ ماغدولين، أنّ جمعيّتها، بدأت نشاطها في تونس، حيث لم تكن تملك شيئًا على الإطلاق، ولكنّ رئيسة دير راهبات "سيون" هناك، رحّبت بهنّ ترحيبًا سخيًّا. وعندما اجتاح الدير داء التيفوئيد، وكاد يقضي على جميع الراهبات، بذلت الرئيسة ذاتها ليلًا ونهارًا، ولم تضنّ لا بمالٍ ولا بوقتٍ، ولا بجهدٍ، حتّى أنقذتهنّ جميعهنّ. ولذلك، لا تستطيع الأمّ ماغدولين أن تسلب "جمعيّة سيون" أيّةً من راهباتها.

في تلك اللحظة انهار صرح أحلام الأخت إمّانُوِيل. ولكنّها، أمام الهيكل ومقرّ القربان المقدّس استعادت سكينة نفسها وصبرها. غير أنّها لم تتحرّر من مقتها إيثار حرفيّة النظام على مبادرات المحبّة. وقد سعّر مقتها هذا تعيين رئيسةٍ شابّةٍ، في استنبول، تصغر الأخت إمّانُوِيل سنًّا، ولم تقوَ على احتمال طبعها المتمرّد. وفي حزيران ١٩٥٤، تلقّت الأخت أمرًا بالانتقال إلى تونس.

شقّ عليها الانسلاخ عن أغلى ذكرياتها، وأعزّ أصدقائها، وتلميذاتها، والبلد الذي عملت من أجله، وأحبّته، ومع ذلك كان عليها أن تتمثّل بإبراهيم، يوم أمره الله: "انطلق من أرض عشيرتك... إلى الأرض التي أُريك" (تكوين ١٢: ١ و٢).

المحنة التونسيّة ١٩٥٥ - ١٩٥٩

كانت قد سبقت الأختَ، إلى تونس، سمعةُ معلّمةٍ حازمةٍ تفرض النظام، تحبّها طالباتها ويحترمنَها، ويقدّرها ذووهنّ. ولكنّها، عوضًا من صبايا تركيّاتٍ تتراوح أعمارهنّ بين ١٦ و٢٠ سنةً، راغباتٍ في التعلُّم، كُلِّفت، في تونس، بتعليم صفَّيْن، يتألّف كلٌّ منهما من أربعين مراهقةً تتراوح أعمارهنّ بين الثانية عشرة والثالثة عشرة، ومعظمهنّ بناتُ مستعمِرين فرنسيّين، جيّاشاتٌ، متمرّداتٌ، عابثاتٌ، مشاغباتٌ.

في يوم تعليمها الأوّل أنقذها حضور معلّمتَيْن قديمتَيْن فرضتا الهدوء. ولكن في الأيّام اللاحقة، كان على الأُخت ضبط ثمانين مراهقةً. وكانت قاعة دروسهنّ في الطبقة الثانية من البناء، وكان عليهنّ الصعود والهبوط، في انتظامٍ وصمتٍ، ولكنّهنّ حوّلنَ الصعود والهبوط، وحتّى أوقات الدرس إلى ثرثراتٍ، وصراعاتٍ، ومشاغباتٍ، أساءت إلى سلامة التعليم، وأفقدت الأُخت السيطرة، ما أثار خيبة أولياء الأمور، وخيَّب رجاء رئيسة المدرسة، التي كانت قد بنت على سمعة الأخت إمّانُوِيل، وكفاءاتها، آمالًا زاهياتٍ.

وقد ضاعف خيبة الأخت أنّ تلك الفتيات كنّ ينظرنَ إلى أترابهنّ التونسيّات نظرة ازدراءٍ واستكبارٍ، وفشلت جميع محاولاتها أن تفتح، في قلوبهنَّ، كوّةَ تعاطفٍ مع محيطهنَّ.

وفي الآن عينه، أرهقها بعنفٍ بؤس أهل البلاد التونسيّين. فاعتادت تكليف أختٍ لها بالحلول محلّها، فترةً، ريثما تنهمك في تلبية احتياجات الفقراء الحارقة.

على هذا النحو انصرمت ثلاث سنواتٍ في تونس أسفرت عن فشلٍ وخيبةٍ أرهقاها. وضاعف إرهاقَها قيظٌ خانقٌ لم تعتدْه من قبلُ، وقسوة ظروف عيشها. فقد كانت تنام

على سريرٍ عسكريٍّ، محشورٍ في خزانة قاعة التدريس. هذه المجموعة من المنغّصات، أتلفت أعصابها، وأفقدتها السيطرة على ردود فعلها. فأنّبت، ذات يومٍ، طالبةً تأنيبًا قاسيًا، غير مبرَّرٍ، وسرعان ما شعرت بذنبها، وقصدت رئيستها معتذرةً، وملتمسةً العقاب، وفق نظام الجمعيّة. وتبيّنت الرئيسة أنّ إرهاقها هو الذي أودى بها إلى ما فعلته، فسمحت لها بالاستراحة في المكتبة، كلّما رانَ عليها التعب. ولكن لم تُجْدِ أيّةُ محاولةٍ في إنجاح مهمّتها التدريسيّة في تونس، وفي إنقاذها من محنتها.

لا ريب أنّ بعض مبادراتها الجريئة، في استنبول، كانت تصدم، أحيانًا رئيساتها، غير أنّ نجاحاتها الباهرة والمتألّقة كانت تُغطّي على كلّ أسباب الخلاف معها. أمّا في تونس فقد تكاتفت على إفشالها وإرهاقها مجموعةُ أسبابٍ خارجةٍ عن طاقتها وإرادتها، بحيث أمست، في نظر طالباتها موضع سخريّةٍ، وفي نظر رئيستها معلّمةً فاشلةً، وفي نظر جمعيّتها أختًا جديرةً بالرثاء والشفقة. وحينئذٍ تذكّرت نصيحة رئيستها إلفيرا، التي دعتها، قبل ارتباطها بنذورٍ، إلى رَوْز قدرتها على الصمود وحيدةً، محرومةً من سندٍ رئيسةٍ منفتحة الذهن والقلب. وها هي قد أضحت وحيدةً، عاجزةً، منهَكة الجسد، عليلة القلب الذي تحوّل إلى جلمود صقيعٍ، مُترعةَ النفس سأمًا، معزولةً في صحراءَ قاحلةٍ.

لم يبقَ لها من خيارٍ سوى العودة إلى أمّها في بلجيكا، أو الصمود، متشبّثةً بيسوع، ولم يكن التماسها عون الربّ، يومًا، أشدّ حرارةً ممّا كان في تلك الفترة العصيبة. فكانت منذ استيقاظها تلتمس منه مساعدتها على النهوض. وكلّما كان يومها شاقًّا، كانت توسّلاتها تزداد استعارًا، وشكرًا للأمّ السماويّة لتمكينها من الصمود.

في المساء كانت تراودها تجربة التخلّي عن كلّ شيءٍ، ولكنّ الصباح كان يجدها أشدّ تشبّثًا بالربّ.

في هوّة هشاشتها ووهنها خَبَرت الأخت إمّانُوِيل الجمع بين التلاشي والاندفاع، بين الموت، وقدرات الحياة، وإرواء عطش النفس بماء الله المنعش.

عزاؤها الوحيد، في تلك المحنة، تبيُّنُها أنّ نساءً تونسيّاتٍ مسيحيّاتٍ، ميسوراتٍ، كنّ يسهرنَ على عمّالهنّ، وعلى صحّتهم وتعليمهم.

ولكم أسعدها سماع تونسيٍّ مسيحيٍّ سُجِن ظلمًا، وسعت رئيسة الدير إلى إخلاء سبيله، فاعترف أمام الراهبات: "أيّام السجن كانت إقامتي المريعة جنبًا إلى جنبٍ مع مجرمين عتاةٍ، بعيدًا عن ذويّ الذين كان يقلقني مصيرهم. ولكنّي لستُ نادمًا على شيءٍ، فقد أدركتُ حقيقة البؤس البشريّ، التي حالت حياة الرفاه التي كنتُ أنعم بها عن معرفتها. وكم كنت بعيدًا عن مصائب الآخرين!... وها إنّي، بعد عيشي الإخاء الحقّ، أصبحت للبائسين أخًا، وفهمت كيف يهوي الإنسان... أشكر الله الذي كان رفيق سجني"!

كم خفّف هذا الاعتراف محنة الأخت إمّانُوِيل، وكم ألهبت في نفسها التوق إلى العيش مع الفقراء. ولكن لم يُسمَح لها بزيارة مساكن البؤس، ولا باستصحاب تلميذاتها إليها، كما كانت تفعل في استنبول. واستيقظت في ذهنها ذكرى أخوات يسوع الصغيرات، ووعدُ الأُمّ مَجدولين ببحث ضمّها إلى جمعيّتها بعد لقائهما الأوّل. فكتبت إلى رئيسة جمعيّتها: "تعرفين أمنيّتي في العيش فقيرةً وسط فقراء. وبما أنّ هذا متعذّرٌ في إطار جمعيّة "سيون" اسمحي لي بالانضمام إلى الأمّ مَجدولين يسوع". فاستدعتها رئيستها إلى باريس، وأصغت إليها بعنايةٍ وانفتاحٍ، ولا سيّما أنّها كانت مطّلعةً على محنتها في تونس، وكانت، في سبيل إراحتها، قد أعدّت خطّة نقلها من تونس العاصمة، إلى منطقة خزندار، في رحاب البرّيّة، حيث ستنعم بشيءٍ من النقاهة. ولكنّها تقديرًا لرغبتها في العيش وسط الفقراء، وبما أنّ جمعيّة أخوات شارل دي فوكو تتيح لها تلك الحياة،

نصحتها بمراسلة الأمّ مَجدولين بهذا الشأن، وأرفقت الرئيسة برسالة الأخت إمّانُوِيل توصيةً منها. وخفق قلب الأخت بهجةً باقتراب تحقيق رغبتها في مشاركة المحرومين حرمانهم.

حدث ذلك في شهر أيلول ١٩٥٧. ومرّ شهرا تشرين الأوّل والثاني، ولم يرد أيّ جوابٍ. فاتّصلت الأخت بجميع فروع أخوات يسوع الصغيرات، عبثًا، حتّى ضاقت ذرعًا بالانتظار في باريس، عاطلةً عن كلّ نشاطٍ.

في هذه الأثناء، كانت أخواتها ينتظرنَها في خزندار، ولكن كانت تُمسكُها عن الانضمام إليهنّ خشيتها من اضطرارها إلى البقاء في خزندار حتّى نهاية السنة المدرسيّة، وأن تفقد، بالتالي، فرصة الانضمام إلى أخوات يسوع الصغيرات، في حال ورود قبول الأمّ مَجدولين.

وأخيرًا، في شهر كانون الأوّل، ورد جواب الأُمّ مَجدولين، ووضع حدًّا لانتظارها وحيرتها، ولأحلامها الزاهيات. فقد أوضحت رئيسة أخوات يسوع الصغيرات أنّ كثرة طلبات راهبات جمعيّاتٍ أخرى الانضمام إلى جمعيّتها قد دفعها إلى رفض طلب قبول أيّة راهبةٍ قادمةٍ من جمعيّةٍ أخرى.

واستيقظت في نفس الأخت إمّانُوِيل رغبة تعويض فشلها في تونس بتعليم فتياتٍ جامعيّاتٍ في استنبول، وكان ذلك يقتضي منها الحصول على إجازةٍ من جامعةٍ تؤهّلها للتدريس في جامعاتٍ، فتسجّلت في دورة دراسة اللاتينيّة بالمراسلة في جامعة السوربون في باريس، وهرعت إلى خزندار، حيث رُحِّب بها ترحيبًا حارًّا. وكانت رئيسة ذلك الفرع تشيع جوًّا من التناغم والفرح في الجماعة. وفضلًا عن ذلك، كانت فسحة قاعات الدروس، وسعة الباحات، والجوّ الرائع في أحضان طبيعةٍ غنّاء، وسط بساتين البرتقال والمانغا، وحيث كان مسبحٌ ينعش من وطأة القيظ، صيفًا، على تناقضٍ كلّيٍّ مع قاعات مدينة تونس العاصمة، الخانقة.

علاقاتها بطالباتها البالغات في خزندار كانت مرنةً، عذبةً، وتتيح لها وقتًا كافيًا، ليلًا، للإكباب على متابعة دروس اللاتينيّة التي نجحت في امتحانها. وتعيّن عليها أداء امتحانٍ شفهيٍّ في السوربون، فأنفقت بعض ليالٍ تأهّبًا له، وأكملت استعدادها، أثناء رحلتها بالباخرة إلى باريس. ولكنّ تلك الرحلة أصابتها بالغثيان والتقيّؤ، ولدى وصولها إلى المرفأ، نُقلت إسعافيًّا إلى مركز الجمعيّة الرئيس، حيث تفاقمت حالتها سوءًا، واضطرّ طبيبٌ إلى حقنها بمنشّطٍ لقلبها، بعد أن كاد نبضها يتوقّف.

وبفضل عنايةٍ رقيقةٍ، استعادت، خلال أيّامٍ معدوداتٍ قوّتها. وبعدما تزوّدت بشهادةٍ طبّيّةٍ تبرّر تأخّرها عن المثول إلى الامتحان في الموعد المحدّد، قصدت السوربون، حيث طرح عليها الأستاذ سؤالًا وأمهلها ربع ساعة كي تستعدّ للإجابة عليه.

في الواقع لم تكن الأخت قد أوسعت الموضوع درسًا، ومع ذلك، قاومت، بصعوبةٍ، تجربة الاستعانة بموجزٍ يذكّرها به، حرصًا منها على الاستقامة والعزوف عن الغشّ واكتفت بأنْ سرَدَت، أمام الأستاذ، كلّ ما كان عالقًا في ذهنها. ومع أنّها لم تُجِب على صلب الموضوع، أُعجب الأستاذ بسعة ثقافتها العامّة، وبكَلَفها بالموسيقى التي كانت هوايته، فمنحها علامة النجاح.

وفي غمرةٍ من الحماس أكبّت على الاستعداد لامتحان الأدب اليونانيّ، والتوغّل في الأدب الفرنسيّ. وبغتةً بلّغتها الرئيسة العامّة أنّ رئيستها المحلّيّة طلبت منعها من متابعة دراساتها العليا بحجّة أنّها تعيق جودة تدريسها، مع أنّها أثبتت، دائمًا، أنّ دراساتها لم تُنقِص شيئًا من نجاعة تدريسها. غير أنّ الرئيسة العامّة ظلّت حريصةً على عدم التدخّل في قرارات الرئيسات المحلّيّات. وأحسّت الأخت إمّانُوِيل بلطمةٍ موجعةٍ، لأنّها لم تفهم مبرّر هذا القرار الأحمق، بمعزلٍ عن استطلاع رأيها فيه. ولم تجد من تشكو له أمرها وخيبتها سوى حبيس مقرّ القربان. وهمس صوتٌ رقيقٌ في أعماقها مذكّرًا إيّاها

بنذر الطاعة، ودعاها إلى التحديق في الصليب، ورَوْز طاقاتها الشخصيّة الواهية، فهتفت: "هذه هي ساعة الحبّ الأكبر".

كان قد سبق لها أن تغلّبت على نزوات الجسد، وحان لها التغلّب على ثورات الفكر، ورواسب الكبرياء، والزهو بالنجاح. وخاضت صراعًا ضاريًا بين نزعتها الفطريّة إلى قول "لا"، والتضحية بقول "نعَم"، طوعًا. وشيئًا فشيئًا، سادت نفسَها السكينةُ، وهدأ اصطخاب أمواج نفسها، وبعون الله نعمت بشعور التسليم التامّ وبعذوبته.

ومع ذلك ظلّ يوجعها بؤس فقراء القرية الساكنين قرب الدير، الذين كانت الراهبات يزوّدنَهم بالضئيل من مقوّمات العيش الأساسيّة. وآلمها حرص المستعمرين الفرنسيّين على إدامة التفرقة بين الموظّف الفرنسيّ الناعم بحدٍّ كافٍ من الرفاه، والمواطن التونسيّ المحكوم عليه بالحرمان الدائم.

وبالإجمال كانت سنوات الصحراء النفسيّة التي عاشتها في تونس، قد قضت على أحلامها بنقل الفقراء إلى الكرامة التي يستحقّونها. ومع ذلك، ظلّت صامدةً، عصيّةً على اليأس.

وكانت بوتقة المحنة قد نزّهت نفسها من كلّ عَكَرٍ، وطهّرتها، وزوّدتها بمنعة مواجهة أعتى العواصف، وأصعب المواقف.

عودةٌ إلى استنبول، واستعدادٌ للتعليم العالي

عادت الأخت إمّانُوِيل إلى استنبول، وتابعت دراستها للحصول على إجازةٍ جامعيّةٍ في الآداب، بتشجيعٍ من الرئيستَيْن اللتَيْن تعاقبتا على الرئاسة في استنبول، إحداهما الأمّ "غيسلين" (Guisleine)، الحاصلة على إجازةٍ في الآداب، والثانية الأمّ "ألين" الحاصلة على أُستاذيّةٍ في الهندسة. وكانت الأخت، قد بلغت الخمسين من سنيها، تتغذّى بأفكار أقطاب المفكّرين الفرنسيّين: "مونتينيي" (Montaigne) و"لاكلو" (Laclos) وپاسكال الذي أمسى ملهم تفكيرها، وهنري برغسون الذي فتح فكرها وقلبها على "الإخاء الإنسانيّ".

هذه الدراسات الفلسفيّة كانت تفتِنُها، أحيانًا، وترميها، أحيانًا أخرى، في هوّة الشكّ. ولكنّ پاسكال ساعدها على التقاء "الله الخفيّ"، وحداها إلى المراهنة على وجود الله الذي وفّر لها الاستقرار النفسيّ.

أكبّت بنَهمٍ على تحصيل إجازاتٍ في الأدب الفرنسيّ، وفي اللغة اليونانيّة، من جامعة السوربون، بالمراسلة، وكانت قد بلغت الرابعة والخمسين. ولكن قبل شروعها بالتدريس في استنبول استدعتها برقيّةٌ إلى الإسكندريّة، وهناك شجّعتها رئيستها على نيل إجازةٍ في فقه اللغة، وهي المادّة الوحيدة المتبقّية لكي تحصل على الإجازة في الآداب، ونالتها في شهر أكتوبر ١٩٦٣، وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين.

كُلِّفت، إذن، بتدريس الفلسفة في الإسكندريّة، وتبيّنت بفرحٍ أنّ الطالبات المصريّات كنّ أكثر فهمًا لهذه المادّة من فرنسيّاتٍ كثيراتٍ. ولكنّهنّ لم يكنَّ يولين اهتمامًا بفقراء بلادهنّ، فقد كان جرح التأميم الذي جرّد ذويهنّ من ثرواتهم ومعاملهم، وموارد رفاههم، ما زال نازفًا في نفوسهنّ.

أمّا هي، فكان صراخ الفقراء لا يني يهزّ أوتار نفسها، وهو الذي كرّست حياتها لتلبية مطالبه، والسعي إلى القضاء على أسبابه. ومن ثمّ، لم تُطِقْ إغفال طالباتها لهذا النداء، وتساءلت ما نفع تعليم الطالبات الآداب والفلسفة، إن لم تستطع فتح قلوبهنّ على بؤس إخوانهم المحرومين. وربّما ندمت على الوقت الذي أنفقته من أجل الحصول على إجازة تعليمٍ جامعيٍّ.

وتاقت للعودة إلى تعليم الصفوف الابتدائيّة، وعجن النفوس الطريّة على محبّة الفقراء وغوثهم واقتسام بؤسهم.

ولكن، في هذه الأثناء، كان مركز الجمعيّة الرئيس قد انتقل من باريس إلى روما، وتولّت الرئاسة راهبةٌ بريطانيّةٌ لم يكن لديها أدنى معرفةٍ بالأخت إيمانويل. ولم تفهم كيف يخطر ببال راهبةٍ حاصلةٍ على إجازاتٍ من أرقى الجامعات أن تؤثر تعليم الصفوف الابتدائيّة، فيما هي مؤهّلةٌ لتعليم الصفوف الثانويّة النهائيّة. ولا ريب أنّ رأي الرئيسة كان منطقيًّا، وأنّ طلب الأخت إمّانُوِيل كان مخالفًا لكلّ تفكيرٍ سليمٍ. فقد جدّت، وتعبت، وناضلت كي تحصل على إجازاتٍ جامعيّةٍ، وها هي تضحّي بها، وبكلّ ما بذلته في سبيل الحصول عليها، لأنّها لم تجد في طالبات الإسكندريّة، ما كانت قد وجدته لدى الطالبات التركيّات، من الاندفاع إلى مشاركتها بؤس البائسين، الذي بثّته في نفوسهنّ.

في الواقع كانت تواجه أزمةً وجدانيّةً خطيرةً. فهي كانت ارتبطت بنذورٍ بُغية خدمة الإنسان بصفته "مجد الله"، حسب قول القدّيس إيريناوس، وإذ بها تُكلَّف بمساعدة فتياتٍ بَطِراتٍ من أجل الحصول على شهاداتٍ علميّةٍ، لا تغيّر ممّا في نفوسهنّ شيئًا. فأين هذه الغاية ممّا استهدفته لمّا كرست ذاتها لخدمة الربّ، من خلال أبنائه؟!

تنازعُها النفسيّ ذاك، كان ضاريًا، فمن جهةٍ تأخذ على ذاتها كبرياءها التي توهمها، غالبًا، بأنّ رأيها هو المحقّ، وأنّ رأي الآخرين، حتّى رئيساتِها، على خطأٍ، ومن جهة أخرى تلتزم السّعي إلى تحقيق مشيئة الله.

واتّفق أن أُسقفًا كنديًّا عرض عليها عملًا في إغاثة المحرومين، غير أنّه كان يشقّ عليها، بل يتعذّر، هجرُ جمعيّتها التي ارتبطت بها للحياة والموت.

وفي نهاية العطلة الصيفيّة أطلّ عليها الفرج، من خلال قرارٍ جمع بين رغبتها الرسوليّة، ورغبة جمعيّتها الإفادة من إجازاتها الجامعيّة، وكان القرار يقضي بأن تدرّس الصفوف البدائيّة المجّانيّة، وتخصّص وقتًا لتدريس الفلسفة للصفوف الثانويّة النهائيّة.

وإذ بها، مجدّدًا، وسط فتياتٍ لا تملك أسرهنّ ما تقدّمه لهنّ عشاءً، ويتكدّس كلّ ثمانية أفرادٍ في غرفة وحيدةٍ ضنكةٍ، على هوامش مدنٍ ينخرها البَطَر.

وظلّ يؤرّقها، بلا هوادةٍ، بعدُها عن تحقيق حلم العيش، فقيرةً وسط فقراء. فهي تعود، كلّ مساءٍ، إلى ديرها، حيث تجد الغذاء الكافي والسكن اللائق، والدفء. ولكنّ معدتها كانت تنقبض، كلّما قُدِّم لها طعامٌ يحتوي لحمًا، ومكوّناتٍ فاخرةً، فتتساءل هل يحقّ لها أن تتناول منه، في حين أنّ طالباتها شادية، وماجدة، وصافيناز قد ينمنَ على الطوى. فكانت تأبى الطعام، وتكاد تتقيّأ.

ودأبت الأخت إمّانُوِيل على زيارة بيوت المصريّين الفقراء. ومنها بيت صديقتها جوزيفين المؤلّف من مدخلٍ ضيّقٍ، ومطبخٍ صغيرٍ، وغرفتَيْن ضيّقتَيْن يسكنهما عشرة أشخاصٍ.

ولمحت الأخت في زاوية الدّار، فسحةً نسمّيها نحن القرويّين "حوشًا"، فيه حجرةٌ مهجورةٌ، لا يرضى أحدٌ السكن فيها لأنّها تنزّ رطوبةً. فأعلنت الأخت: "أنا لا أخشى الرطوبة، وسأقيم فيها بطيبة خاطرٍ". ولكن، كان عليها الحصول على موافقة السلطات

الكنسيّة، فتسلّحت بقرارات المجمع المسكونيّ الثّاني الذي حرّض المكرَّسين على المبادرة بالذهاب إلى الفقراء قبل ان يأتي الفقراء إليهم. فطلبت إذنًا من روما، وحصلت عليه، ثمّ أقنعت رئيستها بأن تعطيها كلفة راهبةٍ واحدةٍ في الدير من أجل إقامتها وطعامها، في الشهر الواحد، على أن تتدبّر أمرها بنفسها. ولحسن طالعها، كانت رئيستها منفتحة الذهن والقلب، فأجزلت لها حصّتها متخطّيةً قليلًا المبلغ المستحقّ. وسارعت الأخت إلى تجهيز الغرفة المهجورة، في "الحوش"، بسريرٍ ومنضدةٍ، وكرسيٍّ، وجعلت من تلك الغرفة الزريّة مسكنها مع الفقراء. وكانت، كلّ صباحٍ، قبل الساعة السادسة تعدو إلى الدير فتحضر القدّاس، وتتزوّد بغذاء الإفخارستيّا، وتشارك الأخوات في كلّ الصلوات الجماعيّة وتدرّس، حتّى السادسة مساءً، فتيات الصفوف المجّانيّة، حيث تشيع جوًّا من الرغبة في التعلّم، ومن الفرح. وعند الظهر كانت تبتاع، من الشارع، طبق فولٍ، غداء الفقراء، وتضيف إليه، أحيانًا، قطعة بندورةٍ، أو برتقالةً، إذا كان سعرها زهيدًا. وكانت دائمة الحرص على ألّا يكلّفها غداؤها أكثر من عُشر ميزانيّتها اليوميّة، كي تستطيع توفير عشاءٍ لأعضاء الأسرة التي استضافتها، ساعيةً إلى مساعدتهم على تذوّق ما لم يكونوا يستطيعون تذوّقه، من أطعمةٍ.

وهكذا سعدت بولوج مدرسة الفقر الحقّ، متجرّدةً من الأنانيّة، وتدليل الذات، ومنغمسةً في ميدان التضامن والمشاركة. وقد صرّحت، في هذا السياق، أنّها كانت قد ارتبطت بنذر الفقر، ولكنّها لم تمارسه، حقًّا، ممارسةً وجوديّةً واقعيّةً، إلّا عندما أقامت مع فقراء حقيقيّين، وخبرت انقطاع الماء والكهرباء، وافتقار الموقد إلى حطبٍ، والسراج إلى كبريتٍ، والشاي إلى سكّرٍ، والأولاد إلى جوارب، والطلّاب إلى كتبٍ ودفاتر. ومع ذلك، لم يخلُ، قطّ، ذلك البيت الفقير من الحبّ.

وقد رغبت ثلّةٌ من أخواتها مشاركتها غداءها الزريّ المقتصر على الفول، ولكنّهنّ لم يصمدنَ طويلًا. وخاطرت إحداهنّ بقضاء ليلةٍ في مسكن الأخت إمّانُوِيل، حيث

رقدت على فراشٍ مبسوطٍ على الحضيض، ولكنّها لم تستطع إغماض جفنيها إذ ما انفكّت تزورها الجرذان والفئران. ومع أنّ الأخت إمّانُوِيل طمأنتها بأنّها مخلوقاتٌ بريئةٌ، لم تستطع النوم لحظةً واحدةً، ومع أوّل ومضة نور الصباح، جمعت أمتعتها، ولاذت بالفرار، عائدةً إلى ديرها.

واتّفقت معظم الراهبات على استنكار مغادرة الأخت إمّانُوِيل ديرها، كلّ مساءٍ، وقضاء الليل في مسكن فقراء، وتكاثرت الاحتجاجات المندّدة بهذه "الفضيحة"، وتكدّست رسائل الاستنكار على منضدة رئيسةٍ إقليميّةٍ جديدةٍ.

وذات مساءٍ، إذ كانت الأخت تهمّ بالخروج والمضيّ إلى مسكنها بين الفقراء، استوقفتها الرئيسة، وبلّغتها عدم رضاها عن قضاء ليلتها خارج الدير، واستنكار الأخوات، والعديد من الأهالي لهذا التصرّف. وخيّرتها بين الإقامة مع الفقراء ليلًا، أو مغادرة الدير، فأجابتها الأخت، برباطة جأشٍ:

– لن أفعل ما تطلبين، يا أُمّاه، فلديّ موافقة الرئيسة العامّة، ودعم الأسقف.

– ومع ذلك، موقفك فضيحةٌ للأهالي، وعثرةٌ لأخواتك، ولذلك، فالأفضل أن تضعي حدًّا للفضيحة والتعثير، وأن تطلبي من الڤاتيكان تحريرك من نذورك.

– لن أطلب ذلك. وإذا كنتِ، أنتِ، حريصةً على إقصائي، فاكتبي، أنتِ، إلى الڤاتيكان. أمّا أنا فعازمةٌ على البقاء في جمعيّتي.

وسارعت الأخت إلى إطلاع الأسقف. فشجّعها على الصمود، مؤكّدًا أنّ إجبارها على هجر الجمعيّة يقتضي إجراءاتٍ طويلةً، ودلائل مشينةً، لا وجود لها، كما أكّد وقوفه إلى جانبها، وحرصه على دعمها والدفاع عنها.

وفي غمرة هذه المعركة، حدث ما قلب الوضع رأسًا على عقبٍ. فقد رغبت رئيسةٌ عامّةٌ سابقةٌ، كلّفتها السلطات الكنسيّة بالتحقيق في شأن الأخت إمّانُوِيل.

فاستدعتها، وسألتها هل يمكنها قضاء ليلةٍ، في مسكنها لدى أسرةٍ فقيرةٍ، فتتبيّن حقيقة ما تحيا. فرحّبت بطلبها، ولكنّها سألتها: "ألا تنفرين من الجرذان؟"

– قليلًا، وعلى كلّ حالٍ، هي ليلةٌ واحدةٌ.

وانطلقتا معًا في دروب القرية المزدحمة بنساءٍ وأولادٍ، حتّى انتهيتا إلى مكان سكن الأخت. وكانت الرئيسة منشرحة النفس، تستفسر عن كلّ شيءٍ في الحيّ، وعن جميع سكّانه، وكان الفرح يغمر نفسها، ويتجلّى على محيّاها. وعند منتصف الليل، قبل إخلادهما إلى النوم، أسرّت الرئيسة للأخت: "شكرًا لسماحك بمشاركتي ليلةً من حياتك. تابعي عملك، وأنا معك". وترسّخ في يقين الأخت إمّانُويل أنّها باقيةٌ في جمعيّتها للحياة والموت.

واستمرّت في زيارة بيوت القرية، برفقة صديقتها جوزيفين، حيث كان المسلمون والمسيحيّون يسعدون باستقبالها. ومن أبرز ما لحظته في هذه الأُسر قلق الأهالي على تعليم أبنائهم، من جرّاء افتقارهم إلى المال اللازم. وريثما وجدت لهم معلّمًا متطوّعًا، حوّلت حجرتها البائسة إلى مدرسةٍ مجّانيّةٍ، حيث تكدّس أولادٌ فقراء راغبون في اجتياز الخطوة الأساسيّة نحو التعليم، الذي لم يكونوا قادرين على ولوج جنّته، من جرّاء افتقار ذويهم إلى مالٍ يدفعونه للمدارس والمدرّسين. وقامت هي بهذه المهمّة، فأثلجت صدور الأهالي، وفتحت أبواب التعليم للأولاد، لقاء بسمةٍ، وكلمة شكرٍ.

وفضلًا عن ذلك، دأبت على عيادة المرضى المقعدين، وكان دخولها لبيوتهم الزريّة، بمثابة دخول مَلَكٍ من السماء، وحلول البركة على البيت، والعافية على المرضى، وكانت مشاركتها إيّاهم كأس شايٍ، يغمر تلك البيوت بهجةً لا تمحى ذكراها.

وجعلت همّها وديدنها الطاغي ترقية مستوى المدرسة المجّانيّة، فاعتمدت سياسةً شديدة الاقتضاء والدقّة في التزام المواعيد، ومكافأة الاجتهاد، ومعاقبة الكسل

والإهمال. وسرعان ما أفضى بها هذا الهوس في إنجاح المدرسة المجّانيّة إلى التوتّر، فاعتادت إنفاق ربع ساعةٍ كلّ صباحٍ في ممارسة تمارين يوغا، وبذلك استطاعت تحويل شياطين المدرسة الصغار إلى ملائكةٍ بفضل كلامٍ رقيقٍ، ومكافآتٍ مادّيّةٍ ضئيلةٍ، وهدايا متواضعةٍ. وسرعان ما غزا الفرح الطلّاب والمعلّمات والأهالي، وغدت مدرستها مدرسة فرحٍ، وفاقت نتائج امتحاناتها الرسميّة نتائج المدارس الأخرى.

ومثل حرصها على سلامة نفوس التّلاميذ، حرصت على صحّتهم البدنيّة، وأولت عنايةً ساهرةً بصحّة أسنانهم وحناجرهم، ومِعَدهم، وأمعائهم، حيث تسرح، عمومًا الديدان الفتّاكة. ولكم من متاعبَ وهمومٍ، وصراعاتٍ، خاضت في هذا المضمار. ولكنّ ذلك زوّدها بخبرةٍ ثمينةٍ في التعامل، لاحقًا، مع أبناء الزبّالين الذين ستشاركهم بؤسَهم وقضاياهم وهمومهم.

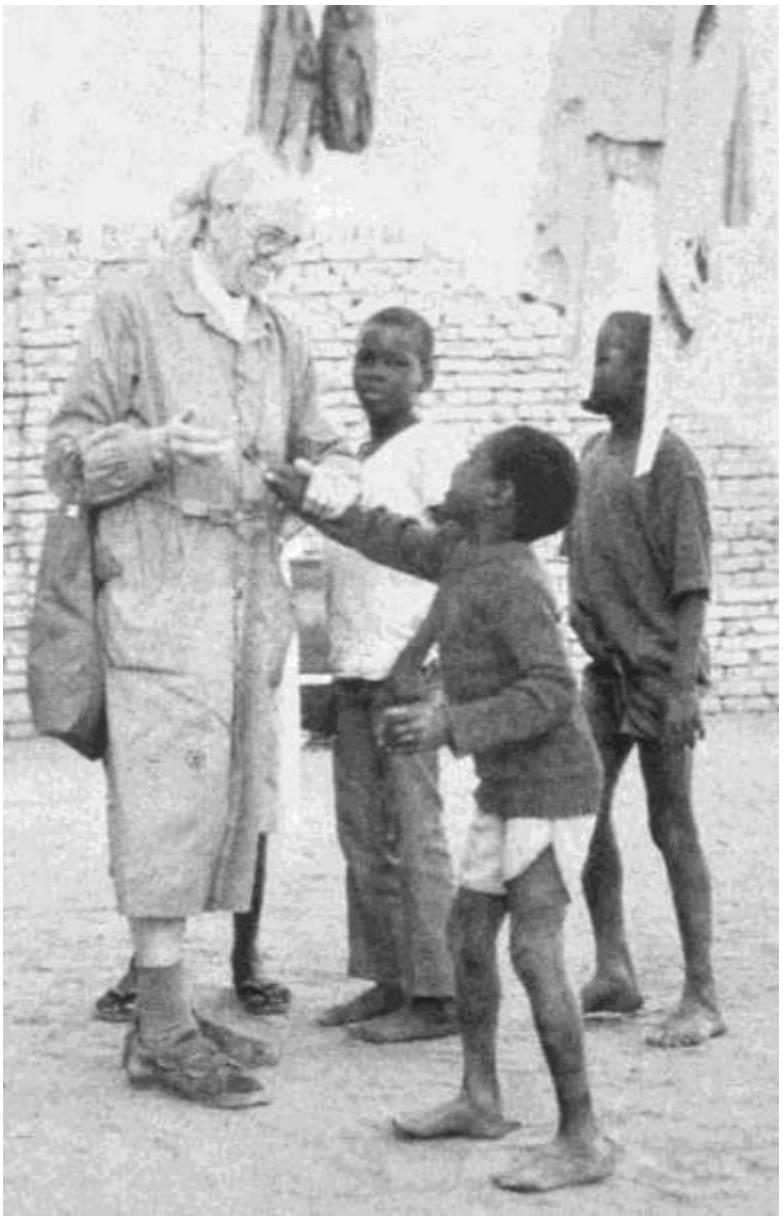

إنّ عيشي مع هؤلاء القوم، وعلى غرارهم، ليلَ نهار، في مشاركةٍ مع الأكثر حرمانًا، يُؤتي شعاعًا من الفرح الكامل

مع زبّالي القاهرة

مع زبّالي القاهرة

عام ١٩٧١ واجه فرع جمعيّة "سيون" في مصر أزمةً، إذ فتر انتساب فتياتٍ جديداتٍ إليها، فقرّرت إيكال متابعة مهامّها التعليميّة إلى جمعيّةٍ مصريّةٍ، وخيّرت كلّ راهبةٍ باختيار الرسالة التي تودّ الانطلاق في ميدانها، أو التقاعد.

وكانت الأخت إمّانُوِيل قد افتُتِنَت، في شبابها بملحمة الأب داميان الذي ضحّى بحياته في خدمة البرص في جزيرة مولوكاي، في هاواي. وحلمت بأن تحذو حذوَه، فاقتادها القاصد الرسوليّ في مصر، بسيّارته، إلى محجرٍ للبرص، قائمٍ على مسافة خمسين كيلومترًا من القاهرة. ثمّ اقترح عليها زيارة مساكن الصفيح التي يعيش فيها زبّالو القاهرة مع أُسرهم، بين أكوام النفايات. ورافقها إلى تلك المساكن، ومنذ الوهلة الأولى أضرم هذا المنظر في جسدها وفي نفسها نارًا لن تخمد، يومًا. فقد راعها المطرح: دروبٌ ضيّقةٌ تتكدّس فيها القاذورات، بحيث يتعذّر وضع القدم في مكانٍ نظيفٍ، وعلى جانبيها أكواخٌ من صفيحٍ صدئٍ تغشاها الثقوب، وتسرح بينها خنازير سوداء، وكلابٌ متوحّشةٌ، وجرذانٌ سمينةٌ ضخمةٌ، وكتائب كثيفةٌ من الذباب، وفوق تلك النفايات أسرابٌ من أطفالٍ قذرين، شبه عراةٍ، متّسخي الوجوه، تغطّي عيونهم جماعاتٌ كثيفةٌ من الذباب. واتّفق أن شاهدت الأخت طفلًا يلتقط من الأرض قرص بندورةٍ فاسدةٍ، ويدسّه في فمه، وتلقائيًّا حاولت منعه، هاتفةً "لا... هذا غير ممكنٍ..."، ولكنّ والدة الطفل القابعة على مقربةٍ منه، ردّت: "ماعليش، هذا لا يضيره، فهو قد اعتاد التهام بندورةٍ في طور الفساد".

ولاحظت الأخت افتقار تلك الأكواخ إلى الماء والكهرباء، والمدرسة والكنيسة والمستوصف. فلا شيء فيها سوى أقذارٍ وأطفالٍ قذرين.

في تلك اللحظة شعرت الأخت بعاصفةٍ تدوّي في أعماقها، وتهزّ كلّ كيانها، وسمعت همسَ الربّ في أعماقها:

"هل ترضـــين الســـكن هنا، ومنحي عينيك اللتَيْن لا تباليان، غالبًا، بالبؤس البشـريّ، لكي أرمقهم أنا بنظرة حبٍّ؟ وهل تريدين منحي شـفتَيْك اللتَيْن تظلّان، غالبًا، موصـــدتَيْن، باردتَيْن، لكي أحدّثهم أنا بهما أحاديث حبٍّ؟ وهل تريدين منحي قدمَيكِ، ويدَيكِ، وجسدَكِ، وذكاءكِ، وإرادتَكِ، وكلّ كيانك؟"

كان القرار مريعًا، فالعيش فوق الأقذار، وسط روائح التعفّن، هل أقوى عليه يومًا إثر يومٍ، وساعةً إثر ساعةٍ؟

ولكن ألم يقل القدّيس بولس: "أستطيع كلّ شيءٍ بمن يقوّيني؟". "نَعَم، يا يسوع. ولنبرم عهدًا للحياة وللموت. ولننطلقْ!"

واستشارت الأخت أصدقاء مصريّين، فارتعبوا خشيةً على حياتها، وحذّروها من إلقاء نفسها بين أيدي عصابات لصوصٍ، وقتلةٍ، وحشّاشين، لا يجسر حتّى رجال الأمن على زيارة مواقعهم. غير أنّ وعدها ليسوع بأن تهبه كلّ ذاتها، زوّدها بقوّةٍ خارقةٍ تسخر حتّى بالموت.

وكان عليها الحصول على موافقة رئيستها الإقليميّة، التي لم تكن قد نسيت، بعدُ، فشلها في منعها من قضاء لياليها في بيت فقراء، بحيٍّ شعبيٍّ، واقتسام عيشهم. وصارحتها: "ما تنوين فعله الآن يفوق جنونًا وحماقةً، كلّ ما فعلتِه من قبل. أنا لا أوافقك، ولكنّي لا أستطيع منعك. ولكنّي أحذّرك بأنّني لن أستطيع دعمك بأيّ مالٍ من أجل خوض مغامرتك".

وهي، في سريرة نفسها عذرت رئيستها، فقرارها كان يحكم عليها العيش على هامش جمعيّتها، في مكانٍ محفوفٍ بالمخاطر، حيث لا يجسر وطأه لا رجلٌ ولا امرأةٌ، ولا شرطيٌّ.

ولم يكن لموقف الرئيسة الإقليميّة الزاخر بالجفوة أيّ أثرٍ على قرار الأخت إمّانُوِيل،

ولا سيّما أنّ الأسقف وعدها بمنحها عشرة جنيهاتٍ شهريًّا، وهو مبلغٌ يفوق ما كان يلزمها للعيش فقيرةً وسط فقراء.

ولكن بعد فترةٍ طويلةٍ من الصبر والجهد والتضحيات، وبعد ظهور حصاد جهودها المدهش، انقلب حتّى موقف الرئيسة الإقليميّة، الذي أضحى رقّة، ومودّةً، وتشجيعًا، وافتخارًا.

تجربةٌ خاطفةٌ

ذات ليلةٍ، راود الأخت حلمٌ أثار أهواءها، وتخيّلت أنّها عشقت أحد أساتذتها الذي كان يبدي لها مشاعر حبٍّ، وتوثّقت العلاقات بينهما مع الأيّام. وفي الصباح، اعترفت بهذه التجربة لراهبةٍ مُسنّةٍ، جهدت في تسكين روعها، وإطفاء نيران جسدها. وحينئذٍ، بعد إعمال فكرها، وضحت الحقيقة في ذهنها، واقتنعت أنّها لو كانت اقترنت بأطيب رجلٍ، وقضت معه أسعد الأوقات، وأنجبت منه حتّى اثني عشر ولدًا، فهل هذا يُقارَن بثلاثة آلافٍ من أبناء الزبّالين الذين أرسلتهم إلى مدارس، وبنحو ثلاثين ألف طفلٍ سودانيٍّ وفّرت لهم طعامًا يقيهم من الموت، ومدارس في الخرطوم تضجّ بالطلّاب الصغار، ويضطرّ المشرفون على تلك المدارس المبنيّة من قصبٍ إلى توسيعها وإشادة المزيد منها، يومًا فيومًا، وتتحقّق نبوءة أشعيا (٥٤: ١–٣):

"اهتفي أيّتها العاقر التي لم تلدْ
اندفعي بالهتاف واصرخي
أيّتها التي لم تتمخّض،
فإنّ بني المهجورة أكثر من بني المتزوّجة، قال الربّ.
وسّعي موضعَ خيمتِك
وليبسطوا جلودَ مساكنِك
وّلي أطنابَك، وثبّتي أوتادَك... فإنّ نسْلَكِ يُعمّرُ المدنَ الخَرِبَة."

في بيوت الصفيح

في أعقاب المجمع الڤاتيكانيّ الثاني فتحت الكنيسة أبوابها للطوائف والديانات الأخرى، وأنعمت السمع لصيحات بؤس العالَمَيْن الثالث والرابع. وسلكت جمعيّة "سيون" هذا النهج، فرئيستها الأمّ "غيسلين" (Guislaine)، التي تألّقت في التعليم في معاهد استنبول العليا، استغنت عن كلّ مراكزها، بلا أسفٍ، ولا ندمٍ، بل باندفاعٍ ومحبّةٍ، غير متحرّجةٍ من استخدام المكنسة، والخدمة في المطبخ، وتخلّت عن كلّ امتيازاتها، وعن السيّارة والسائق، وأسّست في منطقة المطريّة الشعبيّة في القاهرة، حديقة أطفالٍ للأُسر الفقيرة.

أمّا الأخت إمّانُوِيل، فقد افتُتِنت بمثال الأب پيير مؤسّس مبرّة "عمّاوس" التي ضمّت جامعي نفاياتٍ، وقضى حياته مع الأشدّ فقرًا وبؤسًا، في إثر يسوع. وأدركت الأخت أنّ جوهر المحبّة هو اندفاع الإنسان، إلى مشاركة إنسانٍ آخر محتاجٍ، في السرّاء والضرّاء، وتبنّي بؤسه وحرمانه.

ومن ثمّ، لم يكن دخولها إلى مدينة الصفيح سوى اقتحامها عرين الحبّ الأعظم. من المحقّق أنّه لم يتسنّ لها اقتسامهم بؤسهم اقتسامًا كلّيًّا. فالبؤس ملتصقٌ بجلودهم. وهم قد حُرِموا، منذ مولدهم، من الرفاه، والكفاية من كلّ شيءٍ، ومن التعليم. ولم يتغذّوا إلّا بالنفايات، ولم يعهدوا سوى الازدراء والإقصاء والتهميش. ولكنّها اقتسمت حرمانهم المادّيّ بمحبّةٍ كُبرى، مستغنيةً عن سَهَر جمعيّتها ورعايتها وأمانها، ورفاهها النسبيّ.

ولا شكّ أنّها بعيشها مع أولئك البائسين، رفعت من مستواهم، ونالت لهم احترام بعض فئات المجتمع، وأنّ ما أحاطت به كلًّا منهم من احترامٍ، أعاد لهم الشعور بكرامة

المخلوقين على صورة الله. ولئن تعذّر عليها التردّي إلى قعر بؤسهم، فقد ساعدتهم على النهوض من خلال تثقيف أبنائهم. وكفاها هذا الإنجاز لاعتبار الوقت الذي قضته معهم "زمن الحبّ الأعظم"، والاثنتي وعشرين سنةً التي أمضتها معهم، أسعد أيّام حياتها.

زفّة العروس

كان جامع نفاياتٍ، يُدعى لبيب، قد تعهّد بتسهيل إقامة الأخت إمّانُوِيل في مدينة جامعي النفايات، المعروفة "بعزبة النخيل". فأعارها كوخًا من صفيحٍ تسرح عند بابه عنزتان، ويهدل سرب حمامٍ في قفصه. ووافت إلى مسكنها مثلما تأتي العروس إلى منزل زوجها على متن عربةٍ مترجرجَةٍ يجرّها حمارٌ. وبمثابة جهازٍ، كانت قد جمعت في صرّةٍ من قماشٍ بعض الألبسة اليوميّة الضروريّة، ووضعت على متن العربة كرسيًّا خشبيًّا، ومنضدةً. وما إن شاهد الأولاد قدومها حتّى استقبلوها بزفّةٍ صاخبةٍ، مصفّقين بفرحٍ للعروسة.

وسارعت العروسة إلى تكنيس أرض مسكنها. ثمّ خرجت مع دليلها لبيب من أجل تعرّف جيرانها. وكان أوّلَ مَن التقته، جامعُ نفاياتٍ، عاكفٌ على فرز النفايات التي جاء بها، قبل سُوَيعاتٍ، وقرّرت تلبية طلب يسوع عينيها وشفتيها وقلبها، كي تفتح له قلوب ساكني "العزبة". فانحنت، باشّة الأسارير، وصافحت الرجل القابع على الأرض وسط النفايات، فارتعش الرجل دهشةً، إذ كانت تلك هي المرّة الأولى التي يمدّ لها إنسانٌ من الطبقة الراقية يده، فنهض وشدّ على يدها شدًّا أوجعها، ودعاها إلى مشاركته كوب شاي، فتقبّلت دعوته بفرحٍ، غير مباليةٍ بالجلوس فوق الأقذار، سعيدةً باقتسام قدح شايٍ مع جامع نفاياتٍ، وبالشعور بأنّها غدت جامعة نفاياتٍ مع جامعي نفاياتٍ، وتقاسمت البائسين بؤسَهم، وتساوَت معهم.

ولمّا أخلدت إلى النوم، في تلك الليلة، توطّدت لديها إرادة تحطيم الحاجزَيْن الأكثر صفاقةً، حاجز التعصّب الذي يفرّق الإخوة، وحاجز الجهل الذي يشيع المرض والتخلّف والموت.

وشرعت تتجوّل في القرية للتعرُّف على ساكنيها. وفي البدء اتّخذت السيدة تيريز دليلةً، وما لبثت أن لاحظت سلوك دليلتها زواريب ملتويةً، تحاشيًا لعبور أماكن محدّدةٍ، وعلمت لاحقًا، أنّ ساكني تلك الأماكن التي تأبى تيريز اجتيازها، كان معظم سكّانها من المسلمين، في حين كانت الأخت راغبةً في مدّ جُسورٍ بين الضفّتَيْن، وفي جمع سكّان القرية أجمعين في كيانٍ واحدٍ. وسلكت إلى تحقيق رغبتها درب ولع الشبّان بمباريات كرة القدم. ولحظت أنّ المشاهدين يصفّقون لأبطال تلك الرياضة، أيًّا كانت عقيدتهم، وسواءٌ كان اسم الواحد منهم محمّد أو جرجس. واتّفق أنّ أحد أولئك الأبطال، ويدعى محمّد، صعقته حمّى خبيثةٌ، أودت بحياته، في غضون ثلاثة أيّامٍ. واجتمع المسلمون والمسيحيّون في الجامع للصلاة لنفسه، وقد وحّدهم الحزن على أخٍ لجميعهم.

ثمّ لجأت إلى أساليب أوفر أثرًا في ترسيخ قناعات التآخي في أعماق الضمائر. وبمناسبة يوم الجمعة العظيمة، جمعت الأطفال المسيحيّين، وأكّدت لهم أنّ يسوع تقبّل الصلب والموت من أجل خلاص جميع البشر. وبما أنّ المسلمين بشرٌ فقد أحبّهم يسوع أيضًا، ومات من أجلهم. ثمّ وعدتهم بمنح كلٍّ منهم صليبًا يوم الجمعة، ولكنّها لن تعلّق صليبًا في عنق أيٍّ منهم، إلّا بعد اعترافه بأنّه يحبّ أباه وأمّه وإخوته، والحلويات، والسكاكر، والمسلمين، وأنّه سيصلّي من أجل الجميع بمن فيهم المسلمون.

ولا ريب أنّ الدرس الأعمق وقعًا الذي ألقته الأخت إمّانُوِيل كان مثال سلوكها، ومدّها يد العون إلى جميع سكّان "عزبة النخيل"، بلا تمييزٍ، ومداعبتها جميع الأطفال، والابتسام لهم، بلا تفرقةٍ، حتّى غدا جميع سكّان "العزبة" يجلسون جنبًا إلى جنبٍ، ويتجاذبون الأحاديث بلا حرجٍ، محقّقين رغبة الربّ بأن يكونوا جميعهم واحدًا.

خبرةٌ ساحقةٌ لموتِ الأبرياء

منذ مجيء الأخت إمّانُوِيل إلى مدينة الصفيح، لحظت حفرةً كانت تُلقى فيها جثث أطفالٍ قضى الكزاز على وجودهم. ولم يكدْ يمرّ يومٌ لا تأتيها امرأةٌ مفجوعةٌ ضامّةً طفلًا، وقد ارتمى وجهه المتّسخ على كتف أُمّه، وانغرست أنامله الصغيرة في راحتَيْه. وكان واضحًا أنّ الميكروب قد غزا دماغ المخلوق الصغير. وكم كانت مؤلمةً مشاهدةُ أمّهاتٍ تشددنَ إلى صدورهنّ فلذات أكبادهنّ، وهم يرحلون عنهنّ إلى الأبد، ولا سبيل إلى منع هذا الرحيل! ولولا متانة إيمان نساء جامعي النفايات لكانت الأخت تردّت إلى القنوط، حيال تلك المناظر اليوميّة المريعة.

حينئذٍ، لم تكن للأخت وسيلةٌ لمواساة الأمّهات المفجوعات، سوى الجلوس بقربهنّ فوق أكوام النفايات، ولا يتبادلنَ أيّ حديثٍ، بل يكتفينَ بتبادل البكاء، وأخيرًا تقول الأخت للأمّ المفجوعة: "صحيحٌ أنّ عزيزك قد رحل، ولكنّه طار إلى السماء، وهو الآن سعيدٌ، ويُنشد مع مريم العذراء". فتحدّق الأمّ المفجوعة إلى النجوم، وتهتف: "يا حبيبي، غادرتني، ولكنّك سعيدٌ، وأنت تنشد الآن مع العذراء. فلا بأس إن أنا بكيتُ، ويكفيني أنّك سعيدٌ، يا حبيبي".

وكانت الأخت تلحظ على وجوه أولئك النساء المفجوعات شيئًا لا يمكن وصفه بالحزن أو بالفرح، بل هو ضربٌ من السكينة الهادئة، شبّهتها أخواتها بتمثال "البييتا" (Pietà) الذي خلّد فيه ميكيل أنجيلو ضمّ العذراء جثمان ابنها، وقد سكنها حزنٌ سحيقٌ، يرافقه اليقين بأنّ ذلك الجثمان سيعود قريبًا إلى الحياة، وإلى القيامة.

ومن ثمّ سكن نفسَ الأخت ألمٌ هاصرٌ، بسبب عجزها عن قهر الكزاز الدائب على حصد الحياة من أطفالٍ في زهرة العمر، والحصبة التي كانت، هي أيضًا، تقتاد إلى القبر

مئاتٍ منهم، والأخت مفتقرةٌ إلى المال واللقاحات والمستوصفات، الكفيلة بلجم هذه المجازر. كانت تجهد في سكب العزاء والبسمات، ولكن هذه الجهود عجزت عن درء موت مئات الأطفال الأبرياء.

ومنذئذٍ، وطّنت العزم على فعل المستحيل من أجل اجتثاث تلك الفاجعات جذريًّا.

موت "بَعْزَق"

ذات صباحٍ، خبرت الأخت آفةً أُخرى، حوّلت حياتها تحوّلًا جوهريًّا، وفجّر فيها بركانًا. فقد كانت عائدةً من قدّاس الساعة السادسة في دير جمعيّتها إلى مساكن الصفيح، وعلمت أنّ الشاب المسلم "بعزق" قد قُتِل، وأنّ قاتليه هم رفاقه المسلمون الذين كانوا، دائمًا، مستعدّين لحمايته بحياتهم.

كان "بَعزَق" في الثامنة عشرة، وقد جاء إلى مساكن الصفيح قبل ثلاث سنواتٍ، ووظّفته "أمّ كريمة"، مع ثلاثة فتيانٍ مجايلين له، في جمع نفايات القاهرة، وجلبها إلى "عزبة النخيل"، وأعارت كلًّا منهم حمارًا، وأسكنتهم معًا في كوخٍ ضيّقٍ، لا نافذة له ولا متنفّس، حيث كانوا يرقدون على الحضيض، فوق ألواح كرتونٍ عتيقةٍ، ويلتحفون بغطاءٍ واحدٍ.

وغالبًا ما كانوا، فرارًا من هذا البؤس، يرتادون مقهًى معتمًا زريًّا، ينفقون ساعاتٍ من ليلهم، يلعبون بالورق مقامرين على بضعة قروشٍ، ويحتسون شرابًا مغشوشًا رخيصًا، يذهب بعقولهم.

وفي تلك الليلة المشؤومة، كان "بعزق" قد ربح نحو خمسين قرشًا. وتأمّل أن يساعد بهذا المبلغ والده. ولكنّ رفاقه طالبوه، مطالبةً عنيفةً بإعادة لكلٍّ منهم ما خسره، فلبّى رغبتهم، ولكنّه احتفظ بعشرة قروشٍ لنفسه. ولم يرُقْ ذلك لرفاقه. ولمّا عادوا إلى مسكنهم الزريّ، وقد تعتعهم السكر، أخذ النعاس سريعًا ببعزق، واغتنم رفاقه سباته العميق، وسلبوه القروش العشرة، غير أنّهم بتأثير سكرهم، وفقدانهم الرشد، طعنوه بالمِدى حتّى أزهقوا روحه، وأسالوا دمه. ولمّا جاءت "أمُّ كريمة"، الساعة الرابعة كي توقظهم، وترسلهم إلى العمل، فاجأها التصاق قدمها بمادّةٍ لزجةٍ، وسرعان ما تبيّنت أنّه دم "بعزق".

مقتل "بعزق" فجّر في نفس الأخت إمّانُوِيل بركانًا هادرًا، وجعلها تدرك أنّ جوهر المحبّة ليس مجرّد اقتسام البائسين بؤسهم، والتوغّل معهم فيه، بل السعي، بكلّ الوسائل، إلى إزالة أسباب البؤس، من خلال مكافحة الجهل والمرض والبطالة، وتوفير التعليم، والعمل، والسكن الكريم، وإشادة المدارس والمشافي والمستوصفات، والمعامل، وبالتأهيل المهنيّ الذي يمكّن كلّ شابٍّ من إتقان مهنةٍ. وفي الحال، وطّدت الأخت العزم على الطواف في العالم، وقرع أبواب المؤسّسات الخاصّة والعامّة وجمع ملايين الدولارات الكفيلة بتحويل مزابل القاهرة إلى مساكن مؤهّلةٍ لكلّ مقوّمات الحضارة، والصحّة، والعلم والازدهار.

وقد لقيت الأخت من المصريّين مساعداتٍ كانت لها، على بساطتها، منبع فرحٍ. وزوّدها رؤساء كنسيّون ورسميّون بعناوين وتوصياتٍ ثمينةٍ، فطارت إلى أوروبا، وأميركا، وأوستراليا، وقرعت أبواب مؤسّساتٍ ومدارس، وألقت مئات المحاضرات، في كلّ مكانٍ. وأزعجتْ أفرادًا أثرياء، وزارت الڤاتيكان، والاتّحاد الأوروبيّ، وتحادثت مع رئيس لجنته جاك ديلور، ومع وزير الصحّة والعمل الإنسانيّ الفرنسيّ "برنار كوشنر"، والرئيس الأميركيّ جورج بوش، ورئيس البنك الدوليّ. وفي معظم تلك الأماكن، تلقّت تفاهمًا وتشجيعًا، ودعمًا، وعادت بثلاثين ألف دولارٍ، أسّست بها مستوصفاتٍ، ودار توليدٍ، ومراكز محو الأمّيّة، ومشفًى، وملعبًا، ونوادي للشباب تبعدهم عن المقاهي والحانات الوبيلة، ثمّ استخرجت من نفايات المزابل أسمدةً تخصب أراضي المزارعين المصريّين، ويوفّر تصدير قسمٍ منها موارد تساعد على إقامة مزيدٍ من المشاريع النهضويّة.

وابتنت في مدينة السويس بيتًا على ضفاف البحيرة، يتيح للزبّالين وأُسَرِهم، قضاء بضعة أيّام نقاهةٍ واستجمامٍ في المياه المنعشة.

وقد تضافر على تنفيذ هذه المشاريع مهنيّون مصريّون بالتعاون مع متطوّعين أوروبيّين قدّموا كفاءاتهم وخبراتهم.

ولا ريب أنّ الأخت إمّانُويل كانت ترى، في كلّ تلك المشاريع تكفيرًا عن دم "بعزق" ورفاقه الذين فقدوا حياتهم مجّانًا وبلا طائلٍ.

ولا ريب أنّه لم يتحقّق أيٌّ من تلك المشاريع بسهولةٍ. بل كم جهدت الأخت متنقّلةً من كوخٍ إلى كوخٍ، كي تقنع آباءً جاهلين بضرورة تعليم أبنائهم، وبفائدة هذا التعليم. وغالبًا ما عارضها آباء محتجّين: "وما نفع القراءة والكتابة؟ فها أنا لا أقرأ ولا أكتب، ومع ذلك أكسب عيشي. وإذا عمل أبنائي معي فيزداد دخلنا، وتتحسّن ظروف عيشنا".

وكان عناد بعض الآباء الأغبياء يثير غيظها، فتصارحهم: "رأيتُ في أوروبا خنازير تسكن بيوتًا نظيفةً مزوّدةً بالماء والكهرباء، والطعام النظيف، وأنت تحرص على أن يكبر أبناؤك في هذه المساكن، من التنك الصدئ المثقّب، فوق الأقذار!".

وكانت الأخت تلحظ، حينئذٍ، عيون الأبناء السوداء محدّقةً إليها ملتمعةً، حالمةً، فكانت تقول للوالد: "أنا أحبّ أبناءك أكثر منك، وأريد إنقاذهم من بؤس القذارة". وغالبًا ما كان الوالد يستسلم، ويوعز إلى زوجته أن تأتي بوثيقة ولادة أبنائهما. وفي اليوم التالي، كانت الأخت تمسك بأيدي أبناء الزبّالين، وتقتادهم إلى مدرسةٍ قريبةٍ، وقلبهم يرقص فرحًا وأحلامًا.

يوم غادرت الأخت إمّانُويل مساكن الصفيح، بعد نحو عشرين عامًا، كانت جهودها، في هذا المضمار قد أتاحت لنحو ألفَيْ طفلٍ من أبناء الزبّالين أن يقصدوا، بفرحٍ وفخرٍ، المدارس التي بنتها لهم، بما حصلت عليه من مساعداتٍ دوليّةٍ وفرديّةٍ.

وكان قلب الراهبة الجدّة ينبض جذلًا، كلّما شاهدت أولئك الأطفال جالسين على مقاعد صفوفهم يقرأون ويكتبون. واتّفق أن زار الأمير فيليب البلجيكيّ مدرسة المقطّم للزبّالين، وحضر تمثيل مشاهد من مسارح عالميّةٍ، باللغتَيْن العربيّة والإنكليزيّة، وأدهشته نظافة الأطفال، ورقيّ حركاتهم، حتّى صعب عليه التصديق أنّهم أبناء زبّالين. ولكنّ ممثّلين عن وزارة التعليم أكّدوا له أنّ هذه المدرسة هي الفضلى في تلك المنطقة من القاهرة، علمًا ونظافةً، فأُعجب الأمير وقال: "الطلّاب، هنا، محترَمون ومحبوبون". ذلك كان سرّ نجاح الأخت إمّانُوِيل: احترام الطلّاب ومحبّتهم.

وأفلح الصغار في نقل عدوى التعليم إلى آبائهم، الذين أمسوا يخجلون من أمّيّتهم، ورغبوا في اتّباع دروسٍ مسائيّةٍ لمحو أُمّيّةٍ. ولكنّهم كانوا، غالبًا، في المساء منهكين من صعود مئات أدراج أبنية القاهرة، طول النهار، من أجل نقل نفاياتها إلى المزابل التي يعيشون فيها، فيؤثرون الظفر بشيءٍ من النقاهة في المقاهي، حيث يلعبون بالورق، ويتبادلون النكات والطرائف. غير أنّ الأخت الحريصة على كرامتهم، لم تكن تتحرّج من انتزاع بعضٍ منهم من المقاهي، وإغرائهم بجعلهم "متعلّمين ومحترمين". وبما أنّ جدران مدارس الأخت كانت تنضح عطفًا ورقّةً ومحبّةً كان أولئك الرجال قساة الرقاب، يتحوّلون إلى تلاميذ طائعين، فهم أيضًا، كانوا يتطلّعون إلى أن يكونوا "محترَمين ومحبوبين".

مآسي الإناث

من نكد الدنيا، في قرى الصفيح أن يولد الإنسان أنثى. فالفتاة، منذ بلوغها الحادية عشرة أو الثانية عشرة، تُقدّم لرجلٍ، بصفة عبدةٍ له. وكان الرجل يوسعها ضربًا ليعدّها لهذا المصير منذ ليلة عرسها، لكي لا تنسى، أبدًا، أن تكون عبدةً مطيعةً، وأن تنجب كلّ سنةٍ ولدًا، بلا هوادةٍ، ولا انقطاعٍ.

هذا ما خبرته الأخت إمّانُوِيل منذ يوم إقامتها الأوّل في قرية الصفيح، عندما سمعت صراخ طفلةٍ يحطّم القلوب، صادرًا من غرفة جارها مصطفى. وظنّت أنّ في الأمر حدثًا، فخفّت للمساعدة، ووجدت مصطفى عاكفًا على ضرب زوجته الطفلة بلا رحمةٍ. وحاولت إنقاذها منه فازداد في ضربها شراسةً، وحينئذٍ رجتها الفتاة أن تخرج، رأفةً بها.

وأدركت الأخت أنْ لا جدوى من تدخّلها المباشر، وأنّ الأجدى هو الإقناع. وفي المساء، تناولت كأس شاي مع جارها مصطفى، واستفسرت عن سبب صياح زوجته الصغيرة، فأجاب، واثقًا، أنّ هذا هو الأسلوب الوحيد لكي تعلم زوجته عِلمَ اليقين، مرّةً ولكلّ مرّةٍ، أن تكون له عبدةً طول العمر، ونوّهت الأخت بأنّ هناك وسيلةً أوفر جدوى، فزوجته ليست فاقدة العقل، وخيرٌ له أن يفسّر لها مطلبه منها برويّةٍ وهدوءٍ، فقد تكون الرقّة والكلمة الطيّبة، أجدى من العنف. ووعد مصطفى الأخت بتجريب أسلوبها المقترَح، وتواعدا على الالتقاء بعد أسبوعٍ، من أجل تقييم النتائج. ولكنّ المحاولة فشلت.

وخطر للأخت أن تعدّ جوًّا يساعد على منح النساء قدرهنّ من التقدير. ودعت إلى الاحتفال بعيدٍ للأمّهات، واحتشد جمعٌ لسماع أطفالٍ ينشدون: "يا ماما، يا حلوة". وفيما كانت كلّ أمٍّ، ترى بعينيها المغرورقتَيْن بالدموع، في ابنها وابنتها أجمل أبناء العالم، عدّ الرجال، لدى عودتهم من عملهم، أنّ تلك اللعبة عقيمةٌ، ولا معنى

لها. ولم يحيدوا عن قناعتهم بأنّ الوسيلة الوحيدة للسيطرة على الزوجة هي إيساعها ضربًا، كلّ ليلةٍ، فالنساء بلا عقلٍ. واعترضت الأخت إمّانُويل، بأنّها، هي أيضًا، امرأةٌ، فهل هي أيضًا بلا عقلٍ؟ وأجاب جميع الرجال: "أنت لست مثل نسائنا". واتّفق أنّ أحد جيرانها، المدعوّ ميخائيل، أسرف في ضرب زوجته حتّى أضحت خرقة لا حول لها ولا طول، ولا قدرة لها على الحركة. وقالت الأخت لميخائيل، أثناء تبادلهما كوب شاي: "أرى أنّ زوجتك مريضةٌ جدًّا، وتحتاج إلى مستشفًى. فادّعى أنّها وقعت. ولكنّ الأخت دحضت ادّعاءه، وصارحته: "أنا أرى أنّ مرضها هو نتيجة إسرافك في ضربها"، وانتهت إلى قولها له: "إن لم تسرع إلى معالجتها في مستشفًى، فستفقدها، ولن يبقى لديك من يرعى خنازيرك". وحينئذٍ، فقط، ارتضى ميخائيل معالجة زوجته في المستشفى.

ومن القضايا الخطيرة التي تصدّت لها الأخت هي ختان الفتيات عند بلوغهنّ سنّ التاسعة أو العاشرة. هذه الآفة لم يكن ينجو منها لا مسلمون ولا مسيحيّون. وكانت تستند إلى خرافةٍ دهريّةٍ مترسّخةٍ، تزعم أنّ ما من رجلٍ يرضى الزواج بفتاةٍ غير مختونةٍ، لأنّها لن تخضع له. ومع أنّ قوانين حكوميّةً كانت قد حظرت هذه الممارسة، وفرضت على ممارسيها عقوباتٍ، إلّا أنّها ما زالت شائعةً، وتمارَس خفيةً، من قِبَل أشخاصٍ لا يملكون أدنى مبادئ الصحّة، ويستخدمون أدواتٍ غالبًا، ما تكون ملوّثةً، وتسبّب مخاطر صحّيّةً خطيرةً.

وكانت الأخت موقنةً بأنّ هذه الآفة ومثيلاتها لن يُقضى عليها نهائيًّا، إلّا بنشر العلم، وبأنّ المدارس هي السبيل الأمثل إليها.

واتّضح للأخت تصميم الفتيات على خرق التقاليد الدهريّة. ففي امتحانات الدروس المتوسّطة، التي أجريت عام ١٩٩٢ نجح جميع الصبيان، ورسبت جميع البنات، مع أنّهن كنّ يضاهينَ الصبيان كفاءةً، وتتفوّق بعضٌ منهنّ على بعضٍ منهم.

ومن أجل تمويه رسوبهنّ ادّعينَ أنّ الصبيان استعانوا بأساليب الغشّ والنقل، وهنّ أبينَ هذه الأساليب. وأظهر الواقع أنّهنّ كنّ اتّفقن على الرسوب قصدًا، وبسابق تصميمٍ، يقينًا منهنّ بأنّ آباءهنّ سيجبرونهنّ على الزواج، غداة نجاحهنّ، ولن يتيحوا لهنّ الانتساب إلى مدارس ثانويّةٍ، من أجل إكمال تعليمهنّ.

غير أنّ مفارقةً أدهشت الأخت. فحتّى الفتيات اللواتي تزوّجنَ في سنٍّ مبكّرة، وأنجبنَ كلّ سنةٍ ولدًا كنّ سعيداتٍ، ومزدهراتٍ نفسيًّا، ولكأنّ كثرة الأبناء كانت هي التعويض عن فراغ حياتهنّ العاطفيّة، وخلوّها من أسباب الأمل والفرح.

ومع ذلك، وعلى غرار الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، تعاونت الأخت مع مؤسّساتٍ تابعةٍ للكنيسة الأورثوذكسيّة، في سبيل الحدّ من الإنجاب، بأساليب طبيعيّةٍ، علميّةٍ. وكانت وطيدة الإيمان بأنّ الفتيات المتخرّجات من مدارسها لن يرضَيْنَ، بعدُ، أن يكنّ مثل جدّاتهنّ وأمّهاتهنّ، "مخلوقاتٍ للضَّرْب".

معمل السماد العضويّ (الكومبوست)

مذ قَدِمت الأخت إمّانُوِيل إلى قرى الصفيح، وسكنت مع الزبّالين ما انفكّ يؤرّقها، في كلّ لحظةٍ خطر شتّى الميكروبات والڤيروسات التي تأتي كلّ يومٍ، مع أطنان النفايات التي ترمى في تلك الأرض الموبوءة. كانت خروق الأقمشة، والأوراق والكرتون والبلاستيك، والزجاج المكسور تسلك طريقها إلى إعادة تدويرها واستخدامها، وكانت الخنازير تتغذّى وتسمن بالتهام بقايا الأطعمة، أمّا ما يُهمَل فيختلط بالقمامة والقاذورات، ويكوّمه الزبّالون أمام أكواخهم إلى أن تقدم شاحنةٌ، بين حينٍ وآخر فتجمعه وتحرقه، ناشرةً أدخنةً مُسرطِنةً.

ولطالما تساءلت الأخت، بقلقٍ، عن سبيلٍ إلى تحويل جراثيم الموت هذه إلى سمادٍ يحمل وعدًا بالحياة والازدهار.

وقُيِّض للأخت التقاء خبيرٍ سويسريٍّ عالميٍّ، ذي باعٍ طويلةٍ، وخبرةٍ عريقةٍ في استخراج عوامل الخير من النفايات. ولم يتوانَ عن المجيء إلى قرى الصفيح في القاهرة، ومنذ قيامه بالاختبار البدائيّ، التمع في ذهنه مشروعٌ فريدٌ، مزدوج الفائدة، فهو، من جهةٍ، يرفع الأضرار الصحّيّة عن ساكني قرى الصفيح، ومن جهةٍ أخرى يُخصب أراضي مصر.

ولكنّ إقامة ذلك المشروع كان يستلزم لا أقلّ من ستّ مئة ألف دولارٍ. وسارعت الأخت بالاتّصال بجماعات أصدقائها المنتشرين في سويسرا، وفرنسا وبلجيكا، الذين كانوا يدعمون، ماليًّا، مشاريعها الصغيرة في قرى صفيح القاهرة، وكانوا يعدّون لها مناسباتٍ لإلقاء محاضراتٍ في مختلف الأماكن، حيث كانت تعرّف بحاجات زبّالي مصر إلى مدارس ومستوصفاتٍ وماءٍ وكهرباءَ، وتساهم محاضراتها في جمع الأموال اللازمة.

ولكنّهم، في هذه النوبة، لمّا سمعوا بمعمل أسمدةٍ تحتاج إقامته إلى ما لا يقلّ عن ستّ مئة ألف دولارٍ، صُدِموا، وخُيِّل إليهم أنّ الأخت أُصيبت بمسّ جنونٍ. وتساءلوا هل يسمح رجال مصر المتباهون برجولتهم أن تقوم امرأةٌ بمشروعٍ صناعيٍّ واسع النطاق. غير أنّها أكّدت لهم أنّها ستتعاون مع خبراء مصريّين على إنشاء المشروع وإدارته. وازدادت إصرارًا على تحقيق معمل الكومبوست بأيّ ثمنٍ، إيمانًا منها بفوائده الجمّة.

وبفضل بإصرارها، وحجَجِها الإنسانيّة، مُحكمة المنطق، حصلت الأخت من لجنة الاتّحاد الأوروبيّ على وعدٍ بثلاث مئة ألف دولارٍ، ووضعت مؤسّسةٌ سويسريّةٌ بتصرّفها مئةً وخمسين ألف دولارٍ، ولم يعُدْ من العسير استكمال المبلغ المطلوب، فعادت إلى القاهرة، كي تعدّ موقع المعمل، والبنية التحتيّة له. وأبدى عمدة المنطقة المصريّ حماسًا لتحقيق المشروع، وقدّم لها أرضًا رحبةً متيحًا لها امتلاك كلّ ما تحتاج منها، فاستقلّت سيّارة جيپ، وطافت في الأرض المعروضة عليها، وإذ بها صحراء مقفرةٌ، تفتقر إلى طرقاتٍ معبّدةٍ، وإلى الماء والكهرباء. واستمرّت تبحث عن مكانٍ أكثر ملاءمةً، إلى أن تنازل، أخيرًا، لها العمدة عن رقعة أرضٍ محاذيةٍ لقرى الصفيح. فطارت الأخت مجدّدًا إلى سويسرا، من أجل الحصول على المئة وخمسين ألف دولارٍ الموعودة، وكانت قد مضت سنةٌ كاملةٌ على وعد المؤسّسة بمنح هذا المبلغ، وفي هذه الأثناء، كانت المؤسَّسة سئمت الانتظار، ومنحت المبلغ لمشروعٍ آخر في أحد بلدان العالم الثالث.

ومع ذلك، لم تيأس الأخت إمّانُوِيل ولا استسلمت. بل حرّكت مبرّة عمّاوس، التابعة للأب پيير، ولم يضنّ أفرادها بجهدٍ كي يجمعوا ما استطاعوا من مالٍ لمشروعها، وأقنعت الأخت أيضًا، مُغنّين مشهورين بإحياء حفلاتٍ خيريّةٍ في مسارح راقيةٍ يوقف ريعها على إقامة معمل الكومبوست العتيد، إلى أن اكتمل مبلغ الستّ مئة ألف دولارٍ.

وانبرى مصريّون نافذون لتنفيذ المشروع، وتبرّعت شركةٌ مصريّةٌ كبرى بتقديم خبراتها الفنّيّة، وتطوّعت سيّدة الأعمال "يُسريّة ساويروس" برؤّس مجلس إدارة المشروع،

وتولّى المحاسبة الأخ بولاد، مدير معهد المدارس المسيحيّة الذي كان قد تابع دروسًا عليا بالمحاسبة في فرنسا، واختير مدير معملٍ عالي الكفاءة، فانتقى أنشط العمّال، وأكثرهم وفاءً للمؤسّسة. ونهض المعمل، وتكدّس الإنتاج، ولكنْ بما أنّه كان ما زال مجهولًا، لم يتهافت الزبائن على شرائه. فتألّف فريق متطوّعين، قدّموا لكلّ مزارعٍ كيس سمادٍ مجّانًا، ناصحين بتجربته، وإذ بمزروعاتهم تزدهر وتكبر، وتزداد إنتاجًا، وقبل انقضاء سنةٍ غدا الإنتاج عاجزًا عن تلبية الطلبات.

ثمّ بادرت يسريّة ساويروس بالتعاون مع راهبةٍ وسيّدتَيْن إلى إنشاء معمل سجّادٍ ملحقٍ بمعمل السماد، كان يوفّر للعاملات فيه ولأسرهنّ، دخلًا. وإلى جانب ذلك تلقَّيْنَ دروسًا في محو الأمّيّة، وفي الصحّة المنزليّة، وفي الرسم، وحصلت كلٌّ منهنّ على نول نسيجٍ تعمل عليه في منزلها لحسابها الخاصّ. وسرعان ما ضاق معمل السجّاد بالعاملات الجديدات، وطالب محافظ القاهرة الأخت ببناء معمل سمادٍ آخر. ولكنّها كانت قد طعنت في السنّ، ولم يعُدْ بقدرتها جوب أقطار العالم، فضلًا عن أنّ أسعار الآلات كانت قد تكاثرت أضعافًا. وبات على جيلٍ جديدٍ إنماء ما أنشأته الأخت إمّانُوِيل وتطويره، وتوسيعه، وابتداع مشاريع جديدةٍ.

من كلّ ذلك، استخلصت الأخت إمّانُوِيل درسَيْن قيِّمَيْن: النصر هو نصيب من لا يتوقّف عن الصراع، مهما اشتدّت العقبات. والاعتماد على أبناء البلاد الحريصين، عمومًا، على مستقبل بلدهم وأبنائهم، حتّى إذا شكّ الغرباء بجدوى المشاريع الجريئة.

دار السعادة

فيما كانت الأخت إمّانُوِيل تتأهّب لبناء معمل السماد العضويّ تساءلت ألا يحقّ للزبّالين ونسائهم وأبنائهم، أن يبعدوا بضعة أيّامٍ، في السنة، عن النفايات والأقذار والخنازير، والروائح الكريهة. ويتنعّموا، بسُوَيعات نقاهةٍ؟ ألا يستأهلون بيتًا يرتاحون، فيه، مدى بضعة أيّامٍ، من حياتهم الشاقّة، على شواطئ البحيرة أو القناة؟

ولكنّها كانت كلّما فاتحت آخرين بحلمها هذا، كان الردّ أنّ الرفاه ليس من أولويّات احتياجات الزبّالين. ولكنّ الأخت كانت راسخة الإيمان بأنّ إتاحتها لأولئك البائسين الذين يقضون كلّ أيّام حياتهم في الحرمان والقذارة والتعب، الفرار بضع ساعاتٍ من ذلك البؤس، ورؤية أشياء أجمل من أكوام النفايات ومن رفقة الخنازير، وتنشّق نسيمٍ نظيفٍ عليلٍ، ليست رفاهًا، بل هي فعل محبّةٍ واجبٌ.

وانطلقت الأخت تبحث عن المكان الملائم، والأقلّ كلفةً. وواكبها في بحثها الرفيق الوفيّ المتفاني، الأخ بولاد، رئيس مدارس الإخوة المسيحيّة، الذي استبعد الإسكندريّة منذ البدء، بسبب بعد المسافة إليها، وغلاء أراضيها، وآثر البحث في مناطق السويس، منقذًا الأخت من براثن المحتالين، والملّاكين الزائفين، مقتنصي الغرباء، الذين يستغلّون جهلهم للواقع، وسذاجتهم. وطال بحث الأخت المتسلّحة بالصبر والاعتماد على الله، إلى أن اكتشفت، مع مساعدتها الأخت سارة، بيتًا رخيص الثمن، قريبًا من البحيرات المرّة.

في ذلك البيت، كان يمكن إيواء أربعين فتًى على أسرّةٍ متراكبةٍ ليلًا، إثر قضائهم نهارًا ممتعًا في المياه المنعشة. وتيسّرت قضيّة توفير المال لشراء البيت وإعداده، بمجيء ثريٍّ هولنديٍّ، مهتمٍّ بشؤون جامعي النفايات، حثَّتْه الأخت على دعوة فريقٍ من أبناء

زبّالي القاهرة، لقضاء يومٍ في تلك المنطقة، فدعاهم، وأخذ به فرحهم الطاغي كلّ مأخذٍ. وحينئذٍ، بسطت الأخت بين يديه مشروع الحلم الذي كان يراود خاطرها، فتبنّاه باندفاعٍ، ولم يتأخّر عن إرسال الشيكّ، فتحقّق حلمها بالمشروع.

إنّه ليتعذّر وصف بهجة أبناء الزبّالين حيال ذلك المدى اللامتناهي من المياه الزرقاء، المتأرجحة على هبّات النسيم، وفرحهم الصارخ بالغطس في تلك المياه المنعشة، ثمّ الاستلقاء على رمال الشاطئ الذهبيّة، وضحكاتهم، وأناشيدهم الجذلى.

ولم تكن فرحة الأخت لتكتمل لو لم تتذوّق نساء الزبّالين، أيضًا، طعم هذا "الرفاه". وفي سبيل ذلك، كان عليها أن تشنّ حملة إقناعٍ شاقّةً مع أزواجهنّ. فوعدت كلًّا منهم بمنحه فرصة تذوّق ذلك الرفاه، ولكن بعد أن تنعم به زوجته. والتزمت ببقائها ملتصقةً بنساء الزبّالين، وألّا تبتعد عنهنّ قيد شعرةٍ. وأخيرًا، أفلحت في اقتياد نحو عشرين منهنّ. وقد اعترفنَ، جميعهنّ بأنّ اليوم الذي قضينَه على ضفاف البحيرة كان أسعد أيّام حياتهنّ.

وسرعان ما تبيّن ضيق "بيت السعادة"، واستقرّ تطلّع الأخت إمّانُوِيل، ومعاونتها الأخت سارة على رقعة أرضٍ ممتدّةٍ إلى يمين البيت، وضرورة امتلاكها قبل أن يشتريها آخرون، ويحوّلوها إلى مقهًى، أو بيت تسليةٍ ومجونٍ، يفسد جوّ "بيت السعادة". وفي هذه المرّة أيضًا، تيسّر أمر شراء الأرض، بفضل وصول كاهنٍ فرنسيٍّ مع فريق كشّافٍ، قدّروا، أثمن تقديرٍ، ما تفعله الأخت إمّانُوِيل من أجل الزبّالين وأبنائهم. وفي الحال شنّ الكاهن حملةً لدى أبناء رعيّته من أجل جمع المال اللازم لشراء الأرض قبل فوات الأوان. وساهم متبرّعون نمساويّون في بناء بيتٍ جديدٍ، رحبٍ، يستضيف، كلّ أُسبوعٍ، بين شهر نوّار (الخامس من السنة) وشهر أيلول من كلّ سنةٍ، خمسين فردًا من أُسَر الزبّالين، آباءً، وأمّهاتٍ، وأولادًا.

في هذا السياق تقول الأخت إمّانُوِيل:

«كلّما دعاني أصدقاء أوروبيّون إلى قضاء عطلتي الصيفيّة معهم، أضحك ساخرةً من دعوتهم. فأنّى لي أن أريح أعصابي المتعبة، وأستعيد شيئًا من شبابي، أكثر من أن ألهو لهوًا جنونيًّا، مع أبناء زبّالي القاهرة، في مياه البحيرة.

"إنّي كلّما غطست في الماء، أرفع أنظاري إلى السماء متمتمةً: "أبانا الذي في السماوات، ليتقدّس اسمك". أوليست مساعدة الأسرة البشريّة على التنعّم بفتنة الخليقة، ضربًا من تقديس اسم الآب السماويّ؟

"إنّ "دار السعادة"، هي إنجاز الحبّ الأخير لي، وهي تذوّقٌ مسبَّقٌ للسماء. فهنا، لا بكاءٌ، ولا صراخٌ، بل سلامٌ وفرحٌ، فقط. وهنا الجميع متّحدون أخويًّا، مسلمون ومسيحيّون، والجميع ينشدون متحابّين».

لقد أصدرت الأخت إمّانُوِيل، في أيّامها الأخيرة كتابًا بعنوان "أنا أسعد امرأةٍ في العالم". وحقّ لها أن تدلي بهذا القول، فهل من سعادةٍ أكبر من إسعاد من لم يعهدوا، قطّ، للسعادة طعمًا؟

الأخت سارة

منذ عام ١٩٧٥، أصبحت الأخت سارة، القبطيّة المعاونة الملازمة والثمينة للأخت إمّانُويل. لقاؤهما الأوّل حدث لمّا قصدت الأخت إمّانُويل دير راهباتٍ قبطيّاتٍ في بني سويف، بُغية التمكّن من تعلّم اللغة العربيّة. فوجدت راهبةً راكعةً تغسل درج الدير، وطلبت مقابلة رئيسة الدير، فردّت الراهبة التي كانت تغسل الدرج، ببسمةٍ عريضةٍ، وبلغةٍ فرنسيّةٍ أنيقةٍ:

– أنا الرئيسة، ويسرّني أن أرحّب بكِ.

كان أسقف رعيّة بني سويف القبطيّ، أثناسيوس، قد أسّس دير "بنات مريم"، متخطّيًا تقاليد الأديرة القبطيّة التي تفرض على الراهبات المكوث، حبيساتٍ، في ديرهنّ، وتحظر عليهنّ التجوّل في الشوارع لأيّ داعٍ. ولكنّ الأسقف أثناسيوس كان منفتح الذهن والقلب، وبعيد الرؤية، فأسّس رهبانيّةً تطوف راهباتها الشوارع، من أجل مساعدة المعوزين والمرضى.

في البدء أثار ظهور الراهبات في الشوارع استنكار أبناء الرعيّة ومعارضتهم، ولطالما سمعنَ شتائم، ودعواتٍ إلى الخجل، والانزواء في ديورهنّ، قبل أن تتبيّن جدوى رسالتهنّ، وتقبّل الناس لها.

ثمّ قامت الأخت سارة بزيارة قرى الصفيح، وتبيّنت مساعي الأخت إمّانُويل في سبيل الترقّي بأوضاع الزبّالين وأبنائهم، وأسَرَها منظر البؤس، متعدّد الوجوه، الذي يعانيه الزبّالون وأُسرُهم، فلم تَعدْ تطيق البعاد عنهم، وانضمّت إلى الأخت إمّانُويل، وأضحت لها الذراع اليمنى، ورفيقة النضال. ثمّ أمست خليفتها، وتولّت متابعة مشاريعها، وجهودها من أجل تحويل بُؤر البؤس، إلى أماكن أشدّ لياقةً بأبناء الله.

وسرعان ما اتّضحت للأخت إمّانُوِيل جزالة جدوى وجود الأخت سارة إلى جانبها. ففضلًا عن تفانيها في الخدمة، وتجرّدها، وحيويّتها، وذكائها، كانت ابنة البلد، والخبيرة بكثيرٍ ممّا كانت الأخت إمّانُوِيل لا تحيط به، بشأن عقليّة المصريّين، وتقاليدهم، فأنقذتها من مزالق عديدةٍ، وكانت لها خير داعمٍ، وناصحٍ، ومدافعٍ، وحليفٍ.

واكتمل فرحُ الأخت إمّانُوِيل بموافقة الأسقف أثناسيوس، على التحاق رئيسة الرهبنة التي أسّسها براهبةٍ كاثوليكيّةٍ. لا بل إنّه، تقديرًا لعملهما الرائع، ودعمًا له، زوّدهما، تدريجيًّا، على وتيرة اتّساع مشاريعهنّ الإنسانيّة، بعشرين راهبةً أخرياتٍ، كان قد أعدّهنّ كي يكنّ ممرّضاتٍ، ومعلّماتٍ، ومساعداتٍ اجتماعيّاتٍ.

هذا التعاون كان، في الواقع، عاملًا على تقارب الكنيستَيْن القبطيّة والكاثوليكيّة، تقاربٍ تابعه البطريرك شنودا مع روما، وشجّعه بشدّةٍ الأسقف اللاتينيّ في القاهرة.

وكان تبادل الزيارات بين الطائفتَيْن يُغنيهما معًا. وجديرٌ بالتنويه أنّ الأخت إمّانُوِيل كانت تُعجَب، على نحوٍ خاصٍّ، بالأصوام التي يلتزم بها الأقباط بمناسبة الأعياد الكبرى.

وجوهٌ مشرقةٌ في قرى الصفيح

السنوات الثلاث والعشرون التي قضتها الأخت إمّانُوِيل في قرى الصفيح أظهرت لها أنّ إخوتها وأخواتها الزبّالين يقرنون كلّ المتناقضات. قسوةً وحشيّةً ورقّةً عذبةً، سرقةً وسخاءً، مجونًا ووفاءً، سلوكًا شائنًا وإيمانًا.

وقد انحفرت في ذاكرة الأخت وجوهٌ مؤثّرةٌ لا يمكن محو ملامحها.

الوجه الأوّل، كان وجه لبيب، الذي كان دليلًا لها منذ مجيئها إلى قرى الصفيح، ورفيق الدرب، والحارس في تلك المطارح الموبوءة. فلبيب هو الذي قدّم لها كوخًا تسكنه، وكان لها المرشد في الزواريب الخطيرة.

قبل مجيئها، كان لبيب من ملازمي الحانات، يُسرف في تجرّع الكحول الرخيصة، فيسكر، ويوسع زوجته ضربًا وتعنيفًا، ولا يسلم أبناؤه، عادةً، من ضرباته وعنفه. غير أنّ الثقة التي أولتها إيّاه الأخت إمّانُوِيل، حوّلته تحوّلًا جوهريًّا، وجعلت منه أوفى صديقٍ وأرقّه. فعزف عن ارتياد الحانات، وعن معاقرة الكحول، ودأب على اقتياد الأخت منذ الصباح، حتّى المساء إلى مواقع البؤس، التي تستلزم غوثًا، متحدّيًا، غالبًا، أوجاع ساقه المؤلمة. وكان لها المعين على إرسال مئات الأطفال إلى المدارس، وعلى حلّ العديد من الخلافات، وعلى إشاعة السلام في أُسرٍ محطّمةٍ، وعلى تنظيم رحلاتٍ ترفيهيّةٍ للزبّالين البائسين وأسرهم. ومع آلام ساقه كان، دائمًا، أوّل القادمين إلى العمل، وكان رائدًا في رفع مستوى رفاقه في البؤس، بدءًا برفع مستوى أسرته وأبنائه.

وكم من روائع لدى آخرين! منهم النجّار المسلم زكريّا الذي كان يوصَم بتهمة الطمع والسرقة. ومع ذلك، كلّفته الأخت إمّانُوِيل بإعداد بابٍ لمخزنٍ وُهِبَتْه من أجل

إيداع معدّات روضة أطفالٍ، وجاء زكريّا، بالباب، وقد زيّنه بصليبٍ وهلالٍ متعانقَيْن، وعبارة "الله محبّةٌ" تحتهما. هذا المنظر جعل الأخت ترقص فرحًا، وأثلج فرحُها قلبَ زكريّا.

وما القول في شنودا ابن السنوات العشر، الذي كان يرافق الزبّالين لجمع نفايات المدينة، ويتألّم من قذف سكّان البنايات للزبّالين للنفايات بازدراءٍ، وكان، من ثمّ، دائمًا، متجهّم الوجه، تنمّ ملامحه عن الحقد والغضب المكبوت. ولمّا أقامت الأخت إمّانُوِيل بين ذويه، انفرجت أساريره، ورفع هامته، بثقةٍ وكبرياءَ، وأطلع أبناء المدينة على البشرى السعيدة: "لقد صار لنا أختٌ راهبةٌ تخصّنا، وتحيا معنا". لقد خلع عن ظهره ثوب الخجل والعار والدناءة، وانتشى باستعادة كرامته، والثقة بكونه إنسانًا يستحقّ الاحترام... وغدا ينشد جذلًا وثقة نفسٍ.

رجال الأمن

أكثر من كان يخشاهم الزبّالون هم رجال الشرطة، وأكثر من كان يخشاهم رجال الشرطة هم الزبّالون الذين يسارعون إلى امتشاق سكاكينهم للطعن. فكان كلٌّ من الطرفين يتّقي الآخر. ولكنّ رجال أمنٍ استغلّوا، ذات يوم أحدٍ، وجود الأخت خارج قرية الصفيح، إذ إنّها اعتادت قضاء ذلك اليوم في مركز جمعيّتها. واستجوبوا عددًا من جامعي النفايات المسلمين عن حقيقة تلك الراهبة، موحين بأنّها قد تكون جاسوسةً إسرائيليّةً. واستنكر جامعو النفايات هذا الاتّهام، ولم يخشوا الردّ ببسالةٍ، بل حتّى بشيءٍ من العدائيّة: "أختنا، جاسوسةٌ؟! يا للحماقة. إنّها لا تهتمّ إلّا بأطفالنا وبمرضانا. اعتقلوا أيًّا منّا، ولكن إيّاكم والمسّ بأختنا، فهي الشخص الوحيد الذي يحبّنا ويحترمنا كما نحن".

وسارع رجال الأمن إلى العودة من حيث أتوا. وكان الزبّالون قد برهنوا عن شهامةٍ وبسالةٍ نادرتَيْن، وتأهّبًا للإقامة في السجن حمايةً لأختهم.

الثأر

الثأر في صعيد مصر قضيّة شرفٍ، وتنفيذٌ لشريعة العين بالعين، والموت بالموت.

كان يحيى، المسلم، ابن الستّ عشرة سنةً، و"بخيت" المسيحيّ ابن السبع عشرة، صديقَيْن حميمَيْن، ينطلقان، منذ الفجر، إلى العمل يدًا بيدٍ، وفي المساء يتناولان عشاءهما معًا. وكانا يجتهدان، معًا، في دروس محو الأمّيّة، ويسعدان بتشجيع الأخت لهما. ومساءَ أحد أيّام السبت، إذ كانت الأخت في مركز جمعيّتها، قامرا معًا، وربح "بخيت" جنيْهَين، فاستشاط يحيى غيظًا، وطالبه بإعادة ما خسره له، فرفض، وسرعان ما التمعَت مديةٌ، ووقع "بخيت" قتيلًا، واقتيد يحيى إلى السجن.

ولمّا عادت الأخت إمّانُوِيل، صباح الإثنين، إلى قرية الصفيح، أُطلِعت على المأساة، فهرعت إلى زكّا، والد "بخيت" فإذ به عاكفٌ على جمع مئة ألف جنيهٍ من أفراد أسرته من أجل إخراج يحيى من السجن. للوهلة الأولى ذُهِلت، وتساءلت: "هل تريدون إطلاق سراح قاتل ابنكم؟". فسخروا من سذاجتها، موضحين، "بل سنرشي حارس السجن، كي يسهّل له سبيل الفرار، ويكونون هم بانتظاره كي يقتلوه، ويؤدّوا واجب الانتقام. فارتعدت الأخت خوفًا، وثارت استنكارًا، وسألتهم: "ألستم مسيحيّين؟"

– بالتأكيد.

– أَوَلم يسامح يسوع قاتليه؟ أَوَلم تكن كلمته الأخيرة على الصليب "اغفر لهم، يا أبتِ؟". وساد صمتٌ، ودعتهم إلى الصلاة معًا، فتلوا، جميعهم: "أبانا الذي في السماوات... اغفر لنا كما نحن نغفر..."

وحينئذٍ، التفت زكّا نحو الأخت، وأعلن: "نحن مسيحيّون، ولن نقتل يحيى".
واستعاد كلٌّ من أفراد الأسرة ما أسهم به من أجل الاثّئار.

بسيط القاتل

يُطلق على "بسيط" لقب "القاتل". ويرهبه جميع سكّان القرية. فقد سبق له أن قتل مصارعَيْن، وكاد يقضي على الثالث. ولكنّ قضايا القتال والعراك لا تهمّ الأخت إمّانُوِيل، فبسيط هو لها أخٌ فحسب. وغالبًا، ما تجلس قرب كوخه، فيتجاذبان الأحاديث، ويحتسيان الشاي معًا. وهو يحدّثها عن أبنائه وأحفاده، ودراستهم، وعن حفيده المعاق، ويبوح لها بأسرارٍ لا يبوح بها المرء إلّا لأخته، لأنّ الأخت لا تخون أخاها. ويحيطها، دائمًا، برقّةٍ مؤثّرةٍ، ويسارع إلى تقديم خدماته لها، فيعيرها سيّارته من أجل نقل بعض الموادّ والأمتعة، ويكلّف أبناءه بمساعدتها، وعندما تأتي كي تشكره، مساءً، يقابلها بأرقّ ترحيبٍ، فتتساءل الأخت: "هل هو، حقًّا، القاتل الذي يبعث الرعب في القلوب؟".

بسيط يفخر بصداقة الأخت إمّانُوِيل، وباحترامها له. إنّه النموذج الأمثل لتأثير احترام الآخرين، الذي يعيد المرء إلى جوهر الخير الكامن في ذاته. ومذ عرف بسيط الأخت إمّانُوِيل، لم يقتل أحدًا.

أمّ شعبان

أمّ شعبان هي الجارة التي تسكن مقابل كوخ الأخت إمّانُوِيل. وهي، بالتالي، صديقةٌ حميمةٌ لها. ومع ذلك، تحذر الأخت منها، فيدها طويلةٌ، وتنهب بسرعةٍ وبراعةٍ كلّ ما يقع تحت يدها. وإذا تشاجرت، فهي بطلة خمشٍ، وعضٍّ، وتمزيقٍ. ولكن كم من كنوز سخاءٍ تكمن في داخلها. فذات ليلةٍ من شهر آب، شديدة القيظ، عادت الأخت إلى كوخها، في ساعةٍ متأخّرةٍ، من زيارةِ المرضى، وشاركتهنّ سهرة صلاةٍ، وإذ لا نقطة ماءٍ في جرّتها، ولا كسرة خبزٍ في مائدتها. وشاهدت مصباح كوخ أمّ شعبان مضاءً، فتجرّأت، وقرعت بابها، والتمست منها جرعة ماءٍ، وكسرة خبزٍ. ولكنّ أمّ شعبان، رغم اعتراض الأخت إمّانُوِيل، جادت لها بكلّ ما لديها من ماءٍ ومن خبزٍ، مع أنّ كلّ قطرة ماءٍ، في ذلك القيظ الخانق، كانت تساوي أكثر من ثقلها ذهبًا. أمّا الخبز، فستضطرّ أمّ شعبان غدًا السير ساعاتٍ تحت هجيرٍ حارقٍ، كي تبتاع بديلًا عمّا أعطتها إيّاه، أو قضاء ساعاتٍ في إعداد العجين، وخبزه في تنّورها.

كم أنت سخيّةٌ، يا أمّ شعبان، فعندما تَلقَين محتاجًا لا تتورّعين عن منحه كلّ ما تملكينه!

تقيّ

على مقربةٍ من كوخ أمّ شعبان، يسكن تقيّ المسيحيّ، الذي طالما اشتُهر بإدمانه على معاقرة خمرةٍ مغشوشةٍ رخيصةٍ، تفقده رشدَه، وتضعه في حالة سكرٍ وخيمةٍ، وتجعله متأهّبًا لقتل من يصادفه. ولطالما أوسع زوجته ضربًا، حتّى تكاد تقضي نحبها.

ولكن، منذ بُنيت كنيسةٌ في الحيّ، وتولّى كاهنٌ خدمة المؤمنين، سلك تقيّ طريق الارتداد والصلاح، حتّى أمسى للكاهن الذراع اليمنى. وذات ليلةٍ، دعا الأخت إمّانُوِيل إلى سهرة صلاةٍ، في معبدٍ جدرانه من تنك، وأرضيّته من ترابٍ، وسقفه سعف نخيلٍ، يسرّب بضعة أشعّة قمرٍ. فتيل مصباح المعبد ينازع، والجرذان تسرح فوق أقدام المصلّين، والخنازير تنخر عند الباب.

إثر إنشاد الترتيل بأصواتٍ جهيرةٍ، نهض تقيّ، مطأطئ الرأس، منخفض الكتفَيْن، متهدّل القامة، وهتف: "يا ربّ، أنا خاطئ!"، وردّد هذا الهتاف مرّاتٍ عديدةً. وبعد برهة صمتٍ، رفع رأسه، واستقام جسده، ورفع نظره إلى السماء، وهتف: "يا ربّ ارحم"، وقد طبع الفرحُ هتافَه. فقد كان يسكنه شعورٌ عذبٌ بأنّه يخاطب أبًا يُصغي إليه. وجلس، باشّ الأسارير، وعلى محيّاه يخيّم السلام.

وكان تقيّ قد أقلع عن ضرب زوجته، وأصبح صديق الجميع، ومسارعًا إلى غوث كلّ محتاجٍ.

لقد علّمنا تقيّ أجمل صلاةٍ: "يا ربّ، أنا خاطئ"، "يا ربّ ارحمنا".

فوزيّة البطلة

فوزيّة جارةٌ للأخت إمّانُوِيل، وقد ربطهما هذا الجوار بعلاقة صداقةٍ وثيقةٍ. يتّصف مسكن فوزيّة بقذارةٍ منفّرةٍ. وكلّما دخلته الأخت تأخذ مكنسةً وتشرع في تنظيفه. ولكنّ فوزيّة تسارع إلى انتزاع المكنسة من يد الأخت.

لقد أنهكت فوزيّة ولاداتٌ متتاليةٌ، بلا توقُّفٍ، ووفاةُ معظم مواليدها. قد تدفع الحاجة فوزيّة إلى سرقة بضعة قروشٍ من غرفة الأخت، ولكنّها، بالمقابل، لا تضنّ عليها بالصابونة الوحيدة التي تملكها من أجل مساعدتها على غسل أطفال القرية، ولطالما اقتسمت معها أوَدَها من طبق الفول.

زوجها خيري كان يعامل أبناءه برقّةٍ فائقةٍ، ولكنّه يعامل زوجته بوحشيّةٍ مريعةٍ. وفي صباح يوم إثنين وجدتها الأخت مكفهرّة الوجه، دامية العينين، ملقاةً على الحضيض. وبعد لأيٍ أخبرتها أنّ زوجها، بعد أن أوسعها ضربًا وركلًا، ألقاها على بابٍ مصنوعٍ من معدنٍ عتيقٍ، قاطع النتوءات. فاستشاطت الأخت غيظًا، وقالت لها: "لا يمكن أن تستمرّ هذه الحال. خذي أولادك، ولنمضِ على بيت والديكِ!". ولكنّ فوزيّة رفضت رفضًا قاطعًا، ومن خلال الدم المنثال من عينيها ألقت نظرة عطفٍ على أولادها الأربعة، قائلة: "إنّهم يعبدون والدهم، وسيتألّمون بعيدًا عنه"، وأردفت: "عليّ أنا أن أتألّم، لا أن يتألّموا هم". وانحنت على وليدتها الأخيرة تيريز، وأخذتها بين ذراعيها، وهدهدتها بحنانٍ، وغمر السلام قلبها، وأشعّ وجهها المتورّم. فقالت لها الأخت إمّانُوِيل: "أنت بطلةٌ يا فوزيّة".

ولكن، بدا أنّ فوزيّة لم تفهم سبب هذا الثناء، فقد كانت تؤمن أنّه من الطبيعيّ أن تتألّم هي، كي لا يتألّم أحدٌ من أبنائها، فهم علّة وجودها، ونبع فرحها وسكينتها.

فهل لكثيرين منّا استعدادٌ للتألّم، كي يسعد آخرون، على غرار فوزيّة؟

وفي ليلةٍ شتويّةٍ، إذ كانت الأخت تصلّي في كوخها، ترامت إلى مسامعها تراتيل رتيبةٌ، تعلو، لحظاتٍ، ثمّ تخفت، فشقّت باب كوخها، ورأت باب كوخ فوزيّة مفتوحًا، وهي، مع أولادها قابعون أرضًا، يُنصتون إلى زوجها خيري الذي يرتّل آياتٍ من الإنجيل، وهم يردّدون أقواله، كما يسمعونها منه. وشاهدت الأخت وجه فوزيّة يطفح فرحًا، وهي ترضع صغيرتها، وترنو بعطفٍ إلى بكرها جرجس، وتحلم برؤية أبنائها ناعمين بمستقبلٍ أفضل، بعد أن شاهدت ما يحدث في القرية من تعليمٍ وعنايةٍ بالصحّة. كانت ألهِبَة الموقد تعكس على وجنتَيْها نورًا سماويًّا، وعيناها تسكبان دموع رجاءٍ.

وتردّد في ذهنها قول يسوع: "أحمدك، أيّها الآب، ربّ السماء والأرض، لأنّك حجبت ذلك عن الحكماء، وأهل الذكاء، وكشفته للأطفال. أحمدك لأنّه هكذا حَسُن لديك".

وتلقائيًّا تصاعد من أعماق قلب الأخت هذا الابتهال: "يا ربّ، بحقّ فوزيّة، وجميع الصغار، هبني قلب طفلٍ".

أمّ صباح: الحبّ أقوى من الموت

في قرية الصفيح الثانية التي أقامت فيها الأخت إمّانُوِيل، كان كوخ أمّ صباح، على بعد خطواتٍ من المستوصف الذي استحدثته الأختان إمّانُوِيل وسارة.

كان مسكنها يتميّز بقذارةٍ فريدةٍ، تفوق كلّ تصوُّرٍ، فعلى واجهته المصنوعة من الصفيح تمتدّ لوثةٌ صفراء اللون، ناتجةٌ عن روث الجاموسة الرابضة أمام بيتها. ولكن لم يخطر ببالها، يومًا، إزالتها.

ومع أن طبيبةً كانت تزور القرية بانتظامٍ، وتعاين النساء الحوامل، لم تطلب، أمّ صباح، معاينتها، يومًا.

وذات يومٍ، وجدتها الأخت في الحارة، لاهثةً، فعادت بها إلى بيتها، وساعدتها على الاستلقاء في فراشها الأسود، فيما كانت هي، تبحث عن مكانٍ تضع قدميها فيه. واستدعت الدكتور عادل، فشخّص حالها. وحدّث الأخت بالفرنسيّة، لكي لا يُثير رعبَ أمّ صباح، وبلّغها أنّ قلبها يعاني ضعفًا مخيفًا، وهي حاملٌ منذ أشهر، ولن تتحمّل أتعاب الوضع التي ستقضي، في الأرجح، على حياتها، فلا بدّ من إجهاضها الفوريّ، حفاظًا على حياتها.

أوضحت الأخت إمّانُوِيل لأمّ صباح، حقيقة حالتها وخطرها، واقترحت استدعاء زوجها، كي يتشاورا على انفرادٍ. ولكنّ قرار أمّ صباح كان جاهزًا، قاطعًا، وأعلنته بحزمٍ: "لن أقتل ابني".

وذكّرتها الأخت إمّانُوِيل بأنّها تخاطر بحياتها، وبأنّها قد تموت أثناء وضعها، ولكنّ الموت لم يُخِفها، وأكّدت: "حياتي وموتي هما في يد الله". وداعبت بطنها برقّةٍ، فاستنار

وجهها بالسكينة والحنان، ولم تكن لها رغبةٌ إلّا في أن تهب جنينها الحياة، ولو كان الثمن حياتها.

لا ريب أنّ هذه الغريزة الأموميّة، نادرة المثيل، في أوروبا. ومنذئذٍ، شرعت الأختان إمّانُوِيل وسارة تعدّان لها كلّ يومٍ، طعامًا صحّيًّا متينًا، وكافيًا يمدّها بالقوة والمنعة. وفي شهر حملها الأخير، أودعتاها في المستشفى القبطيّ. وليلة وضعها خاف الطبيب الشابّ المناوب، مواجهة الوضع العصيب بمفرده، وأن تفقد المرأة حياتها بين يديه، فقد كان متأكّدًا من عجز قلبها عن تحمّل أتعاب الوضع، وألحّ في طلب نقلها إلى مشفًى آخر. ولكن لم يكن، في الوقت متّسعٌ. وأُنزلت ثلاث مرّاتٍ إلى قاعة التوليد، ثمّ عادت إلى سريرها، بسبب عدم أزوف الأوان، ولكن أثناء العودة بها إلى سريرها، في المرّة الثالثة، وضعت، بلا مساعدة أحدٍ، داخل المصعد.

وزارتها، صباح اليوم التالي الأختان إمّانُوِيل وسارة، فوجدتاها مُشرقةً، طافحةً فرحًا، ضامّةً إلى صدرها كتلة حياةٍ زهريّةً، دافئةً.

وكرّت ثلاث سنوات، قبل رحيلها الأبديّ، وهي ترمق بحنانٍ، ابنها يوسف، متطلّعةً إلى السماء، شاكرةً.

لقد كان حبّها أقوى من الموت.

أجمل عيد ميلادٍ في قرى الصفيح

عندما قدمت الأخت إمّانُوِيل إلى قرى الصفيح، كان جامعو النفايات المسيحيّون محتفظين بإيمانٍ حيٍّ راسخٍ، ولكن بمنأًى عن أيّة علاقةٍ بالكنيسة القبطيّة. فكانوا يتهيّبون وطء الكنيسة، خشيةَ التعرّض لازدراء أبناء الرعيّة، بسبب قذارتهم، ورثاثة ثيابهم.

فقامت الأخت إمّانُوِيل بزيارة البطريرك شنودا، وحدّثته عن قطيعه المحروم من راعٍ، ورجته إرسال كاهنٍ إلى قرية جامعي النفايات. واستقبلها البطريرك بمودّةٍ، وسارع إلى تحقيق رغبتها. ومنذئذٍ، نشأت صداقةٌ وثيقةٌ بينهما.

وبمناسبة عيد الميلاد أعار جامع نفاياتٍ إخوانه كوخه وفناء بيته، الذي كان قد نظّفه تنظيفًا محكمًا، مع أنّه لم يستطع تحريره من رواسب روائح كريهةٍ. وأنار المكان بمصباح غازٍ، وغطّى طاولةً عرجاء بشرشف، وجمع مقاعد من كلّ طرازٍ ولونٍ، وأحضر حمارًا وجاموسةً تمثّل بقرةً، وجهد في كتم نهيق الحمار، ونخير الخنازير.

وحضر راهبٌ قبطيٌّ مسنٌّ، وبدا مرتاحًا للمكان، وفي عظته قال: "لو كان على يسوع أن يولد اليوم، لاختار مهده بينكم، فالفقر هو مسكنه، والرعاة هم إخوته. افرحوا فقد زارت السماء قريتكم".

وأُشعِلت مئات الشموع، والتمعت وجوه جامعات النفايات وعيونهنّ، وانطلقت حناجرهنّ بأناشيد جذلى، تكرّر" "قدّوسٌ، قدّوسٌ، قدّوسٌ". وأضفت أضواء الشموع على شيخوختهنّ المبكّرة أشعة جمالٍ سماويٍّ.

ذلك المزيج المذهل من بؤسٍ وعظمةٍ، ساعد الأخت إمّانُوِيل على اكتشاف القِيَم الحقّة، وعلى إعادة قراءة الإنجيل، وعلى التوغّل في سراديب نفسها.

وتذكّرت أنّ يسوع لم يتورّع عن مشاركة مائدة العشّار زكّا، وعن احترام فتاةٍ مغرقةٍ في الدعارة تدعى مريم المجدليّة، وتحويلها تحوّلًا جذريًّا، وحال دون رجم امرأةٍ زانيةٍ، مذكّرًا طالبي رجمها بخطاياهم الخفيّة. وبالإجمال، أعلن إيثاره لمن يعدّهم المجتمع الزائف حثالته.

واتّضح للأخت إمّانُوِيل أنّ جامعي النفايات البائسين لا يموّهون وجوههم بأقنعةٍ كاذبةٍ، ولا يخجلون من إظهار حقيقتهم، وأنّ حسبَهم أن يُشعرهم أحدٌ بحبٍّ صادقٍ، وباحترامٍ حقيقيٍّ، كي تتجلّى كنوز نفوسهم.

وهذا ما أكّده لها دليلها لبيب الذي صارحها: "منذ قدمتِ إلينا انقلبت حياتنا، وقلّت حوادث السكر والعراك، وتنامت مبادرات التضامن والإخاء، وتحرّرت نساؤنا من خجل الذهاب إلى الكنيسة". وتساءلت الأخت لو هي وُلدت في قرية صفيحٍ، من أسرة جامعي نفاياتٍ، هل استطاعت أن تكون سيّدةً محترمةً، وفاعلة خيرٍ؟

ولكنّها ظلّت مؤمنةً بعجزها عن مضاهاة عظمة "أولئك البائسين الذين يحملون عبء بؤسهم بسكينة نفسٍ، وحتّى بفرحٍ"، وارتضت أن تكون لهم تلميذةً.

تقييم الأخت إمّانوُيل لسنوات إقامتها بين جامعي النفايات

«أتذكّر دخولي الأوّل إلى قرية الصفيح.

ما رأيتُه، آنذاك، لستُ أذكر أنّني رأيتُ له شبيهًا من قبلُ. في دروبٍ ضيّقةٍ كانت قد تكدّست نفايات أحياء القاهرة الراقية، التي يأتي بها الزبّالون، في عرباتٍ صغيرةٍ، ويرمونها في الطرقات الضيّقة وسط الخنازير، من أجل فرزها. كانت القذارة وروائحها مقرفةً، وكان الأولاد يبحثون في النفايات عمّا يأكلونه.

حينئذٍ، شعرتُ أنّني أغِصُّ. لا أجد تعبيرًا آخر. كنتُ قد بلغتُ، من عمر اثنتين وسبعين سنةً، وكان بوسعي أن أتقاعد، وأقضي بقيّة عمري برفاهٍ، في فرنسا.

ولكن غصّتي لألم الآخرين جذبتني إليهم، وغيّرت مجرى حياتي وملأتها رضًى وسعادةً.

إنّ الاثنتين وعشرين سنةً التي أنفقتها هناك، وسط ظروفٍ مادّيّةٍ عصيبة تبقى السنوات الأسطع نورًا، وتألّقًا في حياتي، بل يحقّ لي أن أقول: كانت الأوفر فيضًا بالفرح.

ولم أتوفّق إلى تذليل صعوبات أصدقائي، جامعي النفايات، التي لا تُحصى، ولكنّي تعاطفتُ معهم، وشاركتُهم آلامهم وأفراحهم. كنتُ لهم "الأبلة"، الأخت الكبرى، أحببتُهم، وترافق حبّي الأخويّ البشريّ بحبّ الله لهم.

كنت أتغذّى بعلاقةٍ عموديّةٍ مع الله، نبع الحبّ الأعظم، والقوّة، والاندفاع، وقد تقاطعت هذه المحبّة مع محبّتي الأفقيّة لإخوتي وأخواتي.

هذه العلاقة المزدوجة، كانت نبع فرحٍ هائلٍ، منعشٍ، ونابضٍ حياةً. مع أنّي، لمّا بدأتُ تلك الحياة كنت في "الثانية والسبعين من عمري، وقد طعنتُ في السنّ.

لا شكّ أنّه ليس مريحًا أن يفتقر المرء إلى الماء. وقد كابدتُ القيظ، وتحمّل القمل والجرذان، والصراصير، في كوخٍ من تنكٍ.

غير أنّي تمكّنتُ من أن أظلّ سعيدةً، وأن أطفح فرحًا بتخطّي هذه القسوة المادّيّة، بمجرّد نظرةٍ رقيقةٍ، وبسمةٍ، والشدّ على أيدٍ، وتقبيل أطفالٍ، وتقبّل قبلاتٍ لا يكفي لها خدّان. وأنا لم يكن لديّ عددٌ كافٍ من الخدود وفي الآن عينه، كنتُ سعيدةً.

إنّكم لمدهشون أيّها الشبّان عندما تحفّزكم مثلٌ عليا

الجُزءُ الثَّالِث

الأخت العالميّة

مسارح بؤسٍ عديدةٌ

عمليّات إنقاذٍ واسعة النطاق في السودان

لم يقتصر كفاح الأخت إمّانُوِيل على قرى صفيح القاهرة وعلى جامعي نفاياتها، بل هبّت إلى كلّ مسرح بؤسٍ، ساعيةً إلى تجفيف الدموع، وتخفيف الآلام، في كلّ مكانٍ.

فكانت لها جولاتٌ في السودان، وفي لبنان، وفي كلّ بلدٍ منكوبٍ، وكانت صرخة كلّ طفلٍ تلهب فيها نارًا، ولا سيّما أنّها خبرت في صغرها كارثة فقدان أبٍ حبيبٍ.

في شهر تشرين الثاني ١٩٨٥، تلقّت رسالةً من أصدقاء سودانيّين، كانت قد التقتهم في جنيف، يدعونها إلى الخرطوم، حيث يتهافت آلاف الهاربين من جحيم الحرب الرعناء في جنوب السودان، ومن الموت جوعًا.

حينئذٍ، كانت الأخت في غمرة محاولة تطوير أحوال جامعي نفايات القاهرة، وتساءلت بقلقٍ مُمِضٍّ، هل يجوز أن تشتّت قواها، وتهدر ما شرعت بتحقيقه في القاهرة، وفيما كانت تقلّب الرأي، حائرةً، وردها نداءٌ آخر مصحوبًا ببطاقة طائرةٍ: القاهرة/ الخرطوم، والعودة: الخرطوم/ القاهرة، وفي هذا النداء سمعت صوت الربّ ودعوته.

وفيما كانت تجتاز الجوّ، فوق الغيوم المتراكمة، لم يخطر لها ببالٍ أنّ نداءاتٍ أخرى ستجتذبها إلى مواقع أخرى من الكرة الأرضيّة.

منذ هبوطها من الطائرة صدمتها أنباء الاضطهادات الإجراميّة التي كان يشنّها إسلاميّو الجنوب الأصوليّون على جماعات "الأرواحيّين" (Animistes) والمسيحيّين، بقصد إكراههم على اعتناق الإسلام. وقد أدّت هذه الحرب إلى إشاعة المجاعة وموت الملايين، جوعًا. وتخطّت الحاجة إلى مقوّمات الحياة الأساسيّة، كلّ طاقات الكنيسة والجمعيّات الخيريّة، واضطرّ ألوف الجياع إلى النزوح.

وفي صباح اليوم التالي، هزّت كلّ أوتار كيان الأخت إمّانُوِيل رؤية أطفالٍ نصف عراةٍ، تحوّلوا هياكل عظميّةً، تتحرّك على سيقانٍ كالعيدان، والجوع يصرخ في عيونهم شديدة السواد. وكانت أمّهاتهم قد زوّدنَهم بما تبقّى لديهنّ من مؤونة الشوفان، وأرسلنَهم إلى الخرطوم، سيرًا على الأقدام، أو متعلّقين على أسقف القطارات إنقاذًا لهم من الموت جوعًا.

في الخرطوم كان أعضاء مؤسّسة "أبناء النيل"، ومعظمهم من أسرة "إبراهيمشا" يتفانون نهارًا وليلًا، كي ينقذوا الأولاد الجياع الوافدين، وإطعامهم، وإيوائهم، ونفثهم شيئًا من أملٍ في الحياة. ولكن أدهش الأخت أنّ مجلس إدارة تلك المؤسّسة كان يضمّ إيطاليّين وفرنسيّين، لكنْ لم يكن فيهم سودانيّون غير عائلة "إبراهيمشا". وكانت خبرتها في القاهرة قد علّمتها أنّ أبناء البلاد هم الأدرى بشعابها وتقاليدها وزواريبها ومزالقها، ولا بدّ منهم من أجل متابعة المشاريع المحلّيّة. وكانت قد قدّرت أثمن تقديرٍ، انضمام الأخت سارة القبطيّة إليها، وكم كانت لها عونًا ثمينًا في حلّ الكثير من القضايا المحلّيّة، واطمأنّت على تولّي خلافتها، وقدرتها على مواصلة مشاريعها بمعرفةٍ، وجدارةٍ. وتوفّقت إلى ردم هذا النقص الإداريّ، بعثورها، في الخرطوم، على مَن يمكن أن يكون شبيهًا بالأخت سارة، بالتقائها سودانيًّا شهمًا، كريم النفس، يُدعى "كمال تادروس"، الذي باح لها، منذ اللقاء الأوّل: "غالبًا، ما يجفوني النوم، وأنا أرى في الشوارع، مراهقين محرومين من كلّ شيءٍ، يبحثون عمّا يُبقيهم على قيد الحياة. وقد تدفعهم الحاجة إلى السرقة، والدعارة، وتوزيع المخدّرات. وفي هذه الأثناء أنعم أنا برفاه منزلٍ دافئٍ، مع زوجتي وابنتي، ولديّ حانوتٌ أبيع فيه كلّ أصناف الأدوات، وأستمدّ منه دخلًا كافيًا. فما عساني أستطيع فعله من أجل غوث هؤلاء الأولاد المنكوبين؟". فأقنعته الأخت إمّانُوِيل بتولّي إدارة مؤسّسة "أبناء النيل" براتبٍ أدنى ممّا كان حانوته يوفّر له من دخلٍ. وكانت لخبرته في دهاليز البلد، ولبراعته الإداريّة المقرونة بتفانٍ لامحدودٍ، جدوى فائقة،

وكان وجوده على رأس مؤسّسة "أبناء النيل" ضمانةً لاستمرار المؤسّسة، واستمرار فعلها، بعد رحيل الأجانب. وبذلك تَأَمَّنَ للأطفال والمراهقين المهجّرين الحصول على مأوًى وطعامٍ، وعنايةٍ.

كان عددهم يناهز السبعة آلافٍ، وأعمارهم تتراوح بين خمس سنواتٍ، واثنتي عشرة سنةً. الكبار منهم كانوا يسرقون ليلًا، ويتوارون نهارًا. أمّا الصغار فكانوا يتسكّعون في الشوارع، ويتعرّضون لأن يصيروا بذور لصوصٍ.

وبما أنّ الأخت إمّانُوِيل كانت قد امتهنت التعليم مدى أربعين سنةً، وخبرت تأثير التعليم على توجيه السلوك السويّ، فقد خطرت لها إقامة حديقة أطفالٍ، بمثابة الخطوة الأولى نحو تنمية طاقات الأطفال، وتعليمهم قواعد الحياة الاجتماعيّة السليمة: المشاركة، واحترام الآخر، والصداقة المجّانيّة.

وصارحت الأخت سيمونّ براهيمشا بضرورة فتح مدارس للأطفال. ولكنّ سيمونّ استهولت الأمر: فمن أين تأتي بالملايين لبناء مدارس لسبعة آلاف طالبٍ، فضلًا عن واجب إطعامهم يوميًّا؟

وحينئذٍ، اقترح كمال تادروس، وهو ابن البلد، بناء مدارس من قصبٍ، كلفتها زهيدةٌ، وهي تمتاز بسريان الهواء على نحوٍ أفضل من خلال القصب. وأكّد أنّ بيوت القصب هي مأوى الفقراء الطبيعيّ، وليس من العسير وجود متبرّعين لبناء تلك المدارس، بكلفةٍ زهيدةٍ.

وسرعان ما انقلب الاقتراح إلى واقعٍ. ولمّا عادت الأختان إمّانُوِيل وسارة إلى الخرطوم، كانت قد نهضت عشر مدارس من قصبٍ. واستدعى كمال تادروس وسيمونّ براهيمشا كلّ سودانيٍّ ملمٍّ بالكتابة والقراءة، إلى الانتظام في دورة تعليمٍ، لكي يتولّوا

التعليم. وأبدى السودانيّون الصغار رغبةً عارمةً في التعلّم، الذي رأوا فيه عوّامة نجاتهم الوحيدة. ولم يتحرّجوا من الجلوس جماعاتٍ من ستّين بل سبعين طالبًا في صفٍّ واحدٍ. ومع ذلك، كان صمتهم وإنصاتهم إلى المعلّمين، مدعاةً للعجب.

وفي هذه الأثناء كانت الطبّاخات الجالسات أرضًا، في فناء المدارس تُعْدِدْنَ لجميع أولئك الأولاد الجياع طعامًا قوامه الرئيس الفول والعدس والبصل. وكان أصدقاء الأخت إمّانُوِيل في أوروبا يتعهّدون بتمويل هذه الوجبات اليوميّة.

وعادت الأختان إمّانُوِيل وسارة إلى القاهرة مطمئنّتَيْن.

عادت الأخت إلى الخرطوم في شهر آذار ١٩٨٦، وصُدِمت لدى سماعها من الكاهن الذي كان يرأس مجلس الإدارة أنّ المؤونة والمال سينفذان في أوّل شهر نيسان، وتساءل الكاهن: كم عدد الأطفال الذين سيعودون، وكم منهم سيموتون جوعًا؟! وساد صمتٌ ثقيلٌ. وحدّقت جميع الأنظار إلى الأخت إمّانُوِيل. فلا مُنقذ سواها. فأعلنت: "غدًا سأطير إلى مركز جمعيّتي في باريس، وسأستنفر الصحافة، والتليفزيونات، والإذاعات، وسأناشد الجميع بواجب العدل، والمشاركة والمحبّة. إنّي أمقت كلمة الإحسان، إذ لا يحقّ لأحدٍ أن يملك كلّ شيءٍ، وأكثر من احتياجاته، ومع ذلك، يدع سبعة آلاف أخٍ وأختٍ صغارٍ، على حافّة الموت جوعًا.

وحالما هبطت من الطائرة أمسكت بالهاتف، وأطلقت ناقوس الخطر. وبما أنّ القضيّة كانت تتعلّق بأطفالٍ يواجهون الموت جوعًا، جاءت الاستجابة رائعةً. وفي غضون أيّامٍ معدوداتٍ، تكوّمت رُزَمٌ بريديّةٌ، وظروفٌ زاخرةٌ بالشيكّات الدسمة والحوالات، حتّى سدّت أدراج الجمعيّة. وانبرى فريقٌ من المتطوّعين فأفرغوا الرزم والظروف، وهرعوا إلى المصارف، فصرفوا الشيكات والحوالات وأرسلوها أموالًا سائلةً إلى الخرطوم. حيث

تحوّلت طعامًا أنقذ من الموت، آلاف الفتيان والأطفال. واتّضح أنّ آبار العطف لم تجفّ، وأنّ قلوبًا سخيّةً ما زالت تجود بعطائها المنعش، وتذكّرت الأخت بركان السخاء الذي فجّره الأب پيير، عام ١٩٥٤.

ولمّا عادت الأخت إمّانُوِيل والأخت سارة في شهر أيلول، تراكض نحوهما أولئك الصغار الذين غادرتاهم في شهر نيسان في حالةٍ تدعو إلى الرثاء، وإذ بهم ضاحكون، فرحون، مزهوّون بمحافظهم المدرسيّة المملوءة كتبًا ودفاتر، أروهما إيّاها باعتزازٍ. ولكم سُرّت الأختان برؤية خدود أولئك الأولاد التي كانت غائرةً، وقد امتلأت، واستدارت، وأزهرت، وأرجلهم النحيفة وقد انتفخت عضلًا وعصبًا، وقوّةً على الجري. وبفضل دورات دراسةٍ مسائيّةٍ مكثّفةٍ، استطاع جميع الأولاد عبور الامتحانات بنجاحٍ، وتأهّلوا لمتابعة دروسهم.

تعهّد أصدقاء الأخت إمّانُوِيل في جنيف وبروكسيل، بتغطية نفقات أولئك الأطفال السودانيّين الذين كانت أعدادهم تتكاثر باطّرادٍ، وشرع المشرفون عليهم يعدّون لهم منازل، يضمّ كلٌّ منها خمسة عشر فتًى تتراوح أعمارهم بين ستّ سنواتٍ، واثنتي عشرة سنةً.

كان العديد منهم قد شهدوا قتل والديهم، وحرق بيوتهم، وتاهوا في الغابات، وغالبًا، ما اصطادهم نخّاسون وباعوهم لوحوشٍ بشريّةٍ، أوسعوهم اضطهادًا وعذابًا، سنواتٍ، قبل أن يتمكّنوا من الفرار، وتلقّتهم مؤسّسة "أبناء النيل"، وهم نصف أمواتٍ، وعطفت عليهم، ولكنّها عجزت عن محو ذكرياتهم الأليمة، ومسح الحزن الذي تغلغل إلى أعماق نفوسهم. ولم تجد الأخت إمّانُوِيل وسيلةً لتسريب السكينة وحبّ الحياة إلى نفوسهم، سوى كرات قدمٍ كانت تلهيهم.

ووزّعت الأخت على الأولاد أقلامًا ملوّنةً، كي يرسموا بها ما يخطر ببالهم. وبعد العشاء لمّا استلقوا على أسرّتهم. ولاحظت الأخت جوًّا من الكآبة يطغى على جميعهم، شعرت بتوق كلٍّ منهم إلى أمّه، فطافت بهم، فردًا فردًا، وزوّدت كلًّا منهم بكلمةٍ حلوةٍ وبسمةٍ، ودعابةٍ وأحسنت تغطيتهم. ولمّا عادت، بعد لحظاتٍ للتأكّد من أنّهم يرقدون بأمانٍ. فاجأها منظرٌ أذهلها: فقد كانوا، جميعهم، راكعين فوق أسرّتهم، مردّدين بعد أكبرهم، دعاء: "أبانا الذي في السماوات...". ثمّ سأل صوتٌ رقيقٌ: "هل لدى أحدكم نوايا خاصّةٌ؟"، فتوالت نوايا مثل هذه:

– فلنصلِّ من أجل آبائنا وأمّهاتنا الذين بقوا هناك.

– ولكلّ من لا يجد طعامًا.

– ومن أجل من يُقتَلون...

وتلت ذلك صلاة: "السلام عليك، يا مريم"، ونومٌ هادئٌ.

وعادت إليهم الأخت، في الصيف، فناموا جميعهم في الهواء الطلق، هربًا من حرارةٍ تخطّت الخمسين درجةً. وغشت السعادة نفسَ الأخت لما كان معظمهم قد نعموا به، فبعضهم تحرّر من العبوديّة، وبعضهم من المخدّرات، وآخرون من اللواط وما أحدثه فيهم من عِللٍ، ونعموا جميعهم بالأمان والمحبّة.

في تلك الأثناء، كانت الأخت سارة تُعنى بالفتيات. وسعت، بمساعدة سيمونّ براهيمشا، وكمال تادروس، إلى إيجاد مأوًى آمنٍ، ومريحٍ لكلٍّ منهنّ. وقد تحقّق ذلك في احترامٍ لكلّ الديانات والمذاهب، بلا تمييزٍ، وبمحبّةٍ متبادلةٍ.

واستحصل كمال تادروس من الأسقف "ڤاكو" على مزرعةٍ، أتاحت للمبتلين بآفات المخدّرات واللواط والسرقة الشفاء من آفاتهم، بفضل عيشهم في قلب الطبيعة، واستعادة حياةٍ طبيعيّةٍ نظيفةٍ. فأكبّوا على حفر قنواتٍ لسقاية المزروعات، وعلى غرس

الأشجار المتنوّعة، وعلى بناء أكواخٍ، وتربية البطّ والدجاج، والنعاج، والبقر، وأمسوا يبيعون الثمار والفواكه، ويصنعون الجبنة. وأعادت لهم قدرتهم على الخلق والابتكار، وشعورَهم بإنسانيّتهم وكرامتهم.

ووفّرت أسفار الأخت إمّانُوِيل لها صداقاتٍ ثمينةً. فقد كانت، ذات يومٍ، مسافرةً من القاهرة إلى الخرطوم على متن خطوط شركةٍ "إيرفرنس"، التي اعتادت نقلها مجّانًا، حيثما تشاء، وإحلالها في الدرجة الأولى التي لم تكن ترضيها، بسبب خلوّها من الركّاب العاديّين. ولكن في تلك الرحلة، فاجأها الرفيق الوحيد في الدرجة الأولى بالمجيء إليها وتقبيلها على خدّيها، والاستفسار عن صحّتها، مسمّيًا إيّاها باسمها، معبّرًا عن سعادته بأن يكون رفيق سفرها.

وما إن بعد الرجل قليلًا حتّى استدعت الأخت مضيفة الطائرة، واستفسرتها عن هويّته، فاستغربت المضيفة سؤالها، وقالت لها: ألا تعرفين أنّه "بيرنار كوشنر"، وزير الشؤون الإنسانيّة، ومؤسّس اتّحاد "أطبّاء بلا حدودٍ". وحينئذٍ اقتربت الأخت منه وتبادلا حديثًا مثمرًا عن نشاطاتهما. ومنذئذٍ، نشأت علاقات تعاونٍ ثمينةٌ بين الراهبة والوزير.

وصباح اليوم التالي كانت الأخت جائعةً إلى خبز الحياة، وعلمت أنّ سفير فرنسا في الخرطوم، يحتفل ذلك النهار داخل السفارة بالمناولة الأولى لأطفالٍ فرنسيّين، وسودانيّين مسيحيّين، وأنّ كاهنًا سيقيم قدّاسًا للمناسبة، فهرعت إلى السفارة، ولمحت الوزير بيرنار كوشنر في صالون السفارة، فحيّاها، ودعاها إلى مشاركته كأس ويسكي، فاعتذرت، وقالت: "أنا قادمةٌ من أجل تناول الإفخارستيّا، فهل سترافقني؟" فضحك، ولكنّه لم يلبث أن أكّد لها: "سألحق بك". ولحق بها فعلًا، مع معظم الموجودين معه. ولمّا بدأ الاحتفال، أنشدت الأخت ترنيمةً لم يستطع الأطفال متابعة إنشادها،

فاستعانت بالوزير ورفاقه، ودوّت أصواتهم الجهيرة في أرجاء السفارة، وقال لها الوزير: "أنت ملكةٌ بيننا، وجميعنا في خدمتك".

وطلبت الأخت من الوزير أن يلقي كلمةً بعد تلاوة الرسائل، فقال: "في هذا العالم، نحن مدعوّون إلى السعي كي تترسّخ المحبّة بين البشر أجمعين. ونحن جميعنا، كبارًا وصغارًا، مسؤولون، مع الأخت إمّانُوِيل عن مساعدة الأشدّ فقرًا وحرمانًا". فانبرى طفلٌ معلنًا عزمه على أن يصير طبيبًا، ويعالج المرضى مجّانًا. وقابل تصريحه رعدٌ من التصفيق.

وفي اليوم التالي زارت الأخت مع الوزير مخيَّمًا للمهجّرين، واقتادهما الدليل إلى المشفى المزعوم، فإذ به غرفةٌ عاريةٌ حتّى من سريرٍ، وقد استلقت، على الحضيض، فوق أوراق تغليفٍ، أجسادٌ سوداء، لا تحظى حتّى بكأس ماءٍ، وإلى جانبهم طفلٌ يحتضر، وكانت جثّة أمّه قد اقتيدت للدفن قبل ساعةٍ. فشدّ الوزير على راحتيه المقبوضتَيْن تعبيرًا عن تصميمه على إنقاذهم.

وخارج ما يُدعى مشفًى، شاهد الوزير والأخت ناجين من المجزرة، مستلقين في فيء أشجار النخيل: شيوخًا لم يبقَ لهم سوى عظامٍ بارزةٍ، ونساءً ضامّاتٍ أطفالًا أذابهم الجوع، وكان قد مات آلافٌ منهم جوعًا، فأعلن الوزير كوشنر: لقد جئتكم مستطلعًا حاجاتكم، وبعد ثلاثة أيّامٍ ستأتيكم مروحيّاتٌ بالطعام المنقذ. وما إن سمع المحتضرون هذا الوعد، حتّى سرى تيّار حياةٍ، في أعضائهم التالفة. وأخذت النساء يرقصنَ مردّداتٍ أهازيجهنّ التقليديّة والشيوخ يرمون عُصيّهم في الهواء، ويتلقّونها بمهارةٍ.

إنّها معجزة الرجاء.

وبعد ثلاثة أيّامٍ، وصلت المؤونات، ونجا الجياع.

وحظيت الأخت إمّانُوِيل بمشاهدة مركز تحضير المحتضرين للموت الكريم الذي أعدّته، في الخرطوم، راهبات الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة، مرسلات المحبّة، وتعلّمت رقّة

العناية بالمحتضرين وبنظافتهم، وبزرع الراحة والطمأنينة في نفوسهم، وأدركت آثار البسمة الصادقة، ورقّة اللمسة التي تزيل التوتّر والقلق.

وتسنّى لها أن تكون شاهدةً على مأساة شيخٍ مسلمٍ ظلاميٍّ حرّض المصلّين، في الجامع على الانتقام من مرسلات المحبّة، فنظّموا غارةً على مركز رعاية المحتضرين، وأوسعوا الرئيسة فيه ضربًا، وحطّموا رأسها، ولو لم تُنقل سريعًا إلى مشفًى، حيث مكثت طويلًا، لكانت لقيت حتفها.

وتنامى الأمر إلى مسيحيّين من جنوب السودان، فهبّوا للانتقام، ونما الأمر إلى مسامع كمال تادروس، فجاءهم في عزّ الليل، وذكّرهم بأنّهم مسيحيّون، وبأنّ المسيحيّين لا يقتلون، ثمّ استدعى رجال الأمن. ولكنّ الرئيسة الضحيّة رفضت إفشاء أسماء المعتدين عليها، وأكّدت: "لقد سامحتُهم لأنّهم لم يعرفوا ما كانوا يفعلون، كما صفح المسيح عن صالبيه.

وبالإجمال، إنّ ما شاهدته الأخت إمّانُوِيل في السودان، وسّع طيف رؤيتها، ورسّخ إيمانها بأنّ الله يحتاج إلى بشرٍ يُعيدون بناء ما دمّره سواهم. فقد رأت وحوشًا بشريّةً تستخدم قواها البدنيّة للقتل، وأشدّاء روحيًّا، يعيدون الحياة، ويُلبسون الهياكل العظميّة التي جُرّدت، ما انتُزِع منها من لحمٍ وعضلٍ. ويشيعون السكينة النفسيّة في نفوس الذين يحبون نحو قبورهم، وينتزعون من براثن الرذيلة والمعصية، التائهين المنزلقين إلى وهاد الهلاك.

لا ريب أنّ الأخت إمّانُوِيل قد حقّقت في مصر والسودان مشاريع إنسانيّةً رائعةً، بعيدة التأثير على مصير مواطنين كان محكومًا عليهم بالتخلّف الدائم، أو بالفناء. وساعدتها على ضمان استمرار هذه المشاريع الحيويّة، تعاونها مع أبناء البلاد المخلصين

والعارفين بخفايا قضاياهم، وأسقام مواطنيهم. وقد ساعدهم على استمرار تلك المشاريع وتطويرها وتنميتها، أصدقاء الأخت إمّانُوِيل الكُثُر، المنتشرون في معظم دول أوروبا، وأعضاء مؤسّسة "عمّاوس" التي أسّسها الأب بيير، في فرنسا، وفي مدنٍ أوروبيّةٍ.

ولم يُحرَم من غوث الأمّ إمّانُوِيل، لبنان، عندما كان يقاسي أعتى مآسيه، حين تخطّت رعونة صنّاع الحروب وتجّارها، ونشوةُ قتل إخوةٍ أبرياء، بدمٍ باردٍ، وضميرٍ مخدَّرٍ، فظاعة كلّ ما شهدته الأخت في أيّة ساحة صراعٍ أخرى.

في تلك الساعات القاتمة كانت واحةَ عزائها، عذراءُ يوم الجمعة العظيمة، التي شهدت صلبَ ابنها وختمَ قبره، وظلّت صامدة الإيمان بقدرته على قهر الموت، والنهوض أشدَّ عزّةً، وأوفر مجدًا. فكم من دلائل رجاءٍ لمست في ربوع لبنان!

فذات يومٍ رافقت كاهنًا كان قاصدًا كنيسةً في الجبل من أجل إقامة القدّاس. ومع التحاذير المخيفة التي تلقّتها محذّرةً من المخاطر الجسيمة التي قد تتعرّض لها، في كلّ لحظةٍ، أصرّت على مرافقة الكاهن، الذي روى لها، في أثناء الطريق أنّ القرية التي كان يقطن فيها ذووه، قد هوجمت ليلًا، فخفّ إليها في الصباح الباكر، ووجد جميع ذويه مجندلين، غائصين في دمائهم، فحفر حفرةً واسعةً، ودفنهم فيها. ثمّ عاد إليها، بعد برهةٍ كي يزرع تربة القبر عشبًا أخضر، تأكيدًا لإيمانه بأنّ الحياة ستقوم ثانية، مردّدًا: "أريد زرع السلام والحبّ".

وتناولت عظته كلّها، أثناء القدّاس، الدعوة إلى الصفح، مردّدًا قول المصلوب: "أيّها الآب، اغفر لهم". وبذلك تبيّنت الأخت أنّ الإيمان هناك ليس تقليدًا، بل هو تجسيدٌ، وأنّ وجه المؤمن فيه، يصطبغ بلون الأبديّة.

ولكن كم من تناقضاتٍ! فالجميع ينادون بالسلام، ولكن للسلام على شفاههم رنّة حزنٍ. فحتّى الذين يطالبون بالسلم يحملون مسدّساتٍ جاهزةً لإطلاق رصاصاتها، عند أوّل صدامٍ.

ومذ جلست على مقعد الطائرة العائدة بها إلى فرنسا، وكان عيد الميلاد قد بات قريبًا، شقّ عليها أن يُحرَم أطفال لبنان من هدايا العيد. ومنذ هبوط الطائرة أطلقت حملةً عبر جميع وسائل الإعلام، داعيةً أطفال فرنسا وذويهم إلى إعداد رُزَمٍ تزن، كلٌّ منها، لا أقلّ من خمسة كيلوغراماتٍ، تحتوي كلّ ما يُفرِح طفلًا محرومًا. ودأبت مؤسّساتها في فرنسا على نقل الرزَم وتجميعها، وإيصالها إلى حاوياتٍ في مرفأ مرسيليا، كي تُوزَّع قبل العيد. وفي لبنان نشطت كريستيان، مساعدة المطران غريغوار حدّاد، على تأليف فريقٍ يتولّى توزيع الرزم على الأولاد المحرومين، ورقصت قلوب مئات الأطفال من مختلف الأديان فرحًا بليلة العيد تلك.

وتأكّد للأخت أنّ الإنسان يتخطّى الإنسان، ويتخطّى قذارة بعض السياسيّين، عندما يتحلّى رجالٌ ونساءٌ بعزيمةٍ يتعذّر قهرها أو ترويضها، لأنّ في صدورهم قلوبًا تنبت الحياة، وتزرع العشب الأخضر فوق القبور.

صراعٌ مع الموت في الفيليبّين

عام ١٩٩٢، كان قد اكتمل تنظيم مشاريع الأخت إمّانُوِيل في مصر والسودان ولبنان، وانطلقت انطلاقةً سليمةً. وكانت مؤسّسات أصدقاء الأخت إمّانُوِيل، في أوروبا، دائبةً على تزويدها بالمال اللازم، بانتظامٍ.

وتطلّعت أنظار الأخت إلى آفاقٍ جديدةٍ. واتّفق أنّ أحد معاونيها في القاهرة قد انصرف إلى مساعدة شعب الفيليبّين، وانضمّت إليه مساعداتٌ للأخت، فوطّنت الأخت العزم مع رئيس إحدى مؤسّسات أصدقائها، يُدعى "بينوا لامبي" (Benoît Lambet)، وإحدى مساعداتها الديناميكيّات، المدعوّة "كاترين ألڤاريز" (Catherine Alvarez)، الانطلاق إلى الفيليبّين، من أجل تحرّي مجالٍ لتقديم خدماتِ فاعليّةٍ مُجديةٍ. ووجدوا في الفيليبّين شعبًا ذكيًّا ونشيطًا، غير أنّ رئيسه "ماركوس" وزوجته، المسرفة في بذخٍ مجنونٍ، قد نشّف موارد البلاد، وحرما شعبهما حتّى من مقوّمات الحياة الأساسيّة.

واستبيانًا للأولويّات، استعانت الأخت ورفاقها بالأب "تروتز" (Trutz) اليسوعيّ، الذي كان قد قدم إلى الفيليبّين بصفة أستاذٍ جامعيٍّ، ولكنّه سرعان ما عاف الكرسيّ الجامعيّ، واستحوذت على نفسه مآسي شبيبةٍ مستعبَدةٍ لأعمالٍ شاقّةٍ لا ترحم، أو للدعارة. فوطّن العزم على تكريس ما تبقّى له من عمرٍ، لانتشالهم من هوّة الانحطاط، التي دُفِعوا إليها مُكرَهين. وكان الأب قد ناهز التاسعة والسبعين عامًا، ولكنّه كان ما زال ينعم بنشاط الشباب الغضّ. فعكف على إنشاء المدارس المهنيّة، بغيةَ تأهيل أولئك الشباب لحياةٍ كريمةٍ.

ومن جانبٍ آخر، كان قد هالَ الراهبةَ الفيليبّينيّة، الأختَ "لوز" (Luz) رؤية ماركوس وزوجته يقودان البلاد إلى الدمار. وبالتعاون مع أبناء كنيسةٍ آخرين، والعديد من الأصدقاء الشباب أهبت نارَ ثورةٍ سلميّةٍ، لا تُسفَك فيها قطرة دمٍ.

وقادت مئات آلافٍ من مواطنيها، على رأس مظاهرةٍ عارمةٍ مطالبةٍ برحيل ماركوس، الذي أمر بلدوزيراته بسحق المتظاهرين. فركعت الأخت أمام آلات الموت، وركع معها مئات ألوف المتظاهرين. وأخذت تكرّ حبّات مسبحتها مردّدةً، بصوتٍ عالٍ: "السلام عليك، يا مريم..." والشعب يردّد تلك الصلاة في إثرها، متحدّيًا آلات السحق، آبيًا التراجع، ولو قيد أنملةٍ. واستمرّت البلدوزيرات في التقدّم، واستمرّت الأخت ورفاقها في الصلاة ركوعًا. وبات السحق وشيكًا ولم تتحرك راهبةٌ، ولم يتحرّك متظاهرٌ وتوقّفت البلدوزيرات، ولاذ ماركوس وزوجته بالفرار. وفازت الثورة، ولم تُسفَك قطرة دمٍ واحدةٌ.

وكم من تحوّلاتٍ أسفرت عنها تلك الثورة. فقد تمّ تدريب تسعة آلاف مزارعٍ على أساليب الزراعة الحديثة، وهؤلاء لقّنوها لعشرات ألوف المزارعين الآخرين. وانتظم مئة شابٍّ وفتاةٍ، في دوراتٍ تعليميّةٍ، كي يعلّموا آلاف مواطنيهم.

وفي الفيليبّين سعدت الأخت إمّانُوِيل بالتقاء فتاةٍ فرنسيّةٍ، تُدعى "ناتالي" في العشرين من عمرها، قدمت تلبيةً لنداء استغاثةٍ، وشابًّا في الخامسة والثلاثين يُدعى أنطوان، كان قد جاء سائحًا، ولكنّه عندما التقى عشرات الفتيان يتسوّلون، لم يُطِقْ متابعة سياحته، وانقلب مسارُ حياته. وأطلق إلى أوروبا نداءات استغاثةٍ، وكانت ناتالي أولى المستجيبات لاستغاثته. فافتتحا، معًا، مدارس لتعليم المتسوّلين، وتحويل مصائرهم، وإنهاضهم.

ثمّ ساءت حالة أحد الفتيان من جرّاء معالجةٍ خاطئةٍ، فأطلقا نداءات استغاثةٍ، ولبّى نداءهما متطوّعون، أحدثوا مستوصفًا، وزوّدوه بالأدوية الأساسيّة.

والتقت الأخت إمّانُوِيل، في مانيلّا، سيّدةً مدهشةً تُدعى "لوريتّا كاسترو" (Loretta Castro)، كانت تدير جامعتَيْن، إحداهما، صباحًا لطلّابٍ ميسورين، وأخرى مساءً، للمعوزين الفقراء، وفي هذه الجامعة المسائيّة شوهدت طالباتٌ غزا الشيب رؤوسهنَّ، وجئنَ طمعًا في العلم، وتحرّرنَ من أمّيّتهنّ، وحصلت بعضٌ منهنّ على شهاداتٍ جامعيّةٍ.

واقتادت الأستاذةُ الأختَ وصحبَها إلى سجنٍ هو، في الواقع، ممرٌّ ضيّقٌ اصطفّت فيه أقفاص المساجين، وكأنّها أقفاص وحوشٍ كواسر. واعترفت الأخت بأنّها، كانت، في البدء، قد استهولت زيارة ذلك المكان الكئيب، غير أنّ انفجار الفرح الذي عبّر عنه السجناء الذين أُخرِجوا من أقفاصهم، من أجل تلك المناسبة، وشدّ الزائرون يد كلٍّ منهم، فغمر قلوبَ السجناء والزائرين، الفرحُ والفخر، وعبّر السجناء عن امتنانهم بنشيدٍ مدوٍّ أخذ من نفس الأخت إمّانُوِيل كلّ مأخذٍ. وهمست في أذن الأستاذة: "كم أنتِ جريئةٌ يا لوريتّا، بالمجيء إلى هذا المكان المروّع!" فأجابت، تلقائيًّا، وبكلّ بساطةٍ: "لستُ بحاجةٍ إلى جرأةٍ، فأنا أحبّهم".

ولكن، أحزن الأخت منظرُ البؤس المنتشر على سفح البركان الذي بصق حممه الحارقة، ومع ذلك، عاد سكّان ذلك السفح إليه، لأنّه لم يكن لديهم مسكنٌ آخر. وحوّل بعضهم الحمم التي بردت إلى أدواتٍ للاستخدام، ومنهم من صنع منها تماثيل، ومنهم من اتّخذ من الرماد سمادًا. والأكثر بعثًا على الأسى هو تحويل ذلك الجبل إلى مكبٍّ لنفايات المدينة، ورؤية رجالٍ وأطفالٍ شبه عراةٍ يغوصون في الأقذار اللزجة، بحثًا عمّا يستطيعون أكله، أو ارتداءه، أو بيعه. وراعت الأختَ رؤية طفلٍ يجري، بأقصى ما يستطيع من سرعةٍ، وراء شاحنة نفاياتٍ كي يكون أوّل نابشي محتوياتها.

ولكنّ الأخت لم تستطع التريّث هناك طويلًا، إذ كان قد حان موعد لقائها مع رئيسة البلاد، وبما أنّ قذارة المطمر كانت قد لطّخت أحذيتها، لمّت جريدةً مرميّةً، وبلّلتها بماءٍ، ومسحت حذاءها بها.

قبل مقابلتها الرئيسة "كوري أكينو"، أُتيح للأخت وصحبها التجوّل في قصر ماركوس الخرافيّ، ومعاينة معرض أحذية زوجته "إيميلدا" الذي ضمّ ألفين وأربع مئة زوج أحذيةٍ. وتلقائيًّا، ألقت الأخت نظرةً على قدميها، وحذائها الملطّخ بأقذار المطمر، وبرماد البركان.

استقبلتهم الرئيسة "أكينو" في مكتبها المتواضع، وسارعت الأخت إلى الإفصاح عن نفورها من مطمر النفايات، وغوص البائسين فيه، بحثًا عمّا يسدّ لهم حاجةً. واعترفت الرئيسة "أكينو" بأنّ هذه القضيّة هي من المشاكل التي تقضّ مضجع وزرائها الباحثين عن مموّلٍ، لا يستغلّ بؤسهم، ودرء مخاطر المطمر عن المواطنين، وتدوير ما يمكن تدويره، ثمّ بيعه، وإيجاد عملٍ للعاطلين عن العمل. وفي الحال خطر ببال الأخت إمّانُويل، رئيس اللجنة الأوروبيّة، "جاك ديلور" الذي كانت تربطه بها معرفةٌ، والذي كان يقرن عقلًا متألّقًا بقلبٍ من ذهبٍ.

ولكن، مع كلّ محاولاتها الجادّة. لم تُفلح "أكينو" في اجتثاث الفساد المتغلغل إلى صميم أعماق نفوس ساكني القصور الفاخرة، الذين يسوقون حياة بذخٍ وقِحٍ، وإلى جوارهم أكواخٌ يسرح فيها البؤس والإملاق.

وفي الطائرة التي عادت بها، تأجّجت نفسها بثورةٍ من نمطٍ جديدٍ. فقد كان معظم الركّاب، ممّن يُدعَون سائحي الجنس، الذين يستغلّون فقر القُصَّر الفيليبينيّين، إرضاءً لغرائزهم الشاذّة. وفي لحظة غيظٍ وقرفٍ، تمنّت أن تنفجر الطائرة، وتقضي على أولئك الوحوش البشريّة، حتّى إذا أدّى ذلك إلى وفاتها.

ولكن، سرعان ما طردت من خاطرها تلك الأمنيّة الجنونيّة، فقد كانت مستعجلةً إلى لقاء "جاك ديلور" في بروكسيل. وقد أبدى السيّد ديلور اهتمامًا حارًّا، وطلب إعداد ملفٍّ مفصّلٍ، بهذا الشأن، وكلّف أحد مساعديه بمتابعته حتّى خواتيمه.

وفضلًا عن ذلك، أعلمها أنّ الموضوع يَدرسه، أيضًا، في واشنطن، البنك الدوليّ.

في السينيغال

كانت "نيلّي روبان" في سنّ العشرين قد ساهمت في مشروع الألف مسكنٍ، من أجل جامعي نفايات القاهرة. ومنذئذٍ عزمت على تكريس ذاتها لخدمة البلدان الناشئة.

ثمّ بعثت إلى الأخت إمّانُوِيل برسالةٍ أطلعتها، فيها، على أنّ قُصَّرًا في السينيغال يُستغلّون استغلالًا وقحًا، مجرمًا. فخفّت الأخت إلى هناك، عام ١٩٨٩. وبمساعدة أصدقاء كثيرين، قامت نيلّي مع كاهنٍ متفانٍ، في غضون أشهرٍ معدوداتٍ، بتأسيس مركزٍ عنوانه: "من أجل بسمة ولدٍ"، استهدف تحطيم قيود الظلم اللاحق بالقُصَّر، وتوفير حياةٍ كريمةٍ لكلٍّ منهم، وهبّ أصدقاء الأخت إمّانُوِيل الأوروبيّون، لتقديم يد العون لهم. نجحت نيلّي وأصدقاؤها أوّلًا، في إطلاق سراح أولادٍ سُجِنوا، عقابًا على سرقاتٍ طفيفةٍ، بدافع الحاجة. فأودعوهم في جوٍّ عائليٍّ بهيجٍ. ثمّ كافحوا من أجل الحدّ من إرهاق أولادٍ بأعمالٍ تفوق طاقاتهم، ولا ينالون عنها أجرًا عادلًا.

وفي غروب عام ١٩٩٢، زارت الأخت إمّانُوِيل، مع أحد مساعديها الأوفياء، المدينة الثانية، أهمّيّةً، في السينيغال، مدينة "تييس" (Thiès)، وتسنّى لها زيارة سجنٍ مريعٍ، يجمع، جنبًا إلى جنبٍ، لصوصًا عتاةً محترفين، وقُصَّرًا سُجنوا بسبب سرقةٍ طفيفةٍ، وكان أمرُ كثيرين من هؤلاء يُنسى، حتّى بلوغهم سنّ النضج في جوٍّ حافلٍ بالتعفّن الجسديّ والروحيّ.

وحصلت نيللي روبان، بفضل سحر جاذبيّتها، على إطلاق ثلّةٍ من هؤلاء الأطفال، أودعوا في منزلٍ مُعَدٍّ لإعادة تأهيلهم، وتوفير حياةٍ إنسانيّةٍ كريمةٍ لهم. ولذلك، قصدت الأخت إمّانُوِيل ومرافقوها، عبر الأدغال، واحةً مخضلّةً، محاطةً بأشجار البرتقال والنخيل، وبالخضراوات، والثمار اليانعة، وأقاموا في أكواخٍ مخروطيّة الشكل، مبنيّةٍ

على شكل نصف دائرةٍ، متألّقةً نظافةً، أرضها مرصوصةٌ، وفيها أسرّةٌ حسنة التنسيق. وعُيّن لكلّ نزيلٍ دورٌ لتنظيف المكان وترتيبه.

خلال النهار، كان جميع الأولاد يقصدون مدرسةً قريبةً، وفي المساء كانوا يتلقّنون مهنةً في مصانع قديمةٍ، ولكنّها ما زالت فاعلةً، وفيها يتعلّمون مهنة الخياطة، أو النجارة، أو الميكانيك. وهناك، استُقبل الزائرون بالرقص والأهازيج، والضحك. وكان المتعلّمون الجدُد خليطًا من مسلمين ومسيحيّين معًا. عيونهم كانت تتألّق اعتزازًا، مع أنّها كانت، عند مجيئهم، معكّرةً، غائمةً.

في اليوم التالي تفقّد الزائرون العتّالين الفتيان في السوق، الذين كان آباؤهم قد أوكلوهم إلى "معلّمين"، تعهّدوا بتعليمهم وإطعامهم، ولكنّهم سرعان ما حوّلوهم إلى عبيدٍ، لا ينالون من الطعام سوى ما يقيهم من الموت جوعًا، ومع ذلك، يكلّفونهم بنقل أحمالٍ تفوق طاقاتهم، وترهق أكتافهم الهشّة، ويسلبونهم كلّ ما يحصلون عليه من مكافآتٍ ضئيلةٍ من التجّار. فشنّت الأخت ونيللي حربًا ضروسًا على كلّ "معلّمٍ" زائفٍ، وندّدتا تنديدًا عنيفًا بمظالمهم، وخلوّ قلوبهم من كلّ شعورٍ إنسانيٍّ، وخَدَر ضمائرهم. وهدّدتاهم بالشكوى إلى رجال الأمن والمحاكم، وأجبرتاهم على منح الأطفال مكافآتٍ وافيةً، وطعامًا كافيًا، ومنعوهم من سلبهم المكافآت التي يجود عليهم بها التجّار.

ثمّ قدّمت الأخت للأولاد عرباتٍ ينقلون عليها أحمالهم، ويريحون أكتافهم الواهية، فكان فرح الأولاد بها طاغيًا. وما لبث معلّموهم السينيغاليّون أن اعتادوا تقديم سندويشاتٍ لهم، كانوا يلتهمونها بشهيّةٍ. ثمّ قبل أن يخلدوا إلى النوم كان أصدقاء الأخت إمّانُويل يزوّدونهم بدورات محو أمّيّتهم، تحت أشجار النخيل.

ولم تغفل نيللي روبان العمّال المتدرّبين على مِهَنٍ، والذين كان مدرّبوهم ينهكونهم بمهمّاتٍ شخصيّةٍ صعبةٍ، لا تمتّ للتدريب المهنيّ بصلةٍ، فأنذرتهم نيللي، وذكّرتهم

بواجباتهم، وأجبرتهم على تزويدهم بالتدريب اللازم، والاقتصار على تلك المهمّة، حتّى أمسى أولئك المتدرّبون، مهنيّين بارعين في مهنتهم، وقادرين على مواجهة مصيرهم، بمهنةٍ مُتقَنةٍ. وأثبتت نيللي قدرتها على إيقاظ إنسانيّة المتدرّبين، وعلى فتح أبواب حياةٍ كريمةٍ للفتيان.

وجهدت نيللي روبان في إعادة توثيق علاقة الفتيان بذويهم. ولكنّها واجهت صعوبةً في ذلك. فقد روت لها والدة أحد الفتيان أنّ زوجها، عاطلٌ عن العمل، والأسرة تفتقر إلى دخلٍ، فلجأت تلك الوالدة المكافحة إلى ما عدّته حيلةً، وأمست تمضي إلى الأسواق، كلّ يومٍ، ساعة إغلاقها، حين يرمي بائعو الثمار والخضراوات ما يخشون تلفه ليلًا، فتجمعها وتجعل منها طعامًا لأسرتها. وكانت تروي ذلك باعتزازٍ، وسط ضحكاتٍ مدوّيةٍ.

وحينئذٍ، كانت الأخت إمّانُوِيل لا تستطيع إلّا المقارنة بين هذا البؤس الفرح، والبحبوحة الكئيبة في أوروبا، حيث معظم سكّانها دائمو عدم الرضى، وحيث تُرمى إلى النفايات كمّيّاتٌ جسيمةٌ من الأطعمة التي ما زالت صالحةً، ولكنّها فاضت عن حاجة أسرهم اليوميّة. وقد أضحى معظمهم عبيدًا لبذخٍ، يركضون وراءه لاهثين، وفقدوا التمتّع بفرح الوجود، والتنفّس، والسير على القدمين، وتأمّل جمالات الكون، ومتعة تذوّق الطعام الطبيعيّ البسيط، والجلوس جنبًا إلى جنبٍ، في أُلفةٍ تنعش القلوب، في حين أنّ الأفريقيّين الفقراء يتمتّعون بما يهبهم الله كلّ يومٍ من أفراحٍ بسيطةٍ، ومن مشاركة إخوةٍ لهم فقرهم وفرحهم، في حين أنّ كثيرًا من الأوروبيّين يحسدون ما يحصل عليه زملاؤهم وجيرانهم، ويسكنهم همّ منافستهم.

أمّا نيللي وزوجها فيعملان ويجهدان كي يكسبا خبزهما اليوميّ، ولا يطمعان إلى أكثر من ذلك. ويسعدان، كلّ يومٍ، بكونهما أداة حياةٍ للآخرين، يحرّرانهم من قيود الظلم، ويُزيلان الحيف عن كواهل المقهورين.

عندما يلتهب الحبّ، تتفجّر الحياة

كانت حياة الأخت إمّانُوِيل ثورةً على كلّ ما يُنافي المحبّة. ولطالما حلمت بإفراغ مخازن الأطعمة المخزّنة بلا جدوى، وتوزيعها، مجّانًا، على مَن يهلكون جوعًا، وإنفاق ميزانيّات التسليح، وأرباح المضاربات في البورصة، على بناء مدارس، ومساكن، ومستوصفاتٍ ومشافٍ.

ولكم ودّت أن تردّد مع القدّيس "باسيليوس"، على مسمع كلّ أنانيٍّ:

- الخبز الذي تحتفظ به هو ملك الجائع،
- والمعطف المعلّق في خزانتك هو ملك العريان،
- والحذاء الذي يتعفّن في مطرحه هو ملك الحافي،
- إنّك تسحق العديد ممّن لا تساعدهم.

ومن أفضال الأخت إمّانُوِيل، أنّها، على غرار الأب بيير، كانت "صوت من لا صوت لهم"، وناضلت، بلا هوادةٍ، من أجل انتشال الواقعين، وقارعت الأنانيّات، وبذور الموت، ناثرةً مكانها بذور حياةٍ، جاهدةً في إحياء الإخاء الأصيل، مؤازِرةً الساعين إلى حياةٍ كريمةٍ، منيرةً دروب المتعثّرين والتائهين.

الإنسان الأكثر إدهاشًا

لقاء الأخت الأشدّ إيحاءً بالمغزى تمّ في مشفى معاقين عقليًّا، إعاقةً عنيفةً. فهناك التقت امرأةً منقطعة النظير، كانت تجول في الجناح الموكل إلى عنايتها. وإذا بها أمام المشهد الأكثر إثارةً للنفور، الذي أرهب الأخت إمّانُوِيل، حتّى كادت تهرب. فقد دنت تلك المرأة من سرير إنسانٍ متشنّج الوجه، وينساب اللعاب من شفتيه، بلا توقّفٍ، ولا شيء في محيّاه يحاكي وجه إنسانٍ، وأخذته بين ذراعَيْها، فيما كانت ذراعاه متدلّيتَيْن، ولكأنّ لا حياة فيهما، فضمّته إلى قلبها، وأمالت وجهها إلى وجهه الذي كان قد هوى على كتفها، ووجّهت له بسمةً ساحرةً. فتوقّفت عيناه اللتان كانتا تدوران، بلا توقّفٍ، في مِحجرَيْهما، وحدّقتا إلى عينيها. وحينئذٍ، أطلق الرجل شخيرًا، وسرى في ملامحه المتشنّجة مثل ومضة حياةٍ. فهتفت المرأة، سعيدةً: "لقد شعر بأنّه محبوبٌ. وأبقته طويلًا هكذا، تدفئه بحرارة جسدها، إلى أن سكن، وأشرقت ملامحه، فهتفت المرأة: "انظروا كيف أصبح جميلًا!" وبغتةً، هتفت، وكأنّها في انخطافٍ: "كلّ إنسانٍ في هذا المكان يحتاج إلى كلّ حبّي". كانت تشعّ نورًا، وبدا الرجل المعاق، يشرب نورها، فاغرًا فاه.

هذا المنظر، كان في عينَي الأخت إمّانُوِيل يفوق كلّ جمالٍ بشريٍّ، وجعلها تلمس لمسَ اليد، معجزة المحبّة البطوليّة الصادقة، وتتحرّر من توهّم قدرة قلبها على استيعاب كلّ نكبات الدنيا، إلى أن شهدت، في تلك المرأة الفذّة، حبًّا يطيح بكلّ نفورٍ من التشوّه البشريّ الأقصى، ومن كلّ بشاعةٍ، لا بل كان الانحطاط البريء الأقصى يولّد فيها فيضان المحبّة والعطف. لقد انحفر في أغوار نفسها محيّا تلك المرأة المحدّق إلى وجه كائنٍ فقد كلّ طابعٍ بشريٍّ، وجعلها تفكّر: "إذا استطاع كائنٌ بشريٌّ بلوغ هذا المستوى من الحبّ، فكيف يكون خالق الحبّ، وكيف تكون السيّدة العذراء "أمّ الحبّ الجميل"؟

وغدت الأخت، كلّما استحوذ الوهن عليها، جسدًا وروحًا، تتذكّر ذلك الرجل الذي تدنّى إلى أقصى دركات الانحطاط الجسديّ، وترتمي بين ذراعي مريم العذراء، وتتجرّع رشفاتٍ من نورها، ملتمسةً أن تضفي على نظرها مزيدًا من البعد. فقد غابت، اليوم، مشاهد الحقّ، والجمال، والخير عن أرضنا، وسلّطت وسائل الإعلام أضواءها على مساقط الفساد، والخسّة، والدناءة، والعنف، وامّحت تجلّيات الجمال، وغُيِّبت ذكراها.

مع أنّ كوكبنا ما زال زاخرًا برجالٍ ونساءٍ، طافحين إيثارًا، ونكرانًا للذات، وطاقةً على استنبات الخير من حقولٍ تبدو عقيمةً، عصيّة على الإنبات. هؤلاء هم زارعو الرجاء، الذين ما زالوا يملكون جرأة القول لمن تردّى إلى أقصى وهاد الانحطاط الجسديّ: "ها قد صرتَ جميلًا".

أمام الموت، صمتٌ

ثمّة، أيضًا، في الحياة، مواقف تعرّي كلّ عَظَمةٍ من ألقها، وتبرز وجه البؤس الحزين، وقسوة العجز عن مواجهته.

فذات يومٍ، ألقت الأخت إمّانُوِيل محاضرةً أسهبت في الحديث عن صراعها ضدّ المجاعة والموت، في السودان، وفي مواقع أخرى.

وبصعوبةٍ استطاع مساعدها قراءة ورقةٍ صغيرةٍ خربشت عليها امرأةٌ: "لقد مات ابني، حديثًا، فما تستطيعين أن تقولي لي؟".

وساد صمتٌ ثقيلٌ، وحدّقت جميع العيون، قلقةً، إلى الأخت إمّانُوِيل. وكانت الأمّ المفجوعة، الجالسة بينهم تنتظر.

أمام قلبٍ مجروحٍ حتّى الموت، تفقد الكلمات معناها، بل يبدو كلّ قولٍ إهانةً، ولا يستطيع سوى يسوع وأمّه، زرع العزاء والرجاء في نفسٍ يعصف بها حزنٌ مميتٌ، ومساعدتها على بلوغ الشاطئ حيث ينتظر الحبيب، في نور الله.

كانت الأخت راغبةً في قول ما يعطي للفاجعة معنًى، ولكنّها لم تعثر على تعبيرٍ ملائمٍ، وكرّت الدقائق كأنّها دهورٌ. وأخيرًا، بصوتٍ مختنقٍ، قالت: "لقد مات ولدٌ، حديثًا، وأمّه، هنا، تنتظر كلمةً. فلتصفح عنّي لأنّي لم أعثر على قولٍ، فلْنلتزِمِ الصمتَ بضع دقائق، وليجعل الله حزن الأمّ، يتسرّب إلى قلوبنا"!

إخوتي السجناء

تقول الأخت إيمّانويل: "المكان الذي لم يخطر ببالي أنّي سأجد فيه نفسي، هو السجن، حيث تولّى السجناء دورًا أساسيًّا في حملي على إعادة النظر في حياتي. لطالما بدت لي مصيبة السجناء مريعةً، فغالبًا ما دفعتهم سورة غضبٍ إلى مصيرٍ حزينٍ متمادي الطول، مصير بهائم مقيّدةٍ داخل قفصٍ، من قِبل مجتمعٍ حريصٍ على سلامته بأيّ ثمنٍ.

أمّا لي فالسجناء إخوةٌ، لا علاقة لي بماضيهم. ولطالما جال في خاطري أنّي لو وُجِدتُ في مثل ظروفهم، لكنتُ، الآن، معهم في السجن. ولو هم نعموا بمثل ظروفي لكانوا آمنين، ولكانوا رفاقي. ولطالما رويتُ لسجناء ذكرياتي عن جامعي نفاياتٍ، وكيف كان بؤسهم يدفعهم، أحيانًا إلى السرقة والمخدّرات، وإلى العراك الدامي. وحدّثتهم عن المدعوّ بسيط، الذي قتل رجلَيْن، وسُجن. ومع ذلك، بقي لي أخًا، لا غير، أشاركه كوب شايٍ، ووعدته بمساعدته على النهوض. وكانت تلك أمنيّته. وحينئذٍ، كنت ألمح وميضَ نورٍ في عيون السجناء، وندامتهم على ما اقترفوه، وعلى الجرح الذين أحدثه فعلهم في نفوسهم ومصيرهم. وغالبًا ما فشلتُ في إيجاد تعبيرٍ يوفّر لهم عزاءً وطمأنينةً، فكنت أكتفي بتقبيلهم، فردًا، فردًا، وأنا منصرفةٌ، ولم تكن حينئذٍ الدموع تنهمر من عينيّ وحدي.

كان بعضهم يراسلوني، وكانت بعض رسائلهم تهصر قلبي، تأثّرًا، مثل هذه:

«ستجري محاكمتي يوم الثلاثاء، الساعة التاسعة، بجريمة قتلٍ. وسيكون ذلك النهار الأطول والأشـــقّ، مدى حياتي. وأنا الآن أرتجف، لا خوفًا، بل خجلًا من اضطراري إلى عيش الجريمة ثانيةً، أمام جمهورٍ نهمٍ إلى سماع قصص الجرائم، وأكثر نَهَمًا إلى تذوّق الأحكام المصـيريّة، وإلى لصـق تهمة الانحطاط، أيًّا كان

سببه، أو دافعه. وما عساني أقول لوالدة صديقي بـــ ... سوى ندمي العميق على إطلاق النار غير قاصدٍ قتله».

لقد أصبح السجن هو ديري. فيه أريد أن أحيا وأتألّم، وأصلّي، وأموت من أجل الذين يعانون. هنا أوجدني الله كي أكون ضوءًا ضئيلًا ينير نفوس إخوتي السجناء. وقد كشف لي السجناء عن وجهٍ إنسانيّ نيّرٍ. ففي كلّ إنسانٍ غُرِست بذرتان: إحداهما تُنبت مجرمًا، والأخرى تُنبت قدّيسًا، ذا قلبٍ أخويٍّ سخيٍّ. والله، وحده، يحكم على مسؤوليّة اختيار هذا المصير أو ذاك. أمّا أنا، فأعترف بأنّني طالما استعنت بالله، كي ألجم أهوائي. وغالبًا ما تذكّرت قول الفيلسوف الفرنسيّ "تين" (Taine): "حكّ طلاء إنسانٍ متحضّرٍ، فقد تكتشف غوريلّا مفترسًا وشهوانيًّا".

نظرة الأب پيير

لقد استنبط الأب پيير فكرةً عبقريّةً، لإنهاض الإنسان الذي تردّى إلى أدنى مستنقعات الانحطاط واليأس، تمثّلت في تحويل اليائس إلى مُخلّص ليائسين آخرين. ولدى رفاق "عمّاوس" الدليل الدامغ على نجاعة هذه المبادرة.

وقد روى أحدهم للأخت إمّانُوِيل: "كنتُ سائق شاحنةٍ، ولمّا عدتُ من رحلةٍ استمرّت ثمانية أيّامٍ، وجدتُ بيتي فارغًا، وقد هجرته زوجتي مع ابنتنا، فهويت إلى معاقرة الخمرة، وتسارع انحطاطي إلى أن التقيت رفاق عمّاوس".

وروى لها آخر: "لمّا كنتُ في الخامسة عشرة، طردتني والدتي من البيت. أجل، والدتي طردتني، فنزعتُ إلى السرقة وإلى المخدّرات. وذات يوم ارتكبتُ جريمة قتلٍ، ومن حسن طالعي أن كان هناك الأب پيير".

محبّة ذلك الإنسان، أنهضت أولئك البائسين، الذين رمى بهم اليأس، في وهاد الانحطاط. ولرفاق عمّاوس عشرات الفروع، في شتّى بقاع الأرض، وهم يقومون بعملٍ شاقٍّ يتمثّل في إعادة تأهيل المهملات المرميّة، وبيعها أو إهدائها لمحتاجين. وهم لا يتلقّون راتبًا سوى ما يكفيهم لشراء سيكارات، تلهيهم عن معاقرة الكحول. ومع ذلك، يصمدون، لأنّهم يفرحون ويفخرون بتحرير مسحوقين آخرين، في أوروبا، وأفريقيا، وحتّى في أمريكا الجنوبيّة. ولطالما ساعدت شبكاتهم الأخت إمّانُوِيل على إنقاذ العديد من أبناء جامعي نفايات القاهرة.

وقد باح لها الأب پيير، ذات يومٍ، بسرٍّ قلب كيانها. فقد كانت في مكتبه تطلعه على فرحها الغامر كلّما بدّدت كربة نفسٍ. فلمحت مسحة قلقٍ يغشي عينيه بغتةً. وعقب برهة صمتٍ، تمتم محدّثًا نفسه: "ما أوجع تحمّلَ النفس، كلّ بؤس العالم، وكأنّه

بؤسها!". وفي تلك اللحظة استحضرت الأخت وجه يسوع المطبوع على كفن تورينو، ودائرة الظلّ المحيقة بعينيه، وبشفتَيْه الوجيعتَيْن، والألم المنتشر على كلّ محيّاه. ثمّ ما لبث أن ألقى الأب پيير نظرةً حارّةً، واستحوذ عليه سلامٌ نيّرٌ، وقال: "أجل أيّتها الأخت إمّانُوِيل: ينبغي أن نعاني الفرح والألم معًا، عندما نحاول الخروج من الألم، والدخول في الفرح".

هذا اللقاء القصير بين الأب پيير والأخت حمل الأختَ على إعادة تقييمٍ عميقٍ للجانب الشخصيّ الضاحك من طبعها.

وتسنّى للأخت أن تلتقي الأب پيير مرّةً أخرى، بين جامعي نفايات القاهرة، شادًّا على يدَيْ جامع نفاياتٍ قذرتَيْن، بمودّةٍ متأجّجةٍ. ولكنّه بسبب جهله اللغة العربيّة، لم يقلْ له كلمةً، ولكنّه كان يحدّق إليه بكثافةٍ نفّاذةٍ مدهشةٍ. وكأنّه يقول له: "لست أعرف لغتك، ولكنّك أنت أخي، وأنا أحبّك". واعترى الأخت شعورٌ بأنّ الأب پيير لم يكن يرغب، آنذاك، إلّا في لقاء ذلك الرجل، في ذلك المكان.

لا غروَ أنّ تلك الأُلفة بين مجهولَيْن، لا مثيل لها في فرنسا، حيث الحذر من الغريب هو الواجب. ولكنّ مثال الأب پيير ظلّ حيًّا في نفس الأخت إمّانُوِيل التي اتّفق لها أن دخلت، مع أختٍ صديقةٍ لها، باحة بناءٍ حيث كان أفريقيٌّ جنوبيٌّ مستندًا إلى جدارٍ، يراقب بنظرةٍ عدائيّةٍ. وأحبّت الأخت محادثته، وتذكّرت أنّ الأفريقيّين الجنوبيّين لا يفهمون شيئًا من لغة جامعي نفايات مصر. وومضت في ذاكرتها صورة الأب پيير، فجهدت أن تودع كلّ قلبها في عينيها، ورمقت الرجل، فأدهشه أن تلقي عليه امرأةٌ فرنسيّةٌ نظرةً ودّيّةً. فتلفّت يمينًا ويسارًا، للتأكّد أنّ نظرتها موجّهةٌ إليه أو إلى سواه. وأحزن الأختَ ذلك، فسارعت إلى مسكنها. ولمّا خرجت وجدته بانتظارها. وخطا خطوةً نحوها فخطت، هي أيضًا، نحوه. ولم يفهْ أحدٌ منهما بكلمةٍ، ولكنّ نظرَيْهما انغرس أحدُهما في الآخر، وكلٌّ منهما سمع: "أنتِ أختي، وأنا أحبّك، وأنتَ أخي، وأنا أحبّك".

مصر ومعنى الأبديّة

قال المؤرّخ الإغريقيّ هيرودوتُس: "مصر هِي هِبةُ النيل". وتضيف الأخت إمّانُوِيل على هذا القول:

«لقد أشاد الفراعنة صروحًا من حجارةٍ، راجين أن تكون سلّمًا يرتقون عليه، إلى إلههم "رع"، إله الشمس.

"أمّا إيماني الهرميّ فهو راسٍ بمتانةٍ على أرضٍ مادّيّةٍ، ولكنّه يسمو بزخمٍ صوب قمّة الأبديّة، صوب الله، في ما وراء العالم.

"عندما شرعتُ أشارك جامعي النفايات حياتهم، كانت الاحتياجات اليوميّة والبنويّة التي يتوجّب عليّ تلبيتها، لا تفسح لي دقيقة هدنةٍ وخلوةٍ. وذات يو رح عليّ والد دليلي "لبيب"، وهو قبطيٌّ ملتزمٌ بدينه:

– "أنتِ، الراهبة، متى تصلّين؟

– "إنّي أحضر القدّاس كلّ يومٍ، وأتناول، وأتخشّع قبل النوم.

– "أهذا كلّ شيءٍ؟

من الجليّ أنّه كان يتوقّع منّي، أنا الراهبة، تخصيص وقتٍ أطول للصلاة. وكم كانت قاسيةً تلك الصدمة التي تلقّيتُها من علمانيٍّ مؤمنٍ! ومنذئذٍ، اعتدت إنفاق ساعة صلاةٍ قلبيّةٍ صامتةٍ كلّ يومٍ، متشفّعةً من أجل الذين أشاركهم حياتهم. وتبيّنتُ أنّ هذا الاتّصال المتجدّد مع الله كان يُضفي على عطائي كثافةً وغنًى.

ولكم تأثّرتُ بأقوال القوم التي لا يكفّون يردّدونها: "ربّنا كبير، ربّنا موجود"، والتي سكنت في أعماق قلبي.

ومن حسنات المصريّين أنّ الوقت عندهم ينساب على مهلٍ، كما ينساب النيل. وهم عندما يجلسون من أجل صفقةٍ تجاريّةٍ يبدأون باحتساء كوب شايٍ معًا، ويطمئنّ كلٌّ منهم عن ذويهم وأبنائهم، فالوقت لهم ليس "مالًا"، بل هو

علاقاتٌ. والعلاقة تستلزم أن ينظر كلٌّ إلى الآخر، ويشاركه أفراحه وهمومه الصغيرة.

"لقد كافحتُ بكلّ عزيمتي كي أزوّد قرى صفيح جامعي النفايات بالماء والكهرباء، والمدارس والمستوصفات، ولكنّي أدركتُ أنّه كان من الأفضل أن نتحلّى بشعارات ذلك الشعب الواقعيّة: "ما عليش، عندما لا تكون الأمور ملحّةً مستعجلةً، وأن نرجئ بعض الأمور إلى "بكرا"، معتمدين على الله، ومردّدين: "إن شاء الله".

"وشيئًا فشيئًا، تعلّمت ممارسة هذه الفلسفة الشعبيّة. فبعون الله، ومؤازرة حسَني النوايا، سيتمّ كلّ شيءٍ غدًا، على خير حالٍ. وها أنا أسير بقلبٍ مرتاحٍ وسكينةٍ، وبدعم إخوتي جامعي النفايات، نحو قمّة الهرم، ومسكن الأبديّة، نحو سماء الله، صديق البشر».

قناعاتٌ أخرى، ومصادرُ غنًى جديدةٌ

«كنتُ أحلم، في مطلع شبابي بأنّ الرسالة هي أن أحمل بيدي صليبًا وأعمّد الوثنيّين. والآن بتُّ أومن أنّ الرسالة الحقّة هي معرفة الآخرين، واحترام كلّ ما هو خيرٌ في معتقداتهم وسلوكهم.

"في تركيّا، وتونس، ومصر، احترمتُ عقائد من عشتُ معهم، واحترموا هم، عقائدي، وكان هذا الاحترام المتبادل أساس علاقتنا القائمة على المودّة.

"دُعيتُ، يومًا، إلى إلقاء محاضرةٍ في مدينةٍ فرنسيّةٍ، وأقيمَ، بهذه المناسبة عشاءٌ رسميٌّ، وإذ بمن يبلّغني رغبة العمدة بالجلوس معي على انفرادٍ. وحذّرني الرسول من كون العمدة شيوعيًّا متشدّدًا. وما إن جلست، وجهًا لوجهٍ، حتّى راح يحدّثني، باندفاعٍ ملتهبٍ، عن قريةٍ أفريقيّةٍ، يزورها بانتظامٍ كي يساعد سكّانها على العيش، ولذلك حفر فيها بئرًا، وروى التربة، وأنقذ الأهالي من الجوع والموت، فأثّر حديثه فيّ، ورويتُ له بدوري، وباندفاعٍ مماثلٍ، عن عيشي في قرى صفيح يقطنها جامعو نفاياتٍ، وكيف قضينا على الكزاز (التيتانوس) الذي كان يحصد آلاف الأجساد الصغيرة، وبنينا مدارس، وعلّمناهم، حتّى كاد ينسينا سرد تلك الإنجازات تناول الطعام. ولم أشكّ، بأنّنا كلينا تلميذا ذلك الذي علّمنا: "أحبّوا بعضكم بعضًا". ومنذئذٍ، لم أعدْ أجسر إدانة أيّ شخصٍ مختلفٍ عنّي في عقيدته.

"ومن أكثر الأشخاص الذين أحطْتُهم بأعمق احترامٍ وتقديرٍ، قريبةٌ لي تُدعى "جرمين"، لم تكن تتحرّج عن إعلان إلحادها، ولكنّها كرّست ذاتها، جسدًا وروحًا للعناية بالأولاد المعاقين. وأعرضت عن الزواج، كي تحيطهم بمحبّة الأمّ، وتقضي معهم وقتها كاملًا. ولكم أذهلتني قدرتها على التفاني بلا حدودٍ، فيما أنا، لا أقوى على التمثّل بها، إلّا بالاتّكال على قدرة يسوع وعونه.

"أجل، يا جرمين، ربّما كان فكرك يرفض الله، ولكنّ قلبك قد التقاه في تكريس

ذاتك، لمعاقين صغارٍ، يعدّهم يسوع إخوته. وربّما سمعتِ، وأنتِ تلفظين نفَسَك الأخير، دعائي: "ادخلي إلى فرح ربّك". فقد رسمتِ أروع صورةٍ ليسوع في عيون أولادٍ معاقين.

"الحقيقة المطلقة التي أومن بها، هي أنّ يسوع هو ابن الله. ولكن، حتّى الديانات التي تنكر هذه الحقيقة قد تنطوي على قِيَمٍ جديرةٍ بالاحترام: فقيمة الإنسان الحقّة ليست نتيجة ديانته، بل نتيجة الحبّ الذي يجعلنا نرى في الآخر، أخًا أو أختًا لنا، أيّةً كانت عقائده».

جيلٌ جديدٌ يُطلّ

«للوهلة الأولى تبدو شبيبة اليوم سطحيّةً، لا مباليةً، لا همّ لها سوى اللهو والعبث، والشغب، والمجون. ولكنّها عندما تطّلع على مآسي الآخرين، كم من كنوز بطولةٍ وإيثارٍ، وسخاءٍ تتفجّر منها! وكم منهم هجروا مرابع الرفاه، وتطوّعوا للعمل الشاقّ، في أكثر المطارح بؤسًا، ولم يردعهم رادعٌ عن التضحية المجّانيّة!

"لقد شهدتُهم يعملون في أماكن محرومةٍ من الماء والكهرباء والدواء، تحت نيران الهجير، ولا يتوانون عن الرقاد، وسط الجرذان والأقذار، بغية تدمير أكواخ الصفيح، ويبنوا بديلًا عنها مساكن لائقةً من قرميدٍ وإسمنتٍ، بوسائل بدائيّةٍ! ولم يأنفوا من أن ينقلوا إلى أماكن بعيدةٍ قاذوراتٍ مقرفةٍ، أعرض العمّال أنفسهم ن مسّها! وكم منهم من عالجوا قروح بُرصٍ متقيّحةٍ، أحجم الممرّضون والأطبّاء عن معالجتها، ثمّ مضوا راضين فرحين. هؤلاء كانوا لي مقفزًا انطلقتُ منه إلى أبعد فأبعد، ولكم جدّدوا شبابيّ

"لا، ليس مجتمعنا متعفّنًا بأكمله، وليس زماننا زمانَ عنفٍ وحقدٍ وقتلٍ فحسب. أيّها الأبطال، إنّكم تزرعون فينا رجاءً في إكمال جهادنا من أجل الحدّ من مساحة البؤس، وإنماء الإخاء.

"لم يكن عددنا كافيًا، نحن أسلافكم، لتقويم كلّ معوجٍّ، ولتسديد مسيرة العالم نحو مزيدٍ من العدل والمشاركة. وها إنّنا نسلّمكم المستقبل، فكثّفوا الكفاح، كي يصبح أوفر عدلًا، وتضيقَ الهوّة بين سكّان كوكبنا، ويوضعَ حدٌّ للإبادات الجماعيّة.

"قد يكون الكفاح حادًّا، ولكنّكم جاهزون لخوض هذه التجربة. وثقوا بأنّ الكفاح لإنهاض الواقعين حافلٌ بالإثارة والنشوة».

أومن بكِ، يا كنيستي

«من المحقّق أنْ لا شيءَ على الأرض كاملٌ، وأن ما من مؤسّسةٍ تنجو من مواطن النقد. وقد أمسيتُ الآن أوثر تحرّي الوجه الإيجابيّ من البشر والأمور.

"بعد العديد من الأسفار، التي قمتُ بها، والاتّصالات التي أجريتُها، تبيّنتُ أنّ وراء الحُلَل الكهنوتيّة الفخمة، تثوي حيويّةٌ مذهلةٌ. أساقفةٌ وكهنةٌ كُثُرٌ استقبلوني، وجعلوني أؤمن بوجود ديناميّةٍ فاعلةٍ في الكنيسة. أُقرُّ بأنّني لم أتوقّع أن ألقى لدى معظمهم مثل ما لقيتُ من إصغاءٍ لنداءات العالم. أُسقفٌ واحدٌ منعني من دخول رعيّته، خوفًا من تأثير ثورتي على أفراد الرعيّة.

"التقيتُ، في فرنسا، كهنةً يسوقون عيشةً موغلةً في الشظف، فمحافظهم تفرغ بسرعةٍ، على وقع نداءات العَوَز. وكثيرون منهم يُقرّون: "كلّ شيءٍ لديّ مشرعٌ لكلّ محتاجٍ، وكلّ مَن يطرق بابي يجلس ويأكل".

"وطالما قرأتُ في عيون كهنةٍ قلق الاستجابة لمتطلّبات عالم اليوم. ومع ذلك، شهدتُهم يستعينون بمتطوّعين، وينهمكون في عقد اجتماعاتٍ ومخيّماتٍ، ونشاطاتٍ اجتماعيّةٍ، وينغمسون في المجتمعات الأشدّ ابتلاءً بأوبئة المخدّرات والسيدا، وسكن السجون، ولا همّ لهم سوى إيقاظ جماعاتٍ صغيرةٍ، نشيطةٍ توّاقة إلى مشاركةٍ فعّالةٍ.

"وكم من شواهد على سخاء أطفالٍ كان له أعمق أثرٍ في قلبي. فقد كتبت لي فتاةٌ: "أختي، لقد عملتُ في نقل عربات بحصٍ، ويسرّني أن أرسل لك ما حصلتُ عليه من أجر عملي. لقد كبّدني العمل تعبًا جمًّا، ولكنّ يسوع تعب أكثر منّي".

"وكتب فتًى: "لم أشترِ سندويشةً في المدرسة، لكي أهب ثمنَها لإخوتي الصغار الجياع".

"هذه البوادر أقنعتني بأنّ كنيسة اليوم، هي أكثر اهتمامًا بثقافة المشاركة من كنيسة طفولتي.

"دعاني، يومًا، الكردينال "دي كورتري" إلى مائدته، وتجرّأت فسألته، بشيءٍ من القحة، هل الكنيسة هي، حقًّا، فقيرةٌ وخادمةٌ؟ وهل هو يمارس حياة فقرٍ. فأجاب: "إنّي أسكن هذا الصرح الأُسقفيّ، وهو مقرّ أسقف ليون الرسميّ، وهو ملك الدولة. عندما كنتُ كاهنًا شابًّا، قصدتُ العيش في غرفةٍ صغيرةٍ، والتنقّل على متن درّاجةٍ. فهل يسعني فعل ذلك اليوم؟ إنّك تُجيلين سيفًا في جرحي، أيّتها الأخت إمّانُوِيل. فصلّي لي كي أسوق الحياة الأكثر فقرًا، حيث عليّ الإقامة الآن، وأن أكون، حقًّا، خادم الجميع"، وكان وجهه يعبّر عن حزنٍ سحيقٍ.

"وقد لحظتُ هذا التوق الوجيع لدى رهبانٍ فرنسيسكانيّين، أجبرتهم مراكزهم على مخالفة مبادئ "الفقير الصغير"، مؤسّسهم.

"أنا، شخصيًّا، أستخدم وسائل الأغنياء، مثل السفر بالطائرة، اقتصادًا للوقت، وتُجلسني شركة "إيرفرنس" في الدرجة الأولى مجّانًا، ولكنّي دائمة الحرص على الوفاء لروح الفقر.

"هذا الروح مثّله البابا يوحنّا بولس الثاني خير تمثيلٍ، وقد شهدتُ انسحاقه وهو يصلّي راكعًا، وكأنّ على كتفَيْه كلّ هموم العالم. وقد قدّرت أسمى تقديرٍ زيارته، في سجنه، لعلي أخجا الذي حاول قتله، وأكبرت تقبيله له.

"وقد أخبر ذلك الحبر العظيم، يومًا، أنّ كاهنًا كان قد خلع الثوب الكهنوتيّ، يشاهد، باستمرارٍ، يحوم حول الڤاتيكان، وعليه أمارات الندم، فاستدعاه وركع أمامه، وطلب منه استماع اعترافه».

ولطالما استنكرت الأخت إيمّانويل تسليط الإعلام أضواءه على أفرادٍ مثل الأمّ تيريزا، والأب پيير، والأخت إمّانُوِيل، مُغفِلًا وجوهًا أخرى نيّرةً، لا تقلّ بهاءً، أمثال الأخت مجدولين يسوع مؤسّسة جماعة أخوات يسوع الصغيرات، والأسقف دون هيلدر

كامارا البرازيليّ، الذي هجر قصره الأُسقفيّ، وسكن في سكرستيّا كنيسته، والأب داميان الذي ضحّى بحياته لخدمة البرص، في جزيرةٍ مهجورةٍ، نائيةٍ. والعديد من الأساقفة والكهنة السود في السودان، تجرّعوا مرارة العذاب والاضطهاد، ولم تفتر عزيمتهم على بناء مدارس ومستوصفاتٍ لفقرائهم. وغالبًا ما سُجنوا، ثمّ استأنفوا نضالهم، فور إطلاق سراحهم.

لا ريب أنّ الكنيسة مؤلّفةٌ من أرضيّين مجبولين بوحل الأرض، وارتكب بعضهم، على امتداد عشرين قرنًا جمًّا من الأخطاء. ولكنّ حبّ الله ما زال يسكن الكنيسة، وطوال هذه القرون العشرين، لم تنفكّ الكنيسة تُنبت رجالًا ونساءً، تخطّوا أوهانهم، وكرّسوا ذواتهم، جسدًا وروحًا، لخدمة إخوتهم وأخواتهم في الإنسانيّة. هذا هو موطن عظمتهم.

لا ريب أنّ هناك مبادراتٍ إنسانيّةً خارج الكنيسة، غير أنّ شموليّة محبّة الكنيسة، نادرة المثال.

إنّها مثل المرأة الفاضلة، التي يصفها سفر الأمثال: "قيمتها تفوق اللآلئ، تأتي بالخير دون الشرّ، كلّ أيّام حياتها، تستر وسطها بالقوّة، وتبسط كفَّيْها إلى البائسين، وتمدّ يدَيْها على المساكين. لباسها العزّ والبهاء، وهي تضحك لليوم الآتي... تفتح فمها بالحكمة ولسانها يعلّم الرحمة".

الإيمان بالإنسان هو إيمانٌ بالله

«في أماكن عديدةٍ، شهدتُ أناسًا دائبين على القتل بدمٍ باردٍ، وآخرين يضحّون بذواتهم من أجل إنقاذ إخوتهم. هؤلاء الأبطال الذين يجهلون أنفسهم، ويجهلهم العالم، يسكنهم حبٌّ عنيدٌ، وإيمانٌ في الإنسان لا يُقهر. في هذا الاتّحاد الحميم الذي يتعايشون في إطاره تكمن ديناميكيّة القيامة العظمى.

"أحيّيكم أيّها الأُناس الرائعون، الذين لا ينفرون من أيّ إنسانٍ، مهما تدنّ دركات الانحطاط التي تردّى إلى قعرها. لقد حسرتم اللثام عن سرٍّ خطيرٍ. فالإنسان، حتّى عندما يهوي إلى أدنى مستويات البهيميّة يبقى صورةً مقدّسةً ولا يجوز ركله كما تُركل البهائم.

"لقد اكتشفتم واحترمتم الشعلة الإلهيّة الثاوية في الرماد، حيث تتكدّس الأحقاد وأطماع السيطرة، والجثث. وحيث يُرعب دويّ القنابل تقفون صامتين، بواسل، ومولّدي حياةٍ، وتقفزون فوق ركام الجثث كي تنشلوا من الموت من لا يزال ينبض فيهم نَفَسٌ. إنّكم الشاهد الساطع على خلق الله للإنسان على صورته، فأنتم صورة الله خالق الحياة والقيامة، حتّى إذا لم تكونوا واعين لهذا الواقع.

"الإيمان الحقّ يُدخلنا إلى محراب سرّ التجسّد، حيث تتجلّى الألوهة في الجسد، وتجمع الله بالإنسان في بساطةٍ وتبادل محبّةٍ.

"قد يبدو الإيمان صعبًا، وسط غياب الله عن مآسي البشر المريعة، ويبدو حبّ الله أمام رؤية موت أطفالٍ أبرياء، عسيرًا ولا منطقيًّا.

"هذا الواقع خبره القسّ "بون هافر"، في جحيم سجنه فيما كان هتلر يزهو بانتصاراته، وهذا ما كتبه بضعة أشهرٍ قبل شنقه:

"إنّ الله يثبت أنّه معنا ويُعيننا، باقتران قدرته الكلّيّة بعجزه عن منع الشرّ. وهو لا يغيثنا فقط بقدراته بل بضعفه وآلامه. الله المتألّم وحده يستطيع غوثنا".

"هذه الأسطر التي دوّنها بون هافر، ترتدي حلّة وصيّةٍ مدوَّنةٍ بدم شهيد الإيمان. ومن خلالها تتصالح المتناقضات، فعندما اقترن الله بالطبيعة البشريّة، من خلال يسوع، أقحم أوهان الطبيعة البشريّة بالألوهة، وأخذ بين يديه الألم، واليأس، والفشل. ومنذئذٍ بدأ الفداء، بما أنّ المرض والموت لم يعودا منفصلَيْن عن حياة الله.

"عند قمّة هرم الحياة، يتبيّن جميع الذين ناضلوا في سبيل العدل والمحبّة، في وجه يسوع المتألّق، ملامحَ الأخ المقهور الذي عاملوه معاملة أخٍ، ويسمع جميع من زاروه، وواسوه، وعالجوه، وأطعموه، ورووا عطشه، وكسوه، ترحيب الربّ، واستئهال فرح الملكوت.

"إنّها معجزة الإيمان بالله والإنسان المرتبطَيْن ارتباطًا حميمًا».

الجلجلة

«ذلك المكان هو الذي وثّق علاقة إيماني بالإنسان وإيماني بالله، في إيمانٍ واحدٍ أبديٍّ، ولطالما قضيتُ، هناك، ساعاتٍ أنهل من ذلك النبع، وشاهدتُ حجّاجًا يمثّلون جميع الأمم، يأتون، ويتخشّعون، ولكلٍّ منهم طبعهم وتقاليدهم. فاليابانيّون الأغنياء يأتون مستعجلين، على نقيض الحاجّات الفقيرات، المتّشحات بالسواد، واللواتي كنّ قد قتَّرنَ فلسًا فلسًا، مدى سنواتٍ، في سبيل حلة عمرهنّ هذه. وكنَّ يجلسنَ، ساعاتٍ، على كراسٍ صغيرةٍ قابلةٍ للطيّ مصلّياتٍ منتحباتٍ. وثمّ يأتي حجّاجٌ فضوليّون يرافقهم دليلٌ يشرح لهم بمختلف اللغات صفات الهندسة القديمة، وإثر التقاط صورٍ سريعةٍ يغادرون إلى مكانٍ آخر، ثمّ يقدم طلّاب المعاهد اليهوديّة مع أساتذتهم، وهم يتدافعون، ويهزلون.

"المفارقة تكمن في أنّ ذلك الحشد المزركش، دائم الحركة، لم يكن يحول دون استمراري في الصلاة. فقد أصبحت البشريّة جمعاء أُسرةً جسيمةً، عند تلك الصخرة، حيث مات يسوع ابن الله، وابن الإنسان. أعدادٌ غفيرةٌ من البشر تتعاقب إلى ذلك المطرح المقدّس، ولكلٍّ منها تقاليدها وثقافتها، ولكنّ يسوع أحبّها جميعًا.

"أمام الحفرة التي نُصِب فيها صليبه، شهدتُ تدفّق سيل الخطايا والموت ومنها انطلقت صيحة يسوع الوجيعة: "إلهي، إلهي، لِمَ تخلّيتَ عنّي؟" ومنذ ذلك اليوم، الذي غشت فيه الظلمة الأرض، في عزّ النهار، لم يكفّ البشر يتساءلون، جيلًا إثر جيلٍ، ومع يسوع: "لماذا؟".

"ومن ذلك القبر الذي يبعد أمتارًا قليلةً عن الجلجلة، والذي أُودِع فيه الجثمان، ارتعشت الحياة، من جديدٍ، وانبثقت من صميم الموت، مجيبةً على كلّ "لماذا؟"، مؤكّدةً أنّ الصليب والقيامة هما سرٌّ واحدٌ.

"في الجلجلة يعبُر الإنسان من المرئيّ إلى اللامرئيّ، من الزائل إلى الدائم

ويتهاوى كلّ جدلٍ، أمام الصـــخرة التي سُـــجِّي يســـوع الميت داخلها، ثمّ قام. وأمامها تبطل كلّ دروس العالم، فمأســـاة كلّ إنســـانٍ: أفراحه وأوجاعه، يتردّد صداها في هذا القبر حيث يخفق قلب العالم مع قلب الربّ الذي جاء كي يشارك البشريّة أفراحها وآلامها، حياتها وموتها. هناك، ضمَمتُ يديّ، وتمتمتُ: "يا ربّ أومن أنّك تجسّدتَ على أرضنا، وأنّ تجسّدك مستمرٌّ، على نحوٍ غير مرئيٍّ، في ظلّ كلّ إنســانٍ ذي نوايا صــالحةٍ. وأومن أنّك، بقيامتك، اجتذبتَ إخوتك البشــر إلى أبديّةٍ سعيدةٍ».

بصراحةٍ: من أنا؟

في ختام اعترافاتها أقرّت الأخت إمّانُوِيل بعيوبها، وبنعمة الربّ التي وَقَتْها من مهالك عديدةٍ.

لمّا دخلَت الدير في عزّ ثورة سنواتها العشرين كانت تحلم بأن تنحتَ في ذاتها وجه القدّيسة تيريز الطفل يسوع، الذي نضح عذوبةً إنجيليّةً. وبعدما أمضتْ سنتَيْن من الابتداء تتجرّد من عيوبها، سرعان ما تبيّنت صحّة حكمة پاسكال القائلة: "من يصطنع شكل ملاكٍ، يصطنع، في الواقع، شكل حيوانٍ". فطَبْعُها البركانيّ ما انفكّ يطلق دخانًا ونارًا، وحمَمًا كاويةً. وقد تبيّن لكلّ من حاول معارضتها، أنّها عصيّةُ الاستسلام، وأنّها لا ترضى إلّا بأن تكون هي المحقّة، في كلّ أمرٍ. وكانت والدتها قد لاحظت هذه النزعة، لديها، وصارحتها: "عندما تريدين أمرًا، تسحقين كلّ من يعارضك".

ولطالما صارحها أصدقاء بما يُقال عنها: "مؤكّدٌ أنّ الذين يدّعون أنّك قدّيسةٌ، لم يُعايشوكِ، فالقدّيسة تعترف بفضائل الآخرين، فيما أنّك لا تعترفين إلّا بفضل قليلين من مسايريكِ، وتنكرين معظم الآخرين".

كانت تحاكي ناپوليون الذي يعزو إليه وحدَه فضل ربح جميع المعارك، وهي كانت تتباهى بإنجازاتها وكأنّها حقّقتها بمفردها.

وقد اعترفت بأنّ كثيراتٍ تطوّعنَ، بصدقٍ وبحسنِ نيّةٍ، للتعاون معها، ولكنّهنّ لم يستطعنَ احتمال فرض رؤيتها ورأيها، ولم يُطِقْنَ انفرادها في القرارات الحاسمة. فقد جاءت راهبةٌ من جمعيّتها من كندا للعمل معها، في قرى الصفيح، وجهدت في تعلّم اللغة العربيّة، وتولّت العناية بأولاد جامعي النفايات، الذين افتُتِنوا برقّتها وعذوبتها،

ومحبّتها اللامحدودة. ولكنّ صحّتها لم تكن بمستوى إرادتها الطيّبة، فكانت سريعة الشكوى من تعبها، وعجزها عن إنجاز مهمّاتها. وكانت الأخت إمّانُوِيل توجّهها بشفقةٍ متعاليةٍ، متسائلةً لِمَ تلك الراهبة التي تصغرها ثلاثين سنةً، لا تستطيع احتمال ما تحتمله هي. ولم تُطِقْ تلك الراهبة موقف أختها الكبرى، فعادت إلى جمعيّتها في كندا، حيث عانت نوبات انهيارٍ وكآبةٍ، وأشاعت الذعر في قلوب أخواتها الكنديّات. وندمت الأخت إمّانُوِيل أمرَّ ندمٍ على عجزها عن استيعاب وهنِ صحّة تلك الراهبة المسكينة، وعلى إحجامها عن دعمها وعونها، وتقبّلها كما هي، مع كلّ ما قدّمته من خيرٍ لأبناء قرى الصفيح.

ولم تنسَ الأخت إمّانُوِيل، أخت المحبّة التي لم تأنف الرقاد، مثلها، على فراشٍ من قشٍّ مبسوطٍ على الحضيض العاري، وسط الجرذان، مشارِكةً معها حياة أُسرةٍ موغلةٍ في الفقر والعَوَز، وكانت تعالج أطفال الأسرة وسائر أفرادها، بفضل براعتها في التمريض، غير أنّ استمرار الأخت إمّانُوِيل في فرض أوامرها عليها، أجبرها على الرحيل.

وهذا ما حدث، أيضًا، لممرّضةٍ سويسريّةٍ، تخلّت عن وظيفة سكرتيرة سفارةٍ أجنبيّةٍ، وعن رفاه سكنها المريح في جنيف، كي تؤازر الأخت إمّانُوِيل في قرى الصفيح، ولكنّها لم تقوَ على احتمال سيطرتها، واستئثارها بقرار كلّ شيءٍ، فنأت عنها، إلى مكانٍ آخر تقدّم فيه خدماتها بحرّيّةٍ.

وقد عدّدت الأخت تجارب مؤسفةً أخرى كثيرةً مع مساعِداتٍ بلجيكيّاتٍ وسويسريّاتٍ، ومن جنسيّاتٍ أخرى مختلفةٍ خفَفْنَ لمساعدتها، ولم يحتملن سيطرتها وإيثارها لرأيها.

قليلاتٌ هنّ اللواتي ارتضيْنَ احتمال تعنّتها. والمعجزة الوحيدة المذهلة التي تحقّقت في هذا الميدان، هي معجزة تعاونها السلس المثمر مع الأخت القبطيّة سارة، التي تمادت ستّ عشرة سنةً، قبل أن تكلّفها الأخت إمّانُوِيل بإدارة كلّ مشاريعها في مصر والسودان. خلال كلّ تلك الحقبة كان تعاونهما يحاكي عربةً يجرّها حصانان في تناسقٍ وتناغمٍ، خاليَيْن من كلّ صدامٍ. وربّما يعود الفضل، في ذلك، إلى حكمة الأخت سارة، التي بفطنتها وحنكتها، لم تصطدم، يومًا، مع أختها الكبرى. فعندما كانت تلمح احتدادها وعنادها، كانت تتفادى الاستمرار في النقاش، إلى أن يعود الهدوء إلى أختها الكبرى، وتتأكّد من ضبطها أعصابها، فتستأنف النقاش ببسمةٍ، وتقول: "ألا تظنّين، يا أختي، أنّ مشروعك يستحقّ مزيدًا من البحث والدراسة؟ وحينئذٍ، كانت كلٌّ منهما تبسط رأيها وحجَجَها، بهدوءٍ، ويتمّ تفاهمٌ فرنسيٌّ مصريٌّ رائعٌ، لمصلحة الجميع.

ومن دواعي أسف الأخت إمّانُوِيل وندمها أنّها كانت كلّما استغرقت في أعمال بناء رياض أطفالٍ، ومدارس، ومستوصفاتٍ، ومآوٍ للمسنّين، كانت هذه المشاريع تسرق منها كثيرًا من الوقت الذي كان عليها قضاؤه مع جامعي النفايات، فيما هي كانت منهمكةً في مفاوضاتٍ مع سفراء، ورؤساء دولٍ، ومؤسّساتٍ كبرى، وأثرياء كي توفّر الأموال اللازمة لتلك المشاريع. وربّما دغدغ، أحيانًا، كبرياءَها جلوسُها إلى جانب عظماء العالم. وربّما ملأ نفسَها زهوًا، استدعاء زوجة الرئيس السادات شخصيًّا لها، إلى قصر الرئاسة، كي تتحدّث معها في شؤون مشاريعها في مصر.

وربّما نمّى لديها نجاحُ رحلاتها إلى أميركا وأوروبا، لهذه الغاية عينها، نشوةَ القوّة، وحلاوة الحصول على مبالغ طائلةٍ، وحرّيّة إنفاقها على مشاريعها. ولكن بقدر ما كانت الغاية نبيلةً، كان خطر الزهو بالنفس، وإهمال سكّان قرى الصفيح جسيمًا. وفي نهاية المطاف، حقّ لها أن تشكر الربّ على ما أفضت إليه مساعيها، مع إهمالها المؤقّت لمن

كرّست لهم ذاتها، من إنقاذ آلاف الأطفال من الجوع، والجهل والتخلّف والمرض، وإلى تغيير مجرى حياة سكّان قرى الصفيح، بفضل ما أشادت لهم الأخت إمّانُوِيل من مستلزمات الحياة الكريمة.

ومن دواعي فخرها، في هذا السياق، أنّها لم تُنفِق من كلّ ما جنته من أموالٍ، على نفسها سوى دولارٍ واحدٍ ابتاعت به زوج جوارب، وكذلك فعلت الأخت سارة أثناء رحلةٍ لهما إلى الولايات المتّحدة.

وفي هذا السياق اعترفت الأخت إمّانُوِيل:

«كان من شأن هشاشتي الفطريّة، وانجذابي إلى أباطيل الدنيا إيقاعي في شرك الشهرة، أو في شهوة البذخ، لولا عودتي المطّردة إلى طُهر جوّ قرى الصفيح، حيث أعود جامعة نفاياتٍ بين إخوةٍ وأخواتٍ لي، غارقين في أكوام النفايات، كنتُ أحبّهم ويحبّوني بصدقٍ، وأقاسمهم خبز التضامن اليوميّ. هناك كان فنجان شايٍ أحتسيه معهم أطيب من الشمپانيا التي تزغرد في الكأس، وتسحر العيون. وكانت رغبة الإغراء بالأقوال المشحونة بالمديح والتكريم تتبخّر أمام الحوار الأسرويّ الحميم الذي يحتلّ فيه الأولاد المكان الأثير. وكان الجلوس على الحضيض العاري، جنبًا إلى جنبٍ، أشدّ متعةً من الأرضيّات الخشبيّة الملمّعة، والمقاعد الوثيرة مُحكمة التنسيق.

"وهناك، تلاشت كلّ إغراءات الزهو بالذات، والغرور، وشهوات القوّة والسلطان، وصدحت نفسي إنشادًا، لأنّه حيث المحبّة، فهناك الله، ولأنّ نُشداني للمطلق عثر على ضالّته في المحبّة المجرّدة من كلّ بهرجٍ.

"وكانت إقامتي، في نهاية كلّ أسبوعٍ، وكلّ يوم أحدٍ، في ديري تغمرني بجوٍّ روحيٍّ صحّيٍّ ومنعشٍ، قوامه الصلوات الجماعيّة المنتظمة، والحوارات الودّيّة الصريحة، العذبة، حيث تروي كلّ أختٍ تجربتها الشخصيّة المثيرة، وأحلامها،

وإنجازاتها، وحيث يسود الفرح، وتُدوّي الضحكات. وكانت نظافة الدير، وفرصة الاستحمام، تحرّرني، ولو لساعاتٍ معدوداتٍ، من روائح الإنتان، والخنازير.

"ولا ريب أنّ تعاقب إقامتي بين قرى الصفيح مع إخوتي جامعي النفايات، ثمّ في الدير مع أخواتي الراهبات الحبيسات، قد أكسبني قدرًا من التوازن النفسيّ.

"وبالإجمال، كان حبّ يسوع هو الأقوى. فهو الذي انتشل فتاةً كانت على شفا التردّي إلى هوّة الشهوات والمجون، وأغرقها في مطهر محبّةٍ نقيّةٍ، متجرّدةٍ، معطاء. لم يحتقر يسوع وهني ونزواتي، بل أحبّني كما أنا، وحوّل طبعي الوحشيّ الجامح، المنتفخ زهوًا وأنانيّةً، بإغراقه في مستنقع الفقر والقذارة، وحمى نفسي من خلال جمعيّةٍ رهبانيّةٍ، كانت لي حصنًا ومنارةً، من جيشان الخير والشرّ في داخلي، وصاغ لي مصيرًا رائعًا. ومن تلك التي فشلت في تحقيق حلم القدّيسة الرقيقة الوديعة، على غرار تيريز الطفل يسوع، جعل أداة إنقاذٍ لطغماتٍ من البائسين.

"لقد أضرم يسوع قلبي الضيّق، بهوى حبّه الجمّ للبشر، وأسمعني ما قاله لشقيقتي المجدليّة، وغفر لي الكثير، لأنّي أحببتُ كثيرًا».

الاحتفال بالذكرى الستّين لرهبنتها

بتاريخ العاشر من شهر نوّار (الشهر الخامس) ١٩٩١، تمّ الاحتفال بانقضاء ستّين سنةً على ترهّب الأخت إمّانُوِيل، فردّدت قول العذراء: "تعظّم نفسي الربّ، فقد صنع فيَّ عظائمه".

حينئذٍ تذكّرَت أنّها، يوم ارتدائها الثوب الرهبانيّ، كانت والدتها حاضرةً، وخائفةً من عدم قدرتها على الصمود بسبب طبعها البركانيّ. ثمّ كانت رئيسة الابتداء قد حذّرتها: "إنّ الله يريدنا سعداء، فهل أنتِ متأكّدةٌ من أنّ الحياة الرهبانيّة ستكون لك نبع ازدهارٍ نفسيٍّ؟". فأجابت: "لستُ متأكّدةً فحسبُ، بل أنا أطفح فرحًا بتكريس جسدي ونفسي لله، ولإخوتي البشر".

ورغبت الأخت إمّانُوِيل، بمناسبة يوبيلها الستّين في أن يشهد بعض كبار العالم التحوّل الجذريّ الذي تحقّق في حياة منبوذي مصر، جامعي النفايات، والتقدّم الذي أحرزه أبناؤهم. فدعت جاك ديلور، رئيس اللجنة الأوروبيّة، ورئيس الجمهوريّة الفرنسيّة، الذي أوفد زوجته ممثّلةً عنه، وكلّف الأب پيير بتقليدها وسام الشرف الرفيع، والسيّدة جيهان مبارك، زوجة رئيس جمهوريّة مصر، التي حذّرها المسؤولون الأمنيّون من مخاطر الذهاب إلى تلك الأماكن الخطرة، فاعتذرت ولكنّها زفّت لها، هاتفيًّا، نبأ منحها الجنسيّة المصريّة.

١٠ نوّار ١٩٩١، الذكرى الستّون لترهّب الأخت إمّانُوِيل

الأب بيير يقلّدها وسام الشرف، بتكليفٍ من الرئيس الفرنسي

استُهلّ الاحتفال بقدّاسٍ صباحيٍّ، اشترك فيه الأسقف القبطيّ أثيناغوراس، والبطريرك المصريّ الكاثوليكيّ، وحال مرض البطريرك شنودا دون مشاركته.

وتلا القاصد الرسوليّ في مصر برقيّة تهنئة البابا يوحنّا بولس الثاني، وألقى الأُسقف اللاتينيّ في مصر عظةً، قال فيها: "إنّ الأخت إمّانُوِيل قد جاءت كي تزعج الكنيسة، وعليها أن تواصل هذه المهمّة..."

وزار المحتفلون، والزائرون الأجانب قرى الصفيح الثلاث التي عملت فيها الأخت إمّانُوِيل، وحيثما مرّت كانت تُستقبَل على قرع الطبول، وبالأهازيج والتبويق. واستمرّ الاحتفال حتّى بزوغ الفجر.

وأتاحت تلك المناسبة للأخت استرجاع ذكريات مسيرتها الطويلة، وما واكبها، وتأثيرها عليها وعلى الآخرين. فبيّنت أنّ محبّتها الرقيقة لأخواتها في الجمعيّة، ومحبّة أخواتها لها، قد لطّفتا حدّة طباعها، وأقرّت:

«لو لم أعتنق الترهّب لكنتُ تنقّلتُ من مغامرةٍ عَكِرةٍ إلى مغامرةٍ أخرى، حتّى التردّي في الفشل. ولكنّ الربّ ضبط نَهَمي إلى الحياة وحوّله إلى توخّي إسعاد الآخرين، المفتقرين إلى أسباب السعادة. وكان ذلك نبع ازدهاري.

"تناول الإفخارستيّا الصباحيّ كان يملأُني حنانًا حتّى المساء، وهذا الحنان كان ينعكس على الأولاد، وعلى الفقراء أثيري الله، انعكاسًا رائعًا. وكان اتّحادي بالربّ، بالإفخارستيّا، يتحوّل مشاركةً لأفراح الذين يحبّهم الربّ معي ومن خلالي، ولمصاعبهم.

"وأكسبتني روحانيّة جمعيّتي تكريمًا مميّزًا للسيّدة العذراء، التي غدت نفَسَ نفسي، وتنفُّس كياني. العذراء هي التي أنقذتني من الثورة ومن اليأس حيال ألم الأبرياء وموتهم، ففي غمرة أزماتي النفسيّة كنتُ أنظر إلى تمثال "البييتا Pietà"،

وأحدّق في وجه العذراء التي آلمها حتّى الموت فقدان ابنها، ولكنّها ما تردّت إلى هوّة اليأس، لأنّها كانت مؤمنةً بقيامته القريبة.

"والمسبحة الورديّة التي كنتُ أتأمّل فيها، كلّ يومٍ، كانت تُدخِلني في عمق ذلك السرّ الرهيب والعذب، الذي كان يجعل الذهن يترنّح. وكنتُ أقدّم هذه الصلاة نشيدَ حبٍّ من ابنةٍ لأُمّها. وكانت العذراء تُفهِمني أنّ ابنها الذي لم يُحجم عن مشاركة آلام البشريّة، حتّى الموت، ما زال يتجسّد في البشر، المنهارين تحت عبء آلامٍ، هم، غالبًا، مسبِّبوها. وفيما كانت حبّات المسبحة تكرّ بين أصابعي، كانت مراحل حياة يسوع تكرّ في ذهني، بأمجادها وآلامها، إلى أن تفجّرت في مجدٍ باهرٍ.

"هذا التواصل المستمرّ مع السيّدة العذراء كان يقيم توازنًا بين جسدي ونفسي، بين أهوائي ومُثُلي العليا، وهو الذي صنع نجاح وجودي في شتّى الميادين، المادّيّة والأخلاقيّة، الروحيّة والجسديّة، الشخصيّة والتواصليّة. أنا لستُ، بالفطرة، إنسانًا متوازنًا... ولكنّني استعنتُ بشعار سيّدة "غوادالوبي" القائل: "حدّق إليّ، وحلّق في طيرانك". إنّ مثال مريم المتحرّرة من كلّ شهوةٍ يحرّرني، وسجوّ نفسها في الألم، يزرع فيّ السكينة. وعندما أغمس نظري في نظرها، يتجلّى الله لي، أكثر فأكثر أبًا، ويتجلّى لي كلّ رجلٍ أخًا، وكلّ امرأةٍ أختًا لي. هذا التلاحم القلبيّ مع العذراء كان نبراسي منذ مرحلة الابتداء. وبالإجمال، كانت مريم نبع سعادتي الأشدّ صفاءً.

"لقد حظيتُ بأن أفهم أنّ تكريس ذاتي في الحياة الرهبانيّة هو دعوتي، واتّكلتُ على الربّ، لمّا خضتُ صراعًا مسعورًا مع ذاتي، بهدف ترسُّخي في جمعيّتي. قد يبدو جنونًا أن أدفن نفسي، وأنا في سنّ العشرين، في ديرٍ، وأرتبط بنذورٍ تبدو وكأنّها استعبادٌ أبديٌّ. ولكن ما حدث يكاد لا يُصدَّق، وما زال، حتّى اليوم، يُدهشني. فهذه النذور الثلاثة، الفقر والعفّة والطّاعة، قد حطّمت، في الواقع، كلّ القيود التي كانت تكبّلني، ووهبتني ولادةً جديدةً. وإذا بي إنسانٌ جديدٌ أجري برشاقةٍ، متحرّرةً: فنذر الفقر حرّرني من استجدائي الدائم لمزيدٍ من المال من

أجل إرضـــاء رغباتي في الرفاه والبهرجة، ونذر العفّة أراحني من محاولاتي الجاهدة في اجتذاب الذكور، والطاعة جعلتني أتجرّد من نزوات إرادةٍ جامحةٍ، لا عهد لها باستقرارٍ.

"والمفارقة هي أنّي، سحابة ستّين سنةً، أحسستُ ذاتي أفيض بهجةً، متحرّرة النفس والجسد، ومتأهّبةً للجري نحو إخوتي وأخواتي، في البشريّة، كي نرقص معًا رقصًا مجنونًا. وها قد بلغتُ الثمانين، وما زلتُ أشعر أنّ رجليَّ مستعدّتان للرقص. وإن كنتُ قد تذوّقتُ هذا الجَذَل وسط التقشّف الذي يفرضه عليّ تكريسي، فلأنّ النذور ولّدت لديّ تلك الطاقة الهائلة على المحبّة التي نشدتُها إلى أقصى حدٍّ من خلال حياتي الرهبانيّة.

"تعلّمتُ أن أقولَ "نَعَم"، حينَ كانت ذاتي كلّها تقول "لا". هذه الخبرة صاغت نفسي، وأعدّتها للسير، أحيانًا، نحو الموت، وراء يسوع. فعندما يستشرس المرء في مصارعة ذاته "يتخطّى الإنسانُ الإنسانَ"، على حدّ قول پاسكال.

"وحتّى في مراحل إخفاقي، كان يسوع يسكنُ في ضعفي، واقتضى منّي أن أصبح جامعة نفاياتٍ بين جامعي النفايات.

"وربّما وضعني على هامش جمعيّتي إقدامي على العيش وحيدةً في مرمى نفاياتٍ محفوفٍ بالمخاطر، لا يجسر حتّى رجال الأمن على دخوله. ولكنّ أخواتي ما انفككْن يحبِبْنَ أختهنّ، ذات الرأس الملتهب، المنغمسة في مغامرةٍ مجنونةٍ.

"في مرحلة مغامرتي الأولى، حظيتُ برئيسةٍ فهمتني ودعمتني. وقد هطلت عليّ أموالٌ طائلةٌ لدعم مشاريعي، ولكنّي أقرّ بأنّ جمعيّتي لم تطلب منّي قرشًا واحدًا، مع ما كانت تعانيه من عسرٍ مادّيٍّ. وهي حرصت على ألّا يكون لي أيّ مالٍ باسمي الخاصّ، لكي لا يرثه أحدٌ من ذويّ، ولا ترثه الجمعيّة. وكانت الجمعيّات الأوروبيّة التي تأسّست لدعم مشاريعي، هي المسؤولة الوحيدة عن كلّ قرشٍ مخصّصٍ لهذه المشاريع».

وبالإجمال، بفضل تربية والدةٍ حكيمةٍ، وبفضل رهبنةٍ استشفّت في الفتاة مادلين، المضطرمة، الجامحة دعوةً حقيقيّةً، ورسّخت فيها تقوًى منيعةً، ومنفتحةً على العالم، وفتحت لها آفاق الإخاء الشامل، خاضت الأخت معركة العيش لاثنتَيْن وعشرين سنةً وسط جامعي قمامة مصر، وتغيير حياتهم.

مع الأسقف أثناسيوس مؤسّس راهبات "بنات مريم"

مساعدة الأخت إمّانُوِيل وخليفتها الأخت سارة، رئيسة راهبات "بنات مريم القبطيّات"

مع أخوات الأمّ تيريزا

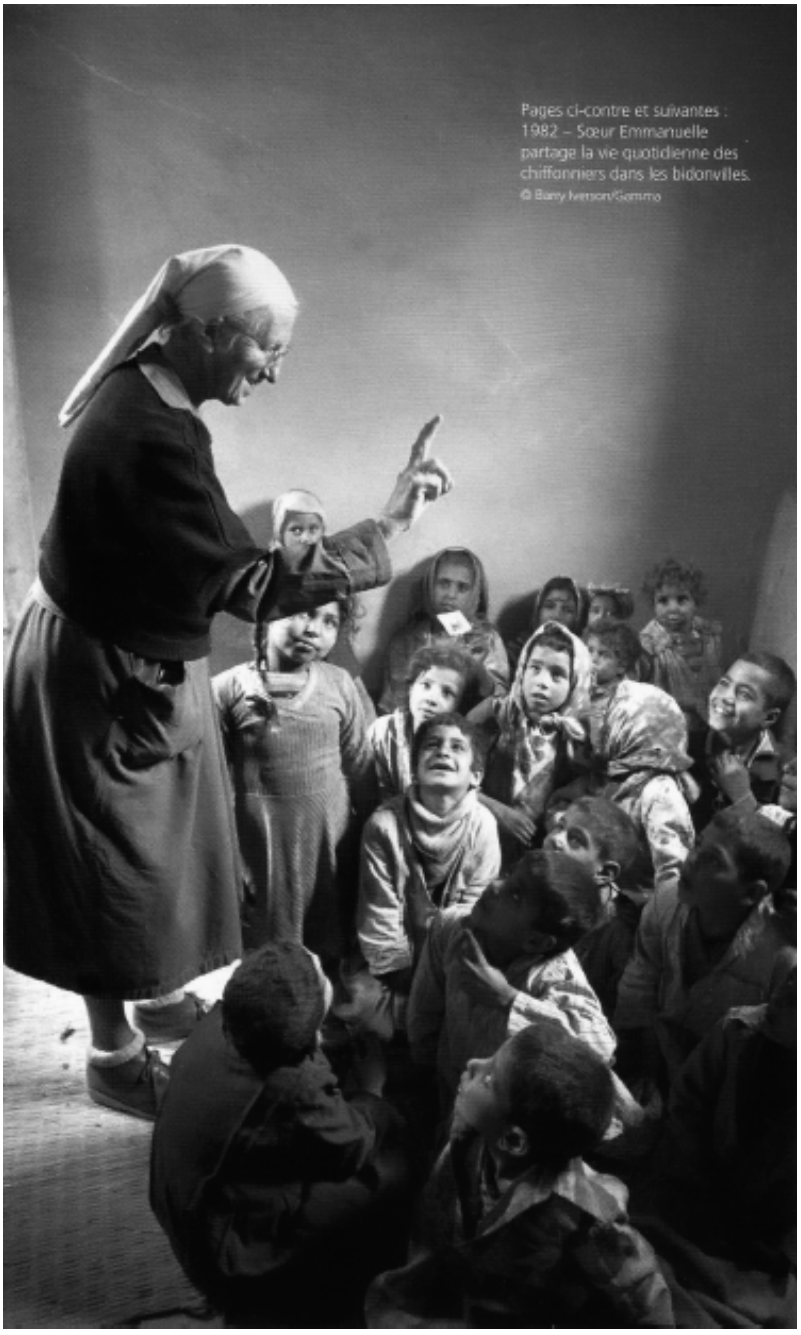

مع أبناء الزبّالين – ١٩٨٢

الأخت إمّانُوِيل والأخت سارة تدشّنان "مركز السلام"، الذي يضمّ مدرسةً، ومستوصفًا، وحديقة أطفالٍ، ومركز رعايةٍ، ومركزًا للمعاقين، عام ١٩٨٢

مسيرة يوم الجمعة العظيمة عام ١٩٩٠

الأخت إمّانُوِيل في قرى الصفيح في القاهرة – ١٩٩١
وقد عاشت فيها من عام ١٩٧١ حتّى عام ١٩٩٣

الأخت إمّانُوِيل عام ١٩٩٢

مشيّعوها أمام كاتدرائيّة نوتردام بباريس عام ٢٠٠٨

أمرٌ بالرحيل

كانت جمعيّة الأخت إمّانُوِيل قد دعتها، المرّة تلو المرّة، إلى هجر قرى الصفيح، حيث قضت سنوات تقاعدها، كي ترتاح في مركزٍ خاصٍّ للراهبات المسنّات، في فرنسا. ولكنّها، كلّ مرّةٍ، كانت ترى أنّ مضيّها إلى العيش في جوّ رفاهٍ وراحةٍ، هو خيانةٌ لإخوتها وأخواتها، جامعي القمامة، الذين سيبقون يتجرّعون كؤوس البؤس في قرى الصفيح، وسط الأقذار. فكانت تلتمس إمهالها سنةً أخرى، إلى أن وردها، في شهر آذار ١٩٩٣، أمرٌ حاسمٌ بمغادرة مصر نهائيًّا، في موعدٍ لا يتخطّى نهاية شهر آب من تلك السنة عينها.

ليلة تلقّيها ذلك الأمر، اختلت الأخت بذاتها كي تأخذ قرارًا يرضي ضميرها، ورغبة رئيساتها، في آنٍ واحدٍ. في هذه الأثناء كانت الأحوال قد تبدّلت كثيرًا، فحياة قرى الصفيح كانت نعمت بالعديد من التطوّرات الإيجابيّة الجوهريّة، فتحرّرت تحرّرًا واسعًا من الجهل، والمرض، والتخلّف، وظفرت بسكنٍ لائقٍ، وزُوِّدت بالماء والكهرباء والمستوصفات والمدارس، وكانت الأخت القبطيّة سارة، والأخوات المساعدات لها، قد أحكمنَ إدارة الوضع في قرى الصفيح، وفقًا للروح الذي أشاعته الأخت إمّانُوِيل، وهي كانت مقتنعةً أنّها بصلواتها ستؤتي أخواتها دعمًا متينًا، وأنّ أصدقاءها الأوروبيّين سيستمرّون في ضخّ الأموال اللازمة للمضيّ بمشاريع الأخت في تطوّرٍ مستمرٍّ نحو الأفضل.

وفي هذه الأثناء، كانت الأخت قد تلقّت نداءات استغاثةٍ مقلقةً من أوروبا، حيث يدفع اليأس شبّانًا كُثُرًا إلى الانتحار. وكانت خبراتها قد علّمتها أنّ إنقاذ إنسانٍ من الجوع ليس عسيرًا، ولا سيّما أنّها كانت قد توفّقت في توفير طعامٍ يوميٍّ لثلاثين ألف طفلٍ سودانيٍّ، بفضل التضامن الإنسانيّ الذي ما زال حيًّا وسخيًّا، في حين أنّ إنقاذ

نفسٍ جريحةٍ حتّى الموت، هو أمرٌ شبه مستحيلٍ. فالذين ترعرعوا على الحرمان، قلّما يفكّرون بالانتحار، أمّا الذين اعتادوا الرفاه، فيعسر عليهم احتمال حرمانهم منه، ومنذ الصدمة الأولى تتوارد إلى نفوسهم رغبة إنهاء حياتهم.

ومن ثمّ أيقنت أنّ عليها مهمّةً جديدةً تتمثّل في أن تنقل إلى الربّ صيحات مَن لم يعودوا يستطيعون الصياح، والذين يموتون صامتين، ونفوسهم تئنّ ألمًا من الوحدة الجليديّة التي تجعلهم يتمنّون الموت. كان عليها أن تهتف، ليلَ نهارٍ، إلى الربّ طالبةً الرحمة بإخوةٍ وأخواتٍ لها في أوروبا انتهوا إلى شفا الهوّة، لعلّهم يحدّقون إلى المصلوب، الذي قدّم حياته من أجل خلاصهم، والذي حزن، هو أيضًا، حتّى الموت.

وفي الآن عينه، لم يغرب عن بالها كم ستكون صلواتها ثمينةً من أجل أصدقائها جامعي النفايات، ومن أجل الأخت سارة ورفيقاتها القائمات على خدمة الزبّالين وأولادهم وأُسرهم.

وبالإجمال كانت أوضاع قرى الصفيح قد وصلت إلى حالٍ تتيح الاستغناء عن بقاء الأخت إمّانُوِيل شخصيًّا فيها.

أمر رئيساتها قادها، إذن، إلى اليقين بأنّها بلغت مرحلةً يتوقّف فيها الوقت ويعجز الجسد عن الجري، وبأنّ مهامّها باتت موقوفةً على الصلاة. غير أنّ شعورًا مبهمًا بعدم استساغتها تقرير مصيرها بمنأًى عنها، قد أنذرها بأنّها لم تبلغ بعدُ مرحلة التجرّد التامّ، بعد أربعٍ وستّين سنةً من الحياة الرهبانيّة. وأنّ ساعة التجرّد الكلّيّ، والحبّ الأكبر قد حانت، فهتفت بسعادةٍ وفرحٍ: "نَعم". ورحلت.

وداعٌ فَرِحٌ

حان الموعد الذي حدّدته رئيسات الأخت كي تغادر مصر، ورغبت في أن يكون وداعها بهيجًا، وفي أن تذيق المهجّرين السودانيّين، قبل رحيلها، حلاوة فرحٍ، ولا سيّما أنّهم كانوا مكدّسين، كلّ ثمانية أفرادٍ، وأحيانًا، كلّ عشرةٍ، في غرفةٍ واحدةٍ ضنكةٍ، معانين القيظ الخانق.

وكان "بيت السعادة" الذي ابتَنَتْه الأخت إمّانُوِيل، والأخت سارة على شاطئ الإسماعيليّة، لكي ينعم فيه جامعو القمامة بسُويْعات راحةٍ ونقاهةٍ في مياه البحر، مزدَحِمًا، في تلك الفترة من السنة، بجامعي القمامة المصريّين. ولكنّ الأخ بولاد، رئيس مدارس الإخوة، استعار مساحةً شاسعةً من الشاطئ تخصّ مؤسّسة "كاريتاس"، ونصب فيها خيامًا، وقدّمت سيّدةٌ مصريّةٌ كريمةٌ مساهمتها من أجل توفير نقاهةٍ لخمسين فتًى سودانيًّا، جاءت بهم إلى هناك، وأشبعتهم فِراخًا وبطّيخًا، وأتاحت لهم قضاء نهارهم منغمسين في المياه المنعشة، وقبل رقادهم في خيامهم، احتفلوا بسهرة وداعٍ للأخت التي أحبّتهم وأحبّوها، على وقع رقصاتهم التقليديّة الحماسيّة المرفقة بأهازيجهم، وموسيقى آلاتهم البدائيّة.

ولمّا أذنت ساعة الفراق تحلّق الجميع حول "أبلتهم"، أختهم الكبرى، وانطلقت من عشرات الأفواه أصوات قبلاتٍ رنّانةٍ، طافحةٍ محبّةً وعرفانَ جميلٍ، وهتاف: "ربّنا معكِ".

وفيما كانت السيّارة تنطلق ألقت الأخت نظرةَ وداعٍ على الوجوه الحبيبة الدامعة، وعلى المياه المتموّجة على ضوء القمر، وهتفت، من أعماقها: "شكرًا، يا ربّ".

المرحلة الأخيرة

كانت الأخت إمّانُوِيل التي خاضت حياةً حافلةً بنشاطٍ لا يفتر، وخَبَرت محن الشيخوخة، قد أعادت النظر في ماضيها، وشكرت للربّ كلّ ما حقّقه فيها، ومن خلالها.

كانت قد تخيّلت أنّها ستعود إلى فرنسا كي تموت فيها، ولكنّ تلك المرحلة الأخيرة تمادت أكثر من كلّ توقّعاتها، فبرزت أمامها توجّهاتٌ رسمت لوجودها طريقًا جديدةً، وطرحت عليها تساؤلاتٍ مستحدثةً، وأكرهتها على المزيد من التعمّق، والتأهّب النهائيّ للأبديّة.

لفظة التقاعد تعني الانكفاء، وإيقاف المعركة والاستقرار والسكون. أمّا لها فكان التقاعد يعني الانغماس في الخشوع والصلاة. وفضلًا عن ذلك، ما انفكّت تنهال عليها دعواتٌ من كلّ صوبٍ ولونٍ: رسائل، وهواتف، وفاكسات، ودعواتٌ إلى محاضراتٍ، ومناظراتٍ، ولقاءاتٍ، غير أنّها، رضوخًا لنصائح رئيساتها، اكتفت باتّباع وتيرة حياة المسنّين المجتمعين في مأوًى، وارتضت بادئ الأمر ألّا تكون حاضرةً لأحدٍ، وأن تتوارى.

ولكنّها لم تُطِقْ أن تتحوّل سنواتها الأخيرة إلى جفافٍ كلّيّ جسديٍّ ونفسيٍّ، وآثرت انطلاقةً جديدةً لغوث المآسي البشريّة. وتذكّرت قول رئيسة الابتداء لها: "دعي آلام العالم تجرح نفسك"، وكأنّه صدًى لقول الأب پيير: "عندما تتوجّع أنت، أتوجّع أنا". هذا التعاطف كان ينبع من غوصها في قلب الربّ. ولا ريب أنّ انقطاع العلاقات المفاجئ يوجع نفس الذين اعتادوا النشاط الدائم.

من المحقّق أنّها لن تستعيد النشاط المحموم الذي طبع سنوات رسالتها الأولى، ولكنّها من خلال تأمّلها في الكتاب المقدّس، والصلاة، بقيت منفتحةً على قضايا العالم.

ومع أنّ الأخوات المسنّات اللواتي كانت تشاركهنّ مأواهنّ، رسمنَ لها صورةً قاتمةً لما انتهت إليه أوروبا روحيًّا، مؤكّداتٍ استحالة إصلاحها، إلّا أنّها ازدادت انغماسًا في الصلاة، كي تنأى عن ذلك الجوّ الجهنّميّ، وتفتح كوّة نورٍ في جدار اليأس. وهي على نقيض المتشائمين كانت مؤمنةً بأنّ ثلّةً من الشبّان المتعطّشين إلى العدل، كانوا يتأهّبون للكفاح من أجل ترسيخ السلام والمساواة والمشاركة بين الجميع.

ولكم استرجعت في خلوتها، بفرحٍ وعرفان جميلٍ وشكرٍ للربّ، وجوهًا حبيبةً، وجوه أبناء البلدات التي عملت فيها، ووضعت فيها الكثير من الثقة والأمل في استمرار ما كانت تنشئه، فلم يغِبْ، قطّ، عن ذاكرتها وجه لبيب المصريّ، الذي فقد إحدى ساقيه، واستخدم درّاجةً للتجوّل، وكان لها الدليل الذي لا يكلّ إلى كلّ مكانٍ، ومفتاح كلّ الأبواب المغلقة، والترجمان، والمساعد الأمين.

ولم تنسَ، يومًا، عينيْ تادروس السودانيّ، صاحب الوجه الأسود المستدير، والنفس المتألّقة، نقاءً.

وواكبتها، في كلّ حينٍ، ذكرى حواراتها البنّاءة مع الأخت القبطيّة سارة، حول طبق الفول اليوميّ، وحكمة تلك الأخت في معالجة الأمور، بفضل معرفتها العمليّة لنفوس المصريّين، وأثرها على لجم اندفاع الأخت إمّانُوِيل، أحيانًا، من أجل مصلحة الجميع، ومنها تعلّمت جدوى العمل الجماعيّ.

الكتابة

من بركات الشيخوخة أنّها أتاحت للأخت إمّانُوِيل، الإكباب على الكتابة، التي كانت قد استهلّتها في مصر، بتشجيع كاهنَيْن يسوعيَّيْن. ولمّا استعادت الكتابة في شيخوختها، استعانت بكاهنٍ شابٍّ، رفيع الثقافة، مكلّفٍ بتثقيف الكهنة. فكان يراجع كلّ ما تكتبه، ويُصلح ما قد يتسرّب إليه من أخطاءٍ لاهوتيّةٍ، وينسّق بين المقاطع، كي يكسبها ترابطًا وتناسقًا. ثمّ اتّخذت الأخت من ذلك الكاهن معرّفًا لها، فدعاها إلى الكفّ عن الاعتماد المفرط على ذاتها من أجل إصلاح أخطائها، والاستعاضة عنه بالتوغّل في التوكّل على رحمة الله اللامحدودة، التي تساعدنا على تحويل مسيرتنا إلى ما يرضيه.

وكانت الأخت، منذ بدء إقامتها في قرى الصفيح، والتماسها مساعداتٍ مادّيّةً من أجل تحسين أوضاع جامعي النفايات، ومنذ بدء انهيال الأموال عليها لهذه الغاية، قد أصدرت نشرةً دوريّةً بعنوان "رسالة القاهرة"، تدوّن فيها كلّ ما يردها وكيفيّة إنفاقه، قرشًا قرشًا. وطالبتها قارئاتٌ بسرد حكاياتها مع جامعي النفايات، فدبّجت كتابًا، يحمل عنوان "جامعة نفاياتٍ بين جامعي نفاياتٍ". ولكن، من جرّاء عدم الترويج لذلك الكتاب الطريف، كاد يمرّ مرور الأشباح، ما خلا تصريحات إعجابٍ وثناءٍ قليلةً.

وفي غروب حياتها شعرت بواجب إعلان أنّ الربّ هو الذي كان يدفعها في اتّجاهاتٍ تخالف نزعاتها الفطريّة. ولذلك أرادت إعلام الجميع أنّ كلّ ما فعلته يعود فضله إلى الربّ وحده، وخطر لها أن توضح ذلك الواقع من خلال "اعترافاتٍ"، حيث كشفت النقاب عن مواطن وهنها، وعن كلّ ما أغدقه الله عليها، من أجل غوث إخوته المهمّشين.

وبهذه المناسبة أعلنت:

«حياتي كانت نشـــوةً دائمةً، أشـــعر معها أنّي أقفز فوق العقبات، وفي الآن عينه أنّي لســت، بذاتي، شـيئًا، ولكنّني كلّ شـــيءٍ، بحبيبي الإلهيّ، الممســك بيدي، والذي يحبّني (على علّاتي)، كما أنا".

"وبالإجمال، أريد أن يدرك الجميع أنّني، بذاتي، لســتُ ســوى فقرٍ ووهنٍ، وأنّ كلّ ما يلقي عليّ ألقًا، هو ما ألبسني إيّاه حبيبي الإلهيّ».

وفضلًا عن كتاب "اعترافات راهبةٍ"، أصدرت كتبًا عديدةً، منها:

- الآخرون هم الفردوس
- يلّا إلى الأمام أيّها الشباب
- غنى الفقر
- أنا أسعد امرأةٍ في الدنيا
- ألف سعادةٍ وسعادة
- يسوع كما أعرفه
- وصيّتي الروحيّة

ومن خلال هذه الكتب، أجرت حواراتٍ جديدةً مع الناس، ونفدت إلى أعماق كثيرين، وشاركتهم خبرتها في الحياة، وبيّنت لهم روعة الحياة الموقوفة على خدمة المحرومين.

وقد أغنت هذه الكتب حواراتها مع الله والبشر، ووحّدت حياتها ونظمتها في سلكٍ واحدٍ متواصلٍ.

إنهاض الهابطين إلى أدنى دركات الانحطاط

أيّامُ تقاعد الأخت إمّانُوِيل الأولى كانت كارثيّةً. فالراهبة المسؤولة عن العناية بها كانت ترفض بانتظامٍ كلّ نداءٍ موجّهٍ إليها من أيّة جهةٍ، فيما هي كانت تشعر أنّها ما زالت قادرةً على تلبية العديد من نداءات الاستغاثة. فكانت تمضغ حزنها صامتةً، وتعضّ على لجامها متألّمةً. وأحسّ الأب فيليب أسّو، معرّفها، بآلام خيبتها وانبرى لإنقاذها، فأقنع رؤساءها بأنّ طريقة العيش المفروضة عليها في دار التقاعد، تناقض دعوتها بأن تكون على مقربةٍ من الفقراء والمُبْتَلين، وأن تبلّغ العالم رسالة خدمةٍ ومحبّةٍ. وأخيرًا سُمِح لها بأن تكون هي المسؤولة عن قبول أو رفض دعواتٍ، وطلبات استغاثةٍ. ومنذ الوهلة الأولى أعلنت أنّها لن ترفض دعوةً إلى غوث محتاجٍ.

ولبّت دعوة جمعيّةٍ مهتمّةٍ بإغاثة من لا مسكن لهم، ومنذئذٍ، شغلت هذه المهمّة كلّ ساعةٍ من حياتها، طالما كان لا يزال لديها قدرةٌ على ذلك. واستُؤجِرت لها غرفةٌ صغيرةٌ في منطقةٍ مرذولةٍ ومهملةٍ، لكي تكون طوال أيّام الأسبوع قريبةً من روّاد تلك المنطقة، الذين كانوا قد بتروا كلّ علاقةٍ لهم بأُسَرِهم وبالمجتمع كلّه.

وكم من اعترافاتٍ ونجاوى مريعةٍ استمعت إليها الأخت، ومنها أدركت أنْ حتّى أولئك المعزولين، المنبوذين، الذين يُعَدّون حثالة المجتمع هم إخوتها وأخواتها في الإنسانيّة، وقد تردّوا إلى وهاد الانحطاط الأقصى، من جرّاء أحداثٍ مؤلمةٍ حافلةٍ بالمظالم والألم.

أحدهم، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، روى لها بعباراتٍ متقطّعةٍ جريحةٍ أنّه رأى أمّه تغرس سكينًا في صدر والده، الذي كان دائبًا على ضربها أمام أولادها.

وآخَر أخبرها أنّه كان ما زال في الخامسة من عمره، عندما فرّت به أمّه وبأخته الصغرة، هربًا من والدٍ سكّيرٍ، كان يُشبع أطفاله ضربًا بالعصا، يوميًّا. ثمّ أردف بصوتٍ يكاد لا يُسمَع: "من جرّاء حاجة أمّي إلى مالٍ تطعمني به، كان رجالٌ يتعاقبون على مسكننا. وقد مقتني أحدهم، مقتًا لم أفهم له سببًا، وذات يومٍ، أوسعني ركلًا بقدميه، ورماني في الشارع، وكنتُ، حينئذٍ في الخامسة عشرة، لا أملك سوى قميصٍ وبنطالٍ.

جميع ضحايا تلك المظالم كانوا يبحثون، في كلّ مكانٍ، عن عملٍ، بلا طائلٍ. فكانوا يحاولون نسيان مآسيهم بالسكر، ثمّ ينتظمون في سلسلة السرقة والتواري عن الشرطة، مردّدين لازمة أغنية: "والأدهى هو شعورنا بأنّنا محتَقرون، يتّقينا المجتمع اتّقاءه اللصوص".

والعجيب أنّ أولئك البائسين، بمجرّد شعورهم بوجود مَن يستمع إليهم باحترامٍ، ويفهمهم، ويحبُّهم، ينقلبون فجأةً، ويرغبون في الاغتسال، وارتداء ثيابٍ نظيفةٍ. ولكنّ المشكلة الكأداء كانت انتشالهم من آفة الكحول والمخدِّرات. ففي المساء كانوا يجتمعون في أماكن مهجورةٍ، وغالبًا ما يُسرفون في معاقرة خمورٍ رخيصةٍ ضارّةٍ، ويتعاطون مقادير مفرطةً من المخدِّرات تودي بهم إلى الموت، مثل الكلاب الشاردة.

ودُعيَتْ، يومًا، الأخت إمّانُوِيل، إلى وداع أحدهم قبل إغلاق نعشه، وأقرّت إثر ذلك: "في تلك اللحظة أقسمتُ على الكفاح بكلّ كياني، من أجل إنقاذ هؤلاء الشبّان المندفعين إلى حتفهم بذواتهم، غير مكتفيةٍ بسكب دمعة حزنٍ. أليس كلٌّ منّا مسؤولًا عن مصير الآخرين؟ أَوَليست هناك، وحدةٌ أساسيّةٌ بين جميع البشر؟ لو كنت أنا أيضًا في ظروفٍ شبيهةٍ بظروفهم، أما كنتُ تردّيتُ إلى حيث تردَّوا؟".

وبما أنّ هذه المهمّة الخطيرة تستلزم جهدًا جماعيًّا دؤوبًا، تألّفت، من حول الأخت، لجنةٌ هدفها توفير مأوًى يستقبل نهارًا وليلًا، من لا مسكن لهم، وحَرِص أفرادها على

إقامة هذا المأوى، في قلب الطبيعة، من أجل تسهيل إعادة تأهيل المدمنين. ولكن، للأسف لم يرضَ عمدة أيّة قريةٍ السماح لهم باستئجار أرضٍ في منطقته، لأنّ مزارعي تلك المناطق يرفضون إدخال مشرّدين إلى ديارهم، لأنّهم يرون فيهم خطرًا على مجتمعهم.

غير أنّ رئيس غرفة زراعةٍ في منطقة "ڤار" (Var)، تعاطف مع المشروع الإنسانيّ، وأقنع وزير الزراعة، بإعطاء فريق الأخت إمّانُوِيل رقعة أرضٍ يُسمح بالبناء فيها، من أجل إقامة مركز تثقيفٍ زراعيٍّ، يهب العاملين فيه بعد تأهّلهم، شهادةً زراعيّةً، تخوّلهم العمل في ميدان الزراعة، أينما شاؤوا.

وانتهى إصرار الأخت ومعاونيها بالانتصار.

فرحة الحصاد

عام ١٩٩٧، عهدت الأخت إمّانُوِيل أيّامًا مترعةً سعادةً، فقد تسنّى لها الطواف في ساحات جهادها، ومشاهدة غلال ما زرعت في حقولها، وقطف ثمارها اليانعة.

تذوّقت فرحتها الأولى في القاهرة، حيث حضرت تدشين ثانويّةٍ للفتيات اللواتي حصلنَ، في النّهاية على إمكانيّة تمديد فترة دراستهنّ حتّى البكالوريا. كم كنّ فخوراتٍ، وكم سعدت هي بمشاركتهنّ فخرهنّ، الذي كان لها فضل تحقيقه!

ثمّ طافت برفقة الأخت سارة، في شوارع قرى الصفيح القديمة، حيث اختفت تمامًا مناظر فتيانٍ نصف عراةٍ وقذرين، كانوا، في هذه الأثناء، يتعلّمون في مدارس تتألّق نظافةً. واختفت، أيضًا، جميع الأكواخ المصنوعة من تنكٍ صدِئٍ، ونهضت محلّها أبنيةٌ من آجرٍ، مزوّدةٍ بالمياه الجارية والكهرباء، وتزغرد فيها آلات حياكةٍ ونسيجٍ، تشغّلها نساءٌ راغباتٌ في دعم دخل أُسَرِهنّ. وكنّ قد تلقّينَ تدريبًا على تشغيلها في بناءٍ جديدٍ ملاصقٍ لمعمل السماد العضويّ، بفضل حركةٍ اجتماعيّةٍ، أطلقتها "يسريّة ساويروس" بمساعدة نساءٍ فاضلاتٍ مندفعاتٍ غيرةً وسخاءً.

ومن القاهرة، طارت الأخت إلى الخرطوم، حيث طاف بها كمال تادروس، على متن سيّارة جيپ، وأراها مدارس ملأى بفتيانٍ أنقذتهم من الموت جوعًا، وسعدت برؤيتهم، وقد امتلأت وجوههم، واشتدّت عضلاتهم، فعبّروا لها عن شكرهم بسبب فضلها في نجاحهم بالدروس. فاطمأنّت إلى مستقبلهم. وفي ضواحي الخرطوم تناولت جبنةً وخضارًا أنتجها فتيانٌ، كانت قد افتتحت لهم مركزًا زراعيًّا، وكانت عيونهم تتألّق فرحًا وافتخارًا، وشكرًا. وقد أهدوها حذاءً من صنعهم، وجاءت به ذكرى غاليةً، وأثلج صدرها مشهد السعادة المتفجّرة منهم تفجُّر مفرقعاتٍ ناريّةٍ.

هذه العودة إلى ساحة جهادها، ضخّت نسغًا جديدًا فوّارًا في جذور شجرتها العتيقة، وغمرت نفسها رضًى. وازدادت رضًى وبهجةً لمّا عادت إلى فرنسا حيث علمت أنّ مؤسّسة أصدقائها في بلجيكا، بعد دعمها نشاطات جامعي نفايات القاهرة، قد أكبّت على مساندة السودان، حيث كانت الحرب والمجاعة تفتكان بالبلاد والعباد.

وكانت، أيضًا، مؤسّسة أصدقائها في فرنسا قد عاضدت أسقف رعيّة توريت، في جنوبيّ السودان، المطران "تابان"، الذي كان يُعَدّ أكثر أساقفة العالم بسالةً وجرأةً، ولا سيّما أنّه كان، في رعيّته يُغيث المسيحيّين والمسلمين بلا تفرقةٍ، ولم ترُقْ هذه المساواة لأيٍّ من الطائفتَيْن، فعدّه المسيحيّون خائنًا وسجنوه، ولمّا أُفرِج عنه، عدّه المسلمون خائنًا وسجنوه أيضًا. ومع ذلك، كان حالما يُطلق سراحه من السجن، يستعيد النهج ذاته، بلا وَجَلٍ.

وقد ضاعف سعادة الأخت علمها بأنّ رئيس جمعيّة أصدقائها في بلجيكا "پيير جيهو" (Pierre Gehot)، كان يسافر بانتظامٍ إلى "توريت" حاملًا مساعداتٍ للأسقف تابان، لا تُرهبه عصابات اللصوص هناك، ولا تردعه السيول الجارفة. وحينئذٍ، استعانت الأخت بصديقها القديم الوزير الفرنسيّ برنانر كوشنر، الذي استصحب السيّد "جيهو" رئيس جمعيّة أصدقائها في بلجيكا إلى جنوبيّ السودان، وأقاما، هناك، في الأدغال مشفى طوارئ، وكان للتعاون الفرنسيّ البلجيكيّ، أثرٌ فعّالٌ.

أمّا أصدقاؤها في باريس وداعموهم، فكانوا قد انتشلوا من الأُمّيّة، والدعارة، والهلاك، ستّين ألف ولدٍ في مختلف أقطار العالم. وكان متطوّعون أشدّاء، مفتولو العضلات، وملتهبو القلوب يساعدون بنّائين على إشادة مدراس، ومساكن ومستوصفاتٍ، في كلّ مكانٍ مهمَلٍ، ولا يخشون مشاركة أبناء العالم الثالث، قسوةَ حياتهم وشظفها.

وكان فريقٌ منهم قد قصد سجونًا في الفيليبّين، حيث يقبع فتيانٌ مهمَلون، فأسبغوا عليهم محبّتهم، وثقّفوهم، وأحيوا فيهم الرجاء، وحبّ الحياة، فدوّت تلك السجون بالضحكات والأغاني. وقد شهد أحد المتطوّعين، إثر عودته: "إنّ عيشنا مع أولئك المحرومين غيّر جلدنا وأغنانا. فهم دائمو الأُهبة لمشاركة الآخر الزهيد الذي يمتلكونه، ويشيعون دفئًا إنسانيًّا، نحن نجهله في بلداننا. وقد ساعدونا على تذوّق الفرح، والتعايش الودّيّ، والترحيب بالقريب، بأن ينظرَ بعضهم إلى بعضٍ، ويسمعَ بعضهم بعضًا، ويتعاضدوا بمحبّةٍ صادقةٍ".

وفي سنّ التسعين، خاطرت الأخت إمّانُوِيل بالسفر إلى "بوركينا فاسّو"، التي تفوق مساحتها أربعة أضعاف مساحة فرنسا، من أجل دعم امرأةٍ فرنسيّةٍ باسلةٍ، لا عهد لها بالخوف، كانت قد أقامت مأوًى لأولاد الشوارع، المعتادين على شهر سكاكينهم للطعن، لدى أوّل صدمةٍ، وأطعمت أطفالًا كان سوء التغذية قد حوّلهم خروقًا، وغذّت أمّهاتهم الجائعات، واستعانت بمتطوّعاتٍ فرنسيّاتٍ على إطعام أطفالٍ تتراوح أعمارهم بين سنتَيْن وسبع سنين، وبَنَت لهم روضتَيْن.

وأحدثت الأخت إمّانُوِيل، فضلًا عن ذلك، مشروعَيْن رائدَيْن: مدرسةً زراعيّةً ارتضى تمويلها جاك ديلور رئيس اللجنة الأوروبيّة آنذاك، وبرنامجًا لمكافحة السيدا، أشرف عليه الوزير الفرنسيّ رئيس مؤسّسة "أطبّاء بلا حدودٍ": بيرنار كوشنر".

وبالإجمال، كانت كلّ مشاريعها السابقة يتابع عملها ويطوّرها متطوّعون ذوو نفوسٍ متأجّجةٍ حبًّا وسخاءً، وينعمون بكفاءةٍ عاليةٍ. وقد تولّى إدارة مشاريعها الجديدة خبراء محلّيّون وأجانب يتميّزون بديناميّةٍ خلّاقةٍ، وبطاقاتٍ لا عهد لها بكلَلٍ.

فغمر نفسَها السلام.

من المرارة إلى الدهشة: تجسُّدٌ

عجز الأخت إمّانُوِيل عن رفض أيّة دعوةٍ أدخلها في دوّامةٍ. فالمؤسّسات المهتمّة بتمويل مشاريعها في مصر والسودان، وسواها من بلدان العالم الثالث، والمنتشرة في فرنسا وسويسرا وبلجيكا، لم تنفكّ عن دعوتها إلى الظهور وإلى التحدّث على أثير الإذاعات وشاشات التيليفزيون، استنفارًا لسخاء المتبرّعين.

وقد طلبت منها رعيّةٌ في النمسا حضورها، فلم تستطع رفض دعوتها بسبب سخاء عطائها لمشاريعها. ولكم حاضرت في كنائس غاصّةٍ بالمستمعين! ففي كنيسة "باري لي مونيال" (Paray-le-Monial)، احتشد سبعة آلاف شابٍّ، تتراوح أعمارهم بين ثماني عشرة وخمسٍ وعشرين سنةً، من أجل الاستماع إليها. وفي باريس شاركت مليون شابٍّ قادمين من شتّى بقاع العالم، بمناسبة يوم الشبيبة العالميّ، ترحيبهم الحماسيّ بالبابا يوحنّا بولس الثاني. وكان شبّانٌ مقدمون على الخطبة يحدّثونها عن استعداداتهم الروحيّة، ومتزوّجون حديثًا يدعونها إلى موائدهم.

هذه المظاهر والأحداث أنستها تشاؤم أخواتها المتقاعدات يوم انضمامها إليهنّ، وأقنعتها بأنْ ليس كلّ شيءٍ متعفّنًا، كما صوّرنَه لها، ففي كلّ خطوةٍ كانت تشهد دلائل صحّةٍ جسديّةٍ وروحيّةٍ. واستمرّت تحاول إيلاء وقتٍ كافٍ للصلاة، وسط هذه الدوّامة المدوّخة. ومع ذلك، كانت تسمع، من كلّ صوبٍ، دعواتٍ إلى الإقلال من تحرّكاتها، وقد نصحها معرّفها بتكريس وقتٍ أطول للمكوث في جمعيّتها، كي تجدّد طاقاتها الروحيّة، وتستغرق في التأمّل، والجهد وكي تلجم طبعها الجامح، دائم التحفّز للتوثّب، حتّى في سنّ الخامسة والتسعين، في محاولة تفتير جيشان نشاطها.

لقد اجتذبها تيّار الإعلام، الذي ضاعف شهرتها، والشهرة كانت تضاعف الدعوات

الموجّهة لها. وكانت قد أغرقها، في غفلةٍ عنها، المدائح، التي مع كونها فقاقيع، كانت تملأ نفسها زهوًا، حتّى كاد إسرافها في الظهور ينسيها نفسها. ولكنّ أمّها العذراء كانت ساهرةً عليها، فقرعت في داخلها ناقوس الخطر، وجعلتها تدرك أنّ كلّ ما يحدث لها في الخارج، إنْ هو سوى طعامٍ خدّاعٍ.

لقد أدخلتها مرحلة التقاعد في دوّامة نشاطاتٍ جديدةٍ، وأوقعتها في تنازعٍ دائمٍ: بين الاندفاع إلى الخارج والكَلَف برأي النّاس فيها، من جهةٍ. وصوتٍ رقيقٍ داخلها يذكّرها ببطلان كلّ ذلك، من جهةٍ أخرى.

ربّما أشاع هذا التمزّق، في نفسها، طعم المرارة، ولكنّه لم يودِ بها إلى احتقار كلّ شأنٍ إنسانيّ. وقد أفضى بها ذلك التمزّق النفسيّ إلى حالةٍ نفسيّةٍ، اعترفت فيها بضعفها ونقائصها وفراغها، والقناعة بأنّها لم تمارس، بعدُ، الفقرَ الحقيقيّ، فقرّرت الدخول إلى صُلبه، مُدرِكةً أنّ الفقر بالروح ليس عدم الامتلاك فقط، ولا هو العيش مع الفقراء ومن أجلهم، بل هو اعتراف الإنسان بعدَمه، وتقبّل هذا العدم، في المسيح المتجسّد. وتذكّرت قول الربّ للقدّيسة كاترينا السيينّاويّة: "إعلمي أنّي أنا الكائن، وأنّك لستِ كائنةً".

الفقر الحقيقيّ الذي يخلّص العالم، هو، إذن، فقر المسيح، كلمة الله الذي صار جسدًا، والذي وحده، عقد معاهدةً بين الكائن واللاكائن. وهذا التحوّل لا يتمّ إلّا في نفحةٍ إلهيّةٍ، وفي انسجامٍ حميميٍّ مع ابن الله.

وبهذا الوضع النفسيّ الجديد، نالت الأخت إمّانُوِيل تحرّرها. فكتبت تقول:

«لا يتحرّر المرء تحرّرًا تامًّا، أبدًا، وأنا، من خلال ضعفي تعلّمت التحرّر شيئًا فشيئًا، دقيقةً فدقيقةً. وتذوّقتُ ما قاله الربّ للأخت القدّيسة فوستينا: "بقدر جسامة بؤس الإنسان، يكبر حقّه برحمتي».

وهكذا عبرت الأخت من المرارة إلى الدهشة، وأدركت عمق مغزى التجسّد، الذي

يُضفي على كلّ شأنٍ إنسانيّ، قيمةً عند الله. وأدركت أنّ لكلّ كائنٍ بشريٍّ قيمةً عند الله. وبغمسها عينيها في عيني الله، عمّقت معرفتها للإنسان، فنظرة الله إلى الإنسان هي، دائمًا، نظرة احترامٍ وفهمٍ، وتسامحٍ، نظرة أبٍ وأمٍّ حيال ضعف أبنائهما. وأيقنت أنّ الله هو المدافع الأمثل عن القضايا العسيرة، لأنّه، وحده، يعرف دهاليز القلب وسراديب الحياة، أكثر ممّا يعرف الإنسان نفسه. وأقرّت:

«كانت المؤسّسات الجاهدة في تمويل المشاريع التي بدأتها في العالم الثالث وتطويرها بحاجةٍ إلى إنماء شهرتي، أكثر فأكثر، كي تحصل على المزيد من التبرّعات. ولم يخفَ عليّ أنّ في ذلك لمسةً دنيويّةً قد تنعكس خطرًا على نفسي، ولكنّي غضضت الطرف عن ذلك المنزلق، وجهدت في تخطّيه والسموّ به، وتعلّمت أخذ كلّ شيءٍ ببساطةٍ، لأنْ لا شيء إنسانيًّا يستحقّ الازدراء. فالمسيح نفسه ارتدى جسدًا بشريًّا وصار شبيهًا بنا.

كان عليّ، إذن، تقبّل هذا الوضع البشريّ، بما فيه من نقصٍ وعوراتٍ أساسيّةٍ. فأزال هذا التقبّل من نفسي كلّ مرارةٍ، ولا سيّما أنّ شعوري باقتراب مركبي من شاطئ إرسائه، كان يسبغ على نفسي سجوًّا وسكينةً».

نحو الضفّة الأخرى

عندما غزت الأختَ إمّانُوِيل، الأسقام التي أقعدتها عن الحركة، أمست أنظارها أكثر تطلّعًا إلى ما وراء الأرض. وغدت تدأب على تأمّل لوحةٍ، تصوّر رهبانًا يرقصون في السماء، وقد أمسك كلٌّ منهم بيد ملاكٍ. وحينئذٍ، كان يعتريها شعورٌ بأنّ رجليها متأهّبتان للرقص معهم. وكانت تعلم أنّه سيكون لها مرافقون كُثُرٌ. ولكنّ الرفيق الذي كانت تؤثره هو اللصّ التائب، الإنسان الوحيد الذي وعده الله بمواكبته إلى ملكوته.

وعندما كانت تخامرها شكوكٌ في مصيرها وهي تحتضر، كان يتبادر إلى ذهنها قول القدّيسة تيريز الطفل يسوع: "كنوز الأمّ تخصّ أبناءها"، فتمتلئ ثقةً بأنّ أمّها العذراء، ستغطّي عدمها ونقائصَها، بمعطف غناها.

كانت دائمًا مستعدّةً للموت بلا خوفٍ. ولكنّها لم تستعدّ، يومًا، للشيخوخة التي وقعت فيها عام ٢٠٠٥، عندما أُصيبت بعلّةٍ أقعدتها عن الحركة الذاتيّة، وباتت تتحرّك على كرسيٍّ بعجلاتٍ يدفعه آخرون. قبل ذلك، كانت قد قاومت أوهانَها النفسيّة، والعاطفيّة والروحيّة، ولكنّ جسدها كان يظلّ صامدًا. وبغتةً استحوذ عليها شعورٌ مضنٍ بعجزها عن الحركة والعمل، وكانت تلك محنتها الكبرى.

شقّ عليها اضطرارُها إلى التخلّي عن العمل حتّى ساعاتٍ متأخّرةٍ من كلّ ليلةٍ، وحاجتُها الدائمة إلى الاستعانة بآخرين، في كلّ حركةٍ، واستعانتُها الدائمة بالأوكسيجين من أجل التنفّس.

ولم تجدْ وسيلةً لمواجهة هذا النقص المريع سوى المسبحة. ولا سيّما أنّ مسبحتها كانت هديّةً شخصيّةً من البابا يوحنّا بولس الثاني، ولم يكن طيف ذلك الحبر القدّيس

يبارح خيالها، عندما حاول الركوع للصلاة أمام مغارة لورد، وخانته قواه، فهوى، ولمّا أنهضه مرافقوه، باح بقوله: "أتيتُ مريضًا كي أصلّي معكم أيّها المرضى".

حينئذٍ، أدركت أنّ ما انتهت إليه من عجزٍ، جعلها أقرب إلى محاكاة الفقراء، من كلّ نوع الفقر والمرض، ولا سيّما المعاقين، والمسنّين العاجزين.

لقد لقّنها مثال البابا يوحنّا بولس الثاني أنّ خير غوثٍ تقدّمه للفقراء، والطريقة المثلى لمواكبتهم، هما تكثيف الصلاة من أجلهم. وفيما كانت أناملها تكرّ حبّات المسبحة، كانت تتابع، ذهنيًّا، مراحل حياة يسوع وآلامه، ومواكبة أمّه العذراء لكلّ تلك المراحل، مصلّيةً معه من أجلنا نحن الخطأة. وكانت أقوال پاسكال تتردّد في أعماقها بلا انقطاعٍ: "سيستمرّ نزاع يسوع حتّى نهاية العالم. ولا يحقّ لنا أن ننام في هذه الأثناء". وشعرت بواجب الالتماس من الله الرأفة بأبناء الأرض المتألّمين اليائسين.

وأمست تردّد: "يا يسوع الحبيب، علّمنا معنى الألم، والعجز والموت. لقّنّا علم الحبّ، الحبّ الأقوى من الألم، والأقوى من الموت".

شكرًا

بعبارة "شكرًا"، ختمت الأخت إمّانُوِيل كتاب اعترافاتها، واستأنفت مستخلصةً مسيرتها الروحيّة التي شكرت الربّ عليها، فكتبت:

«يوم مناولتي الأولى عُقِدَتْ معاهدةٌ بين يسوع والطفلة مادلين. ومنذئذٍ، لم يكفَّ قلبي عن الخفقان حبًّا للقدّاس، والمناولة، والشكر.

"وباستذكار مسيرة حياتي، أشكر الله. فقد بتُّ، وأنا أصلّي، أروز فرح مشاهدة انتصارات الحبّ والعدل على قوى الموت... صراعٌ يتمّ في بساطة الحياة اليوميّة، حيث ليست المصلحة الشخصيّة هي هدف الحياة، وحيث يستحوذ بؤس الآخرين على أحشائنا. فحيث المحبّة، هناك الله. ولا يسع روحانيّة العمل إلّا أن تكون روحانيّة تضامنٍ. وبجمعنا بينهما نجمع الحاضر بالأبديّ.

"أشكر لله مساعدتي على طرد الشكّ فيه، وعلى محنة شيخوختي، وموتي الوشيك. فقد كان خُيِّل لي أنّي تراجعت عن زمن "الحبّ الأكبر" الذي عهدتُه في القاهرة، وإذ بي أكتشف مجالاتٍ جديدةً للعمل، وللحوار مع الله. فحسب الإنسان أن يرى الآخر، وأن يرهف السمع إلى أنّات العالم، كي تنقلب حياته. فيتلاشى شعوره بالوحدة، وتصبح كلّ محنةٍ مشترَكةٍ، شراكةً في الحياة والموت، والقيامة. ويصبح الآخرون توائم لنا، يحملون حملَنا، ويضحي هدفنا هدفهم، ونحقّقه، معًا، يدًا بيدٍ.

"وأشكر لله إدراكي أنْ لا شيء يتحقّق تحقُّقًا نهائيًّا. ففي تقاعدي كان عليّ تخطّي ذكريات نشاطاتي وإنجازاتي، وما نلتُه من شهرةٍ، وأن أكتوي بنار ضعفي، وعدمي، وعجزي، لكي أكتشف، في هوّة فقري، قدرة الله. فالله لا يملأ إلّا الفراغ. فراغنا يدعوه فيتدفّق فيه، لأنّه، وهو كلّيّ القدرة قد صار فقيرًا وضعيفًا.

"كلّ حبٍّ يفترض تجرّدًا. وفي كلّ إنسانٍ ثقبٌ، مُعَدٌّ للامتلاء بكنوز الله.

"وأيّةً كانت الدلائل الظاهرة، ما من حياةٍ هي فشلٌ تامٌّ، وما من حياةٍ هي نصرٌ نهائيٌّ. فلا حدود للحبّ، وليس للحبّ تحقيقٌ نهائيٌّ، وليس هو، أبديًّا، كلّيًّا. ما من حياةٍ كاملةٍ، وما من حياةٍ ضائعةٍ، بل لكلّ حياةٍ فرصة خلاصٍ.

"أنا، الآن، دنوتُ من الله الحبّ، وأودّ أن يعرف كلّ قارئٍ أنّه قادرٌ أن يحبّ أكثر ممّا يظنّ. فليحدّق إلى قلبه، فيجد شعلة الحبّ الباحثة عن سعادة الآخرين، هذه الشعلة هي التي تسبغ على الحياة والموت معنًى. وليتأكّد أنّنا سنلتقي في الأبديّة. فمَن يحبّ لا يموت.

"إنّه سرٌّ لا يُسبَر له غورٌ، ولكنّني عشته، وحييت به، واعلم أيّها القارئ العزيز، أنّ الوقت هو دائمًا وقت الحبّ الأكبر».

توقيع الأخت إمّانُوِيل

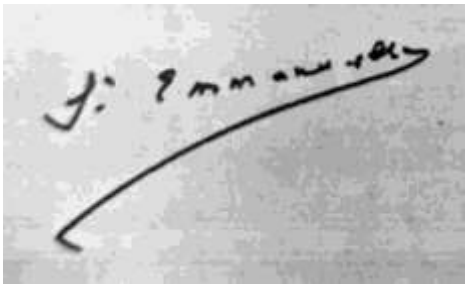

سعادة المحرومين، وبؤس المُترَفين

لطالما كرّرت الأخت إمّانُوِيل تأكيدها بأنّ السنوات الاثنتين والعشرين التي قضتها مع جامعي النفايات في أكواخ صفيحٍ بالقاهرة، كانت أسعد أيّام حياتها.

عند ارتدائها الثوب الرهبانيّ، كانت قد نذرت الفقر، ولكنّها تبيّنت، بعد سنواتٍ من ترهُّبها، وعيشها في مختلف فروع جمعيّتها، أنّها لم تمارس الفقر الحقيقيّ، فقد كانت تنعم بالسكن النظيف، الدافئ، وبالطعام الكافي، وكانت مكتفيةً ماديًّا. وظلّ يطاردها حلم عيش الفقر الحقيقيّ، الذي دعا إليه وعاشه "الفقير الصغير" فرنسيس الأسّيزيّ.

ولطالما التمسَت السماح لها باقتسام حياة الفقراء، وحرمانهم، ليلًا ونهارًا، ومشاركتهم طعامهم، وهمومهم اليوميّة، ساعةً فساعةً. ولكنّ قوانين الرهبنات، قبل المجمع المسكونيّ الثاني، كانت تفرض على الراهبات العودة إلى حصن ديرهنّ، قبل غياب الشمس، من كلّ يومٍ.

ولمّا أمست القوانين الكنسيّة أكثر ليونةً، في هذا المضمار، أُتيح لها تحقيق حلمها، وكانت قد تخطّت الستّين من عمرها. فقضت اثنتين وعشرين سنةً في العيش عيشة الفقراء، في ثلاث قرى صفيحٍ على التوالي، بين جامعي النفايات.

وكان مسكنها كوخًا من تنكٍ صدئٍ، طوله ثلاثة أمتارٍ، وعرضه مترين يحتوي سريرًا حديديًّا، وفرشة قشٍّ، وطشتًا للاغتسال، وإبريق ماءٍ ومنضدةً عتيقةً مترجرجةً، ومقعدًا واطئًا.

وكان طعامها طعامَ جامعي النفايات، قوامه الفول والفاصولياء، ومثل جامعي النفايات كانت ملطّخةً بالأقذار، فهي مثلهم، تحيا فوق الأقذار، محاطةً بها من كلّ صوبٍ. وأسوةً بهم، لم تكن تحجم عن التقاط أطعمةٍ من النفايات، ما زالت في أوّل مراحل تلَفها.

وظلّت تمارس هذه العيشة حتّى حبَتْ إلى التسعين، سعيدةً بعيشها فقر القدّيس فرنسيس، إثر يسوع، وبالتوغّل فيه، يومًا فيومًا، تمثّلًا بيسوع. وقد لقّنتها تلك السنوات فرح الروح الحقيقيّ، والتجرّد من كلّ خيرٍ مادّيٍّ، وتقبّل المرض والموت، وبالإجمال تلقّنت معنى الحياة.

وعام ١٩٩٣، عادت إلى فرنسا، وإلى أوروبا الزاخرة مالًا واختراعاتٍ حديثةً، توهِمُ بإسعاد الإنسان. ولكنّ الأخت لم تعثر لتلك السعادة على أثرٍ. فالجميع متهافتون على غبّ المزيد من الرفاه، ودهاقنة المال واستغلال تعب الناس، يبتدعون ألوانًا جديدةً للرفاه، يسارع ضحايا عبادة المادّة إلى اتّخاذها هدفًا للمتعة، والتظاهر بالبحبوحة، وفي سبيلها لا يحجمون عن السرقة والارتشاء، وارتكاب المخازي، ومع ذلك، لا يتذوّقون للفرح الداخليّ فرح النفس، طعمًا. إنّهم يمتلكون، ظاهريًّا، كلّ مقوّمات الاكتفاء، ومع ذلك، يشكون باستمرارٍ افتقارهم إلى ما يشعرهم بالرضى والارتواء.

وتسنّت للأخت المقارنة بين عالَمَيْن: عالَم جامعي النفايات الذين كانوا يفتقرون إلى كلّ مقوّمات الرفاه، وعالَم البذخ الصاخب. فقارنت بين أسرة جامع النفايات الفقير ميخائيل الذي مرض فاستدعت الأخت له طبيبًا، ولكنّ المرض كان قد تمادى في إتلاف جسده، ولم يُبْقِ للطبّ فرصة إصلاح ما دمّرته الأسقام المتراكمة. فأمضى أيّامه الأخيرة على فراش قشٍّ، زريٍّ، مبسوطٍ فوق الأرض العارية، محاطًا بمحبّة زوجته وابنتَيْه، ومات قرير العين، ناعمًا بالسكينة، وسلام الربّ.

ولمّا عادت الأخت، يوم السبت، إلى مركز جمعيّتها حيث اعتادت قضاء نهاية الأسبوع ويوم الأحد مع أخواتها في الجمعيّة، كي تحصل على زادٍ روحيٍّ يؤهّلها لمتابعة الصراع أسبوعًا آخر، قرأت في صحيفةٍ فرنسيّةٍ أنّ الثريّ اليونانيّ "أوناسيس"، كان قد

قضى أيّام مرضه الأخيرة، في أشهر مشافي باريس، محاطًا بجيشٍ من الأطبّاء وأبرع الممرّضين والممرّضات، ولكن في غياب أيٍّ من أفراد أسرته. فابنه الوحيد "ألكساندر" كان قد لقي حتفه في الطائرة الخاصّة التي أهداه إيّاها، وابنته كريستينا كانت تلهو مع صديقٍ جديدٍ لها في موسكو، وزوجته مع زميلاتها في الولايات المتّحدة الأميركيّة. فرحل وحيدًا، ولم تنفعه أمواله الطائلة التي سيبدّدها وَرَثَتُه، لا مبالين. أيّ بونٍ شاسعٍ بين موت زبّالٍ فقيرٍ، وموت أكثر رجال العالم، في زمنه، ثراءً!

وقد لفت انتباه الأخت، في أوروبا، تجهّم الوجوه، وسيطرة الهمّ والحزن على النفوس. واستخلصت أنّ المحبّة هي سرّ الوجود والسعادة، وهي التي تضفي على الوجود معنًى.

كانت قد تخيّلت أن تجد القوم في أوروبا أشدّ بهجةً، لأنّهم يمتلكون كلّ أسباب الرفاه، غير أنّها وجدتهم غاضبين، محبطين.

ولاحظت أنّ الإنسان السعيد هو من يقيم علاقاتٍ متناغمةً مع الآخرين، في حين أنّ العلاقات بين الأوروبيّين هي شبه مقطوعةٍ.

وتأكّدت أنّ في الفقر والتجرّد سعادةً يجهلها المترَفون، فالفقراء يقدّرون وجود الآخر، وواجب التعاون على تخطّي مصاعب الحياة، ويتذوّقون من الفرح بقدر ما يُفرِحون إخوتهم، في حين أنّ الجري وراء امتلاك المزيد يؤرّق الأغنياء، ويحرمهم النوم والسكون.

الأخت إمّانُوِيل والشيخوخة

لم تسلب الشيخوخة شيئًا من فرح الأخت إمّانُوِيل. بل هي حرصت على إعلان أنّها المسنّة الأكثر سعادةً في العالم، بفضل مساعدتها الذين أثقلت كواهلهم أعباءُ الشيخوخة وأسقامُها، على استعادة فرح الحياة مع يسوع، وفي يسوع.

وأثبتت أنّ السعادة ممكنةٌ في كلّ عمرٍ، لأنّ المحبّة ممكنةٌ في كلّ عمرٍ. فنبع السعادة هو الله، والله لا يتغيّر، ومن يثبت فيه يرتوي ماءً دائم الإنعاش. وعندما تنعم النفس بسلام الله، ينعم الجسد، أيضًا، بالسلام.

في فرحها كانت تشكر لله هذا الفرح، وعندما تتألّم كانت تشكر له إشراكها في آلام الصليب، وتقدّم، مع يسوع، آلامها لخلاص العالم.

الشيخوخة تمنح الحكمة، وتمنح، غالبًا، القدرة على تذوّق طعم الأمور الحقيقيّ، وتخطّي المعكّرات، لأنّها عابرةٌ وسريعة الزوال، وتعلّم التغاضي عن الترّهات، وإيثار التطلّع إلى السماء.

آمنت أنّ الشيخوخة هي زمن المحبّة المثلى، محبّة الله الذي يحبّنا. وأحبّت الأحداث كما تأتي، كي تستطيع الموت باسمةً، الموت حبًّا، الموت بين يدي الله.

ساعدتها الشيخوخة على تذوّق لُبِّ كلّ حدثٍ سعيدٍ، مؤمنةً أنّ كلّ نفسٍ ترتقي تجتذب معها العالَم في ارتقائها.

الشيخوخة تبسّط الحياة، وتعيش اللحظة الحاضرة، مستصغرةً المشاكل الطارئة، التي ستتبدّد قريبًا.

قد تكون الشيخوخة أسعد مراحل الحياة أو أتعسها، بقدر ما يهتمّ المرء بالآخرين، أو ينطوي على نفسه. ويسعد من يعرف إسعاد الآخرين.

الفرح الحقّ ينبع من الروح، من داخل الإنسان، لا من الأشياء الخارجيّة التي قد تُمتِع مدى لحظاتٍ، وتزول متعتُها بسرعةٍ، أمّا فرح الروح فباقٍ.

قد تُفقد الشيخوخةُ المرءَ شيئًا من سمعه وبصره، ومن قدرته على الحركة، أمّا القلب الذي يخفق حبًّا، فيحافظ على كامل حيويّته.

قد يفتر النشاط الجسديّ، بسبب وهن قوى الجسد، ولكنْ قوى الروح: الحبّ، والبسمة، وإشاعة الفرح، فقد تنمو.

في أيّامها الأخيرة، هتفت الأخت إمّانُوِيل:

«يا لها نعمةً أن تقتصر مهمّتي، الآن، على أن أكون الأخت الشاملة، أخ جميع من أصادفهم، كلّ يومٍ، والذين أحبّ أن أحدّق إليهم، وأن أصغي إليهم، وأتمنّى لكلٍّ منهم كلّ خيرٍ ممكنٍ، حريصةً على إسعادهم.

"لم يبقَ عليّ من واجبٍ سوى استنشاق حبّ قلب الله، ونَفْثِهِ في الآخرين. هذ هي سعادة شيخوختي.

"إمّا أن أحيا من أجل ذاتي، وأشقى في شيخوختي، وإمّا أن أحيا من أجل الآخرين، وأهبهم السعادة فأسعد.

"في كلّ عمرٍ يمكن أن يكون الإنسان للآخرين نبع عطفٍ، وتسامحٍ، وتفاهمٍ. هذه القدرة تنمو في مرحلة الشيخوخة، التي تتيح متّسعًا من الوقت والحرّيّة لذلك.

"وما زالت العذراء تلعب دورًا جوهريًّا في حياتي. إنّها تواكبني منذ الصباح حتّى المساء، وتساعدني مساعدةً كبرى. فكلّما ساءت الأمور، أهتف نحوها: "تعالي حالًا وساعديني. إنّ ابنتك تستغيث بك". وحينئذٍ، أشعر بوضوحٍ أنّها تسارع إلى مدّي بغوثها وتساعدني على تخفيف أعباء الآخرين، فأُنشِد وأنشر الفرح».

والتزمت الأخت بواجب استغلال كلّ دقيقةٍ حتّى أقصى الحدود. وكلّما انتابتها رغبةٌ في الراحة، كان يوقظها مثال البابا يوحنّا بولس الثاني، الذي رغم أوجاعه، كان كلّما أدرك أنّ ثمّة مهمّةً عليه إنجازها، لا يتقاعس عن أخذ عصا الحاجّ، والسفر إلى أقاصي العالم.

ولازمها شعورٌ ضاغطٌ بواجب تخطّي ذاتها، متسلّحةً بشعار الرسول بولس: "أستطيع كلّ شيءٍ بمن يقوّيني"، وقول الشاعر الإيرانيّ: "إفلق قلب أيّ إنسانٍ، تجدْ فيه شمسًا".

ولطالما تأثّرت الأخت إمّانُوِيل بقول يسوع للقدّيسة كاترينا السيينّاويّة، في رؤيا: "أنا الكائن وأنتِ اللاكائن". وهي على غرار السيينّاويّة تبيّنت عدمها وضرورة الاتّكاء على يسوع، وبهذا الاتّكاء انساب عدَمُها في نهر كيان يسوع الجمّ، واعترفت:

«توهّمتُ أنّي كائنةٌ، وتذوّقتُ متعة الوجود المليء نجاحًا في كلّ ما أقدمتُ عليه، بفضل صراعٍ ضارٍ، ودام ذلك حتّى عام ٢٠٠٥، وكنت قد بلغتُ، آنذاك، السابعة والتسعين. وحينئذٍ، استقرّت بحصةٌ في قناتي الصفراويّة، وقضت على كلّ ما كان قد تبقّى لي من صـــحّةٍ. وتعلّمت تقبّل حبّة الرمل الصـــغرى التي طرحتني أرضًا. وكان ذلك درسًا خلاصيًّا لي، ولكنّه لم يكن سهلًا».

وكانت قد مارسَت مختلف أنواع الصلوات، إلى أن انتهت إلى صلاة الفقير الذي يُقِرّ بعريه، وضعفه، وعجزه. حينئذٍ، تصبح الصلاة حقيقيّةً. وهذا يحدث خاصّةً، في سنّ الشيخوخة، إذ يلمس المرء لمسَ اليد حدودَه، ويقترب من قول الربّ على الصليب: "إلهي لمَ تخلّيتَ عنّي؟".

تصبح الحياة حقيقيّةً، عندما يعترف الإنسان بمحدوديّته، وعجزه التامّ، فيهتف: "أنا خائفٌ، لا أقوى على بلوغ ما أهدف إليه، فسارع إلى مساعدتي". وحينئذٍ يعتري

الإنسانَ، شعورٌ محسوسٌ أنّه بين يدي أبيه. ويرتمي في اللجّة نحو الضفّة الأخرى، حيث الأب فاتحٌ ذراعيه كي يستقبله.

في سنواتها الأخيرة فقدت الأخت القدرة على الحركة، واحتاجت إلى أخرى تحرّكها على كرسيٍّ بعجلاتٍ، تقضي عليه يومها كلّه، حتّى تستلقي على فراشها للنوم. وأمست بحاجةٍ دائمةٍ إلى قناع أوكسيجين للتنفّس.

لا نملك تفاصيل عن وفاتها، ولكن، معروفٌ أنّ جنازتها أُقيمت في كاتدرائيّة نوتردام، بباريس، يوم ٢٠٠٨/١٠/٢٠، وفي نهايتها تُليت رسالةٌ منها انتهت بهذه العبارة التي تلخّص مسيرتها:

"كم مثيرةٌ هي الحياة التي تُعاش بحبٍّ!".

رسالةٌ من البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني إلى الأخت إمّانُوِيل

كانت الأخت قد بعثتْ بتهانيها إلى البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني عن رسالته الجامعة "بهاء الحقيقة" (Veritatis splendor)، الصادرة عام ١٩٩٣، وتهنئته بالعام الجديد، فردّ عليها بالرسالة التالية:

«بمناسبة الميلاد والسنة الجديدة قدّمتِ لي تمنّياتك الحارّة، وعبّرتِ لي عن شكرك، لإصدار رسالتي العامّة "Veritatis splendor"، وأكثرت صلاتك من أجل الكنيسة.

"أشكر لك بحرارةٍ رقّة لفتتك، وأودّ التعبير عن امتناني، وامتنان الجماعة المسيحيّة كلّها، لسنوات الجهد الطويلة التي لم تملّي خلالها من خدمة الأشدّ فقرًا، وخاصّةً في مصر.

"من خلال رسالتك المتواضعة، الحثيثة، دافعتِ، بلا هوادةٍ، عن حقوق الأكثر ضعفًا، من أجل حماية سلامة الأولاد، ولا سيّما أولئك الذين يعيشون في ظروف صعبةٍ، أو في بلادٍ محرومةٍ.

وقد أتحتِ لأفرادٍ كُثُرٍ، ولأُسرٍ عديدةٍ كان المجتمع قد نبذها، أن تستعيد كرامتها، وتنعم بالاعتراف والمحبّة. وبذلك أظهرتِ، كما قال القدّيس غريغوريُس النيصيّ أنّ الفقراء "لبسوا وجه الربّ". وكنتِ سفيرة المسيح وكنيسته التي لا تكلّ، لدى إخوتنا الأصاغر، وأنهضت كلًّا منهم بالعمل والتعليم، والاندماج بالجماعة البشريّة، كي يكون أوفر حرّيّةً ومسؤوليّةً عن مصيره. وبذلك حفّزت الكنيسة على الالتزام الدؤوب بأعمال المحبّة، سعيًا إلى جعل عالمنا جماع متناميةً عدلًا، وإخاءً، وتضامنًا.

وبما أنّك، الآن، تكرّسين ذاتَك للخدمة بالصلاة، تمجيدًا لله، ومن أجل الكنيسة

وخلاص العالم، أقدّم لكِ تمنّياتي الحارّة، كي يُغدق عليك المسيح المخلّص، ملك السلام، نِعمَه، ويمكّنك من مواصلة وجودك، في السلام والفرح.

وإذ أوكِلُكِ إلى شـــفاعة العذراء مريم، أهَبُك، من كلّ قلبي بركتي الرســـوليّ شاملًا بها جميع أعزّائك، ولا سيّما أولئك الذي يتابعون العمل الذي بدأته.

الڤاتيكان ١٩٩٤/٥/٢٤ »

الجزء الرابع

صلواتٌ، تأمّلاتٌ، خواطر

وصيّتي الروحيّة

تمهيدٌ

عندما شاخت الأخت إمّانُوِيل، وعجزت عن الحركة، ظلّ فكرها وقلبها نشيطَيْن، فاستعانت بكاتبةٍ صديقةٍ، وأملت عليها بعضًا ممّا تلقّنته من حياتها الطافحة بالتجارب الفريدة، وبالإنجازات الرائعة، وأصدرت ممّا أملته كتابًا بعنوان: "وصيّتي الروحيّة".

من هذه الوصيّة، ومن تصريحاتٍ وكتاباتٍ سابقةٍ، نستقي المقتطفات التالية:

قلبي متحرّرٌ، وأنا أُنشد

ليس تقدُّمي في السنّ، والمرضُ، سجنًا لي،

فالسجن يحبس، والسجن يسحق،

وأنا أشعر بحرّيّةٍ جسيمةٍ، متجدّدةٍ.

قلبي متحرِّرٌ، وأنا أُنشد.

إنّي أعي أنّ إله الحبّ يحبّ كلًّا منّا شخصيًّا،

وحسب قول الأب شارل دي فوكو، حسبنا أن نعقد علاقةً حميمةً، مباشرةً، مع الله، الذي منّ علينا بهذه العلاقة، وحسبنا أن نستسلم له ببساطةٍ، وطوعًا،

وأن نتوغّل توغُّلًا حميميًّا في قلبه، وروحه، وكيانه كلّه، في إطار حبّه.

قلبي متحرِّرٌ، وأنا أُنشد، لعلّه يترسّخ لدى المزيد من الرجال والنّساء، حبُّ الله لهم.

قلبي متحرّرٌ، وأنا أُنشد، لأنّي أعرف لماذا أتنفّس، ولماذا أموت.

يسوع في حياة الأخت إمّانُوِيل

سرّ حيويّتي

سرّ حيويّتي هو يسوع. فهو تنفّس كياني، وقوّة ضعفي، وفَرَح قلبي. هو الذي يبقيني فتيّةً ومضطرمةً حياةً، مستعدّةً للجريان حتّى أقاصي العالم، من أجل إغاثة بائسٍ.

مثال الفراشة

ارتباطي بيسوع يحوّل ضُعفي البشريّ، ولكأنّه تحوُّل يَرقَةٍ صغيرةٍ، تحوُّلًا سحريًّا، إلى فراشةٍ متعدّدة الألوان، ساحرة الجناحَيْن.

قبل كونها فراشةً كانت يَرَقةً مهملةً لا يلحظها أحدٌ. ولكنّها ارتضت الخضوع للتحوّل إلى قدرةٍ، وجمالٍ، وحبٍّ لا حدود لها.

وأنا، على غرار اليرقة، أستسلم لقدرة تحوُّلي من الداخل، وهذا التحوّل يهبني سلامًا لا يوصف.

أريد أن أحيا في حبورٍ ودهشةٍ، فأنا أشعر أنّي في قلب قلب يسوع.

إنّ رقّة قلبه الإلهيّ تأخذ بؤسي البشريّ، ولا تطلب منّي سوى الغوص في مجده الإلهيّ.

– ليست العلاقة بيسوع استيلاءً، بل هي دعوةٌ، وملاقاةٌ.

وليست القداسة هدفًا يُسعى إليه بجهادٍ ضارٍ. لقد جاهدتُ، طويلًا، وأردتُ، وأردتُ، وأصررتُ، ولم يكن ذاك هو السبيل السويّ.

فحسبُنا أن نفتح قلبنا، ونفسنا، واستدعاء حبّ الله، والترحيب به.

هذا ما خبرتُه مع كرّ السنين. وهذا ما تذوّقتُه:

شعرتُ بأنّ الله يحبّني حبًّا جمًّا، حبًّا شخصيًّا، وأدركتُ أنّه جاء من أجل كلّ فردٍ، ومن أجل كلٍّ منّا صُلِب، وتحمّل الموت الأقسى في زمانه كي يخلّص كلّ فردٍ، شخصيًّا.

هذا النمط من الحبّ لا يلبّى بمحاولة استيلاءٍ ولا بقوّة الإرادة، بل يُستدعى، ويُرحَّب به، يومًا فيومًا، برقّةٍ وعمقٍ في القلب.

حبٌّ شاملٌ

تقدّمي في السنّ يعمّق صلة حبّي للربّ، ويمتدّ بها لتشملَ العالم، فأشعر، بمزيدٍ من العمق، مسؤوليّتي عن البشريّة جمعاء.

قالت الصوفيّة الفرنسيّة "إليزابيت لوسور" (Elisabeth Leseur، ١٨٦٦–١٩١٤): نفسٌ واحدةٌ ترتقي، ترقَى بالعالم".

ليّ، إذن، أن أرقى بنفسي، كي أرتقي بالعالم، بمشاركة جميع فاعلي الخير. والله يعلم أنّهم كثُرٌ على الأرض، أولئك الذين يجودون بمبادرات سخاءٍ من الصباح حتّى المساء. لا يقومون بأعمالٍ بطوليّةٍ، تخصّص لها الصحافة عناوين بارزةً، بل يكتفون بمبادراتٍ بسيطةٍ: يدٌ ممدودةٌ، موقفٌ حارٌّ، كلمةُ عزاءٍ.

إنّي أغطس بسعادةٍ، في محيط الحبّ هذا!

حياةٌ تتصاعد بتواترٍ نحو فائق الطبيعة

لا أكفّ أشكر الله. فقد سمح لي أن أمضي إلى سنّ المئة، وأن أشعر دائمًا بالعيش في عمقٍ، رغم تقدّمي في السنّ، وبفضل هذه المحنة.

يومًا فيومًا، يبدو لي أنّ حياتي ترتقي صوب فائق الطبيعة، وأنّها تزداد، يومًا فيومًا، اتّحادًا بالله، متنفّسةً، أكثر فأكثر، حبّ الله، شهيقًا وزفيرًا.

كم ذلك رائعٌ!

كلّ يومٍ تؤتيني الحياة ثراءها،

فأيّامي تنساب، جوهريًّا، في الصلاة.

إنّ مجرّد بقائي، من الصباح حتّى المساء، في تواصلٍ مباشرٍ مع الله، مع العذراء، ومع يسوع حبّي، ومع الروح القدس، هو هديّةٌ سَنِيّةٌ.

الصلاة

– الصلاة مصدر قوّةٍ. فهي تخلق علاقةً مباشرةً، صامتةً، تكتسب، يومًا فيومًا، فرحًا ومنعةً. لأنّ محبّة الآخر ومساعدته، والجري نحوه، والابتسام له، هي منابع فرحٍ غامرٍ.

– الناس غارقون في مشاغلهم، وينهجون حياةً محمومةً. فمن يملك وقتًا للصلاة، في المدن الكبرى، حيث الضجيج لا يصمت، وحيث كلّ أصناف التسلية تُغري، ولا تدع مجالًا للعودة إلى الحياة الداخليّة؟

وأنا الغائصةُ في صميم البشريّة التي لا تستسيغ الصلاة، ولا تملك لها وقتًا، أجد رائعًا اتّحادي بالموتى الذين أحببتُهم، وبالقدّيسين والملائكة في السماء.

– إنّ الصلاة خيارٌ يمليه الإيمان. وفي هذا السياق تذكّر الأخت بما حدث للقدّيس خوري أرس، الذي لاحظ قرويًّا يجلس، يوميًّا، ساعاتٍ، مقابل مقرّ القربان، صامتًا، فسأله عمّا يفعل، فأجاب: " أَلحَظُه، ويلحَظُني". هذا يعني أنّه، بنظراته كان يبلّغ الله همومه، وكان الربّ ينظر إليه، ويحذّره من أخطائه.

وتعلّق الأخت على ذلك بقولها:

"إنّي أدع حياتي تندرج، ببساطةٍ، ووضوحٍ، أمامه. وهو يأخذها في قلبه، وبين يديه، ويملأني حبًّا وقوّةً".

"إنّي أومن بالله الذي لا أشعر به، ولا أراه، ولا ألمسه، ولكنّي أومن أنّه موجودٌ حقًّا في الإفخارستيّا. وعندما أدخل إلى الكنيسة، أنحني أمام الهيكل، أَلحَظُه، ويلحَظُني، وبقدر ما تكون صلاتي بسيطةً، تكون أشدّ نجاعةً، وتتيح لنا الدخول إلى اتّصالٍ حقيقيٍّ مع الربّ".

– من خلال صلاة الفقراء، تعلّمتُ الصلاة.

– الصلاة هي أعظم أسلحة الأرض. هي سلاحٌ لأنّها تنتج أشياء قويّةً.

الصلاة تفجّر العطف والجمال في العالم، وفي قلوب إخوتنا وأخواتنا الصلاة هي سلاح الحبّ، لا تدمّر، بل تبني. لا تقتل، بل تمنح الحياة.

ليست كلّ الأسلحة أسلحةَ تدميرٍ، فثمّة أسلحة حياةٍ. الصلاة هي إحداها، وهي شديدة القدرة.

أبانا

"الصـــلاة الحقيقيّة لا تقول "أنا"، بل تقول "نحن"، لا تقول "أبي"، بل تقول: "أبانا". هذا ما علّمناه ابن الله. فنحن أعضـــاءٌ أحياءٌ لبشـــريّةٍ حيّةٍ، ولكنّها جريحةٌ، مُهانةٌ، منحطّةٌ. وبالتالي، عندما نبدأ الصـــلاة بقولنا "أبانا"، نعترف بانتمائنا إلى عالم الخطيئة، وعالم العظمة في الآن عينه.

ندما أقول "أبانا" أعترف أنّي بمعزلٍ عنه أعجز حتّى عن التنفّس. إنّه نبع حياتي، ومن البديهيّ أن أنهل من نبعي.

مثل الابن الضالّ أقول له: "عاملني مثلما تعامل أحد خدّامك.

ولكنّه مثل الأب، في المثل الإنجيليّ، يأمر بإلباسي ثيابًا جديدةً، وبوضع خاتمٍ في يدي، ويهتف: "هيّوا لنبتهج، لأنّ ابني الذي ظننتُه ميتًا، قد عاد حيًّا".

نبدأ بقول: "أبانا الذي في الســماوات، وتتطلّع عيوننا إلى الســماء. وبقولنا: "ليتقدّس اســمك"، نعترف أنّه مثلّث التقديس: آب، وابنٌ، وروحٌ قدّوسٌ، ونتوقّع أن يعترف العالم أنّه أسمى من كلّ شيءٍ.

"لتكن مشيئتك"، لأنّها هي دائمًا الفضلى لخلاصنا، حتّى إذا بدت لنا قاسيةً غير معقولةٍ.

صَلْبُه كان الشرّ الأكبر، الشرّ الأقصى. ولكنّه كان سبب فداء العالم، من خلال أشدّ الآلام هولًا.

"على الأرض، كما في السماء"، في السماء حيث يتنفّس القدّيسون والملائكة متّحدين مع العذراء القدّيسة، ومنغمسين في حبّ الله وتمجيده.

هذا الحبّ، وهذا المجد ينعكسان على أرضنا، بقدر ما تتّسع فيها رقعتهما، كما هي في السماء، وتتّسع مطارح عيش الحبّ، والصمت. ونشعر أنّنا في السماء ننشد مع الملائكة والقدّيسين، والعذراء ويسوع.

"أعطنا، اليوم، خبزنا اليوميّ، خبز القلب الذي يشفي من الوحدة والحزن. فكم من صغارٍ مُهمَلين يفتقرون إلى المحبّة!

أعطِنا مَن يوفّرون لنا خبز المحبّة، ويسيرون معنا، يدًا بيدٍ.

هَبنا خبزَ الفهم، فنحن، مع كلّ ما تلقّنّاه في مدارسنا وجامعاتنا، ومع رغبتنا في فهم كلّ شيءٍ، لا نفهم الكثير، ولا ندرك لماذا تسير الأمور خلافًا لتوقّعنا. ولا نُدرك مبرّر الشرّ والظلم.

اِغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أساؤوا إلينا". إنّ للفظة "كما" في الإنجيل وزنًا راجحًا. فيسوع يقول "كما أحبّني الآب أحببتُكم أنا"، "أحبّوا بعضُكم بعضًا كما أحببتُكم".

أمامَنا، إذن، فرصةٌ فريدةٌ: أن يغفر الله لنا كلّ خطايانا، بمجرّد أن نصفح للآخرين عن الجراح التي أنزلوها بنا، وعن الآلام التي ألحقوها بنا، بمجرّد قولنا: "أُسامح حتّى إذا كان الجرح ما زال يوجعني... يا ربّ أقدّم لك هذا الألم من أجل من ألحقَه بي، لكي تعفو أنت عنه. ولكي تغفر له، أسامحه بكامل إرادتي، وأريد له خيرًا.

بمثل هذا الفعل نمسح ما اقترفناه من شرٍّ في حياتنا.

أسرع، يا ربّ، إلى نجدتنا، عندما تشتدّ علينا التجربة. ونجّنا من الشرّ، من كلّ شرٍّ نشهده، ونسمع به، من حولنا، وفي العالم.

نحن لا نعرف كيف نصلّي، ولا كيف نعيش، ولذلك نتوسّل إليك أن تساعدنا.

السلام عليكِ، يا مريم

مرجعي الآخر هو العذراء، التي كانت، دائمًا، نجمتي.

قال القدّيس بيرنار: "عندما تُغرِق اللجّةُ مركبَك، وعندما تشتدّ العاصفة في قلبك، ومن حولك، وتحول دون رؤيتك النجوم، استغث بمريم فينجو مركبُك من الغرق".

لقد بلغتُ سنّ السادسة والتسعين، وأقرّ بأنّ مركبي طالما اهتزّ، وبات على شفا الغرق، وغالبًا، ما ارتعبتُ، ولكنّي، في كلّ مرّةٍ، لُذتُ بالله، وبشفاعة مريم. وفي كلّ مرّةٍ تغيّرت الأحوال، وتلاشت التجربة. وإنّي واثقةٌ بأنّ ذلك قد تمّ لأنّي وجّهتُ إلى مريم صلاة السلام، الصلاة الأجمل، والأبسط، والأسهل.

النصّ اليونانيّ يقول: "إفرحي، يا مريم، لأنّ النعمة ملأتك". بهذا القول ينسى الإنسان، قليلًا، الأرضَ وشدائدها، وآلامَها، ويحدّق إلى السماء.

قبل وفاته، وهب يسوع تلميذَه الحبيب يوحنّا، أمَّه أمًّا له، ومن خلال يوحنّا أوكل إلى مريم البشريّة جمعاء، التي مات من أجل افتدائها، لأنّه توخّى أن تشاركه أمُّه خلاصَ العالم كما تستطيع. ومنذ تلك اللحظة أكبّت مريم على العناية بكلّ كائنٍ بشريٍّ، واعتنت عناية أمٍّ بابنها، بي، أنا التي توجّه لها هذه الصلاة.

"إفرحي يا مريم الممتلئة نعمةً وحبًّا، لأنّ الثالوث الإلهيّ كلّه معك. فأنت ابنة الآب الأثيرة، وأمّ الابن، وعروس الروح القدس، أنت المباركة بين جميع النساء، وثمرةُ أحشائك يسوع، مباركٌ.

البركة هي قول الخير، وإرادة الخير، وإعطاء الخير. إذن، أنت قادرةٌ على كلّ شيءٍ، لأنّك أمّ الذي أخذ جسدًا منك.

فصلّي من أجلنا، من أجل البشريّة جمعاء، الآن وفي ساعة موتنا. وأنا لا أخاف الموت، لأنّه يقرّبني منكِ.

صلاةٌ بسيطةٌ تجعل حياتنا رائعةً.

صلاة مريم العذراء

يمكن تلخيص صلاة العذراء، بالعبارة التي قالتها للملاك، آنَ البشارة: "أنا أَمَةُ الربّ".

ولكن ينبغي إيضاح هذه الكلمات:

مريم ليست خادمة الله في السماء. بل هي، على الأرض، خادمة كلّ كائنٍ بشريٍّ، متألّمٍ.

لا جدوى من خدمة كائنٍ سماويّ، لا يراه أحدٌ،

إنّما العذراء تخدم البشريّة، على الأرض.

العذراء خادمةٌ بمعنى الخدمة الأرفع نبلًا، وقد أرادت، دائمًا، أن تخدم.

وأنا أريد أن أكون في اتّحادٍ معها، وفي الاتّحاد الأوفر حميميّةً، فأصلّي النهار كلّه، معها، ومثلها، طالبًا منها وضع حياتي في خدمة إخوتي وأخواتي الذين أحبّهم حبًّا جمًّا.

توازن العذراء

عندما أدعو مريم، أتّصل بامرأةٍ أتقنت، طوال وجودها على الأرض، وحتّى رحيلها إلى الأبديّة، فنّ توازنٍ رائعٍ.

إنّ كلّ مغالاةٍ، تُؤتي شرًّا، وتُفقِد السيطرة. والعذراء كانت، دائمًا، بمنأًى عن تجربة المغالاة. ومن ثمّ، هي، لي، نبع فرحٍ ثرٍّ.

إنّي أجد فيها أمًّا روحيّةً. وعندما أشاركها الصلاة، تبدو لي مثل الثلج الذي لم يُمَسّ، ناصعة البياض.

جمالها العُذْريّ يُبهِج روحي، فأشكر للربّ قدرة تأمّل نقاء المنزّهة من كلّ لوثةٍ، وبياضها الذي لم يُلطَّخ. وبهذا التأمّل أستطيع التوغّل على دروب الصلاة.

إنّ عقيدة نزاهة الحبَل بالعذراء من الدنس، هي لي مثال طهرٍ أسمى، يفتن نفسي.

ها أنذا أمامَك، يا ربّ

يا ربّ، ها أنذا أمامك، مع النساء والرجال الذين يشبهوني بصفتهم أخواتي وإخوتي.

إنّهم بائسون يرغبون في النهوض من الهوّة التي تردّوا إليها ولكنّهم لا يستطيعون النهوض.

إنّهم ضحايا المخدّرات، والضياع، ولا يقوَوْن على مقاومة الشرب فيسرقون ويقتلون.

لقد فقدوا الإيمانَ والرجاء والمحبّة، ويؤلمهم هذا الفقدان.

يا ربّ، أنتَ ما زلتَ تُلقي علينا نظرة الحبّ التي ألقيتَها على المرأة الزانية، وعلى السامريّة، وعلى مريم المجدليّة، وعلى اللصّ الذي صُلِب معك، ومن أغوار الوهاد التي تردّينا إليها نهتف لك: "يا ربّ، خلّصنا، بما أنّك تحبّنا".

لقد قلتَ، يا ربّ، إنّك لم تأتِ من أجل الصدّيقين، بل من أجل البائسين والمرضى، والخطأة، من أجلنا، من أجلي.

يا ربّ، إنّي أوكلُ إليك كلّ ذواتنا.

وأنا واثقةٌ بك، وبخلاصك لنا، واثقةٌ بأنّك ستقول لكلٍّ منّا، نحن البائسين،

يومَ موتنا، ما قلتَه للّصّ المصلوب معك: "هذا المساء ستكون معي في الفردوس".

وذات مساءٍ ستُلبِسنا ذاتَك.

فمع أنّك إلهٌ، أصبحتَ إنسانًا فقيرًا،

ومثلنا جعتَ وعطشتَ.

ومثلنا خفتَ وبكيت.

ومثلنا مُتَّ.

وأُودِع جثمانُك في لحدٍ مثلما سيودَع جثمانُ كلٍّ منّا

وخرجتَ من قبرك، متجلّيًا، متحوّلًا، كما سنخرج، ذات يومٍ.

جميلٌ الموت معك، يا حبيبي،

فالقيامة تنتظر من يموت معك.

هَبْ لي، يا ربّ، وداعتَك الإلهيّة

(كانت الأخت إمّانُوِيل قد أغلظت القول لإحدى مساعداتها، وفي المساء ندمت على فعلتها، ودوّنت هذه الصلاة):

«هبني، يا ربّ، رقّتَك الإلهيّة
أنتَ الذي رغب في أن يكون طفلًا مقمّطًا
ومراهقًا خاضعًا لمريم ويوسف، ومسيحًا غير محارِب.
وغلّفتَ بالسرّ قيامتَك.

هَبني، يا ربّ، وداعتَك الإلهيّة، أنت، يا من قال:
طوبى للودعاء لأنّهم يرثون الأرض.
هَبني أن أمسك كلّ شيءٍ برقّةٍ:
الهاتف والحقيبة، القلم والمكنسة، الشوكة والطَبَ
وبالأخصّ اليد التي تمتدّ لي.

هَبني، يا ربّ، وداعتَك الإلهيّة.
أنت مَن قال: "تعلّموا منّي، فإنّي وديعٌ ومتواضع القلب،
أعطِني أن أتقبّل كلّ شيءٍ برقّةٍ:
الجيّد والسيّئ، الفرح والشدّة
التشجيع والانتقاد.
وكلّ لحظةٍ كما هي، وبخاصّةٍ، الآخر، كما هو.

وأيّتها العذراء الممتلئة نعمةً، يا عذراء البسمة
أعيدي بناء الوداعة الإلهيّة فيّ.
وعلّميني شفاء الجراح التي أحدثتُها
ولتُنْبِتْ رقّتُكِ، على شفتيَّ
أقوالَ المحبّة التي ترسِّخ السلام.

يا ربّ، هب لي، اليومَ، هذه النعمة

يا ربّ، هَب لي، اليوم، هذه النعمة:

ألّا يُعكّر شيءٌ سلامي العميق، وأن أتمنّى لكلّ إنسانٍ الثقة، والصحّة، والفرح، والازدهار، والقدرة على اكتشاف ثرواته الكامنة.

ساعدني، يا ربّ، على رؤية الجانب المشرق، في كلّ من أعيش معهم، لأنّه يصعب عليّ، أحيانًا، التغاضي عن عيوبهم التي تثير غضبي. عوضًا من التحديق إلى الخصال البارزة فيهم، التي أنعم بها، ولا أعيرها لفتةً.

ساعدني، يا ربّ على رؤية وجهِك المشرق.

حتّى وسط أسوأ الأحداث، إذ إنّ بعضها قد يكون نبع خيرٍ خفيٍّ صادرٍ عنّي.

هب لي، يا ربّ، نعمة العمل في سبيل الخير والجمال، والحقّ.

وأن أبحث، بلا كلَلٍ، في كلّ إنسانٍ، عن الشرارة التي أودعتَها فيه، لمّا خلقتَه على صورتك.

وساعدني لكي يكون لديّ من الاندفاع إلى إنجاح الآخرين، بقدر اندفاعي من أجل نجاحي الشخصيّ،

وأن أبذل من الجهد لإصلاح ذاتي، ما لا يدع لديّ وقتًا لانتقاد الآخرين.

أودّ، أيضًا، يا ربّ، أن تهبني نعمة تذكّر أخطائي الماضية،

كي أجهد في سبيل مستقبلٍ أمثل.

هَبْ لي أن أُظهِر، في كلّ وقتٍ، وجهًا فرحًا، وبسمةَ صداقةٍ،

لكلّ إنسانٍ، لأنّه ابنٌ لك، وأخٌ لي.

هَب لي قلبًا رحبًا، لكي لا يجترّ همومي، ونبيلًا لكي لا يحقد، ومنيعًا كي لا يخاف، ومن السعة بحيث لا ينغلق دون أيٍّ كان.

أسألك، يا إلهي، أن تغدق هذه النِعَم على كلّ إنسانٍ يكافح اليومَ، مثلي.

لكي يتضاءل الحقد، وينمو الحبّ، فالحقد والموت قُهِرا بقيامتك.

وافتح عيوننا على اللامرئيّ، لكي لا يزعزع شيءٌ تفاؤل المؤمنين بك وبالإنسان، والذين يودعون رجاءهم، فيك، وفي الإنسان.

يا ربّ، علّمني أن أبتسم

قال لي أحدهم، يومًا:

هَبي، كلّ يومٍ، بسمتَك هديّةَ محبّةٍ رائعةً.

قد لا تدوم البسمة سوى لحظةٍ، ولكنّها تجعل القلب ينشِد.

علّمني، يا ربّ، أن أبتسم، كما يبتسم أخي، جامع النفايات، فما هو مصدر فرحه؟ وما هو سرّ هذه النظرة المتألّقة، لدى إنسانٍ غائصٍ في القمامة؟

علّمني، يا ربّ، أن أبتسم مثل ابن جامع النفايات، الذي يغنّي ويرقص، على تلّة النفايات القذرة، مقدّمًا لكلّ ما يحدث بسمة الفتى الجميلة.

فهل عليّ، يا ربّ، أن أكون فقيرًا وصغيرًا لكي أتعلّم الابتسام؟

ولكنّ، هناك، يا ربّ، أوقاتًا حيث قلبي المُثقَل، المجروح، يُرهقني، ولا أقوى على الابتسام،

فما العمل، إذن، يا ربّ؟

لا شيء سوى الاستجابة لدعوة ابنك: "تعالوا إليّ،

يا جميع المرهَقين، بثقل أعبائهم، وأنا أريحكم".

قال لي أحدهم، ذات يومٍ:

هَبي، كلّ يومٍ، بسمتك.

فهي هديّةُ حبٍّ رائعةٌ.

صلاة أزواجٍ جُدُدٍ

يا ربّ، إنّنا نودع حبّنا بين يدَيْك، لكي لا يموت أبدًا.
كنْ، أنتَ، منبعَه، لكي يجهد كلٌّ منّا في أن يحِبّ
أكثر من نُشدانه الحبّ لنفسه،
وأن يعطي أكثر ممّا يتلقّى.

لا تسمح بأن تُغرقنا أيّام الفرح في اللامبالاة حيال الآخرين،
ولا أن تؤدّي بنا أيّام المصاعب إلى الشِّجا
بل إلى توثيق أواصر حبّنا.
أنت الحياة، يا ربّ،
فاحمِنا من رفض الحياة التي ستولد من حبّنا.
يا ربّ، أنت الحقيقة،
فاحمِنا من رفض الحقيقة، لكي نظلّ شفّافين أحدُنا حيال الآخر.

يا ربّ، أنت الطريق
فلا تسمح بأن يُعيق شيءٌ مسيرتنا،
فنمضي دائمًا إلى الأمام، يدًا بيدٍ.

يا ربّ، أنت أعطيتَنا مريم أُمًّا،
فلتكن، هي، حارسة الأسرة التي نؤسّسها اليوم
لقد كانت مريم، دائمًا، وفيّةً، قويّةً، ورقيقةً،
فلتحفظنا أوفياء، أقوياء، أرقّاء، دائمًا.
آمين.

حضور الله

- أدرك أنّي لا شيء، وفي الآن عينه، لديّ حضور الله، وهو كلّ شيءٍ. وأنا واثقةٌ بأنّ هذا الحضور يغمرني ويساعدني على الحياة. إنّ معاناة الذين لم ينعموا بملء الله، لمأساويّةٌ، حقًّا.

- إنّ الله معي. وروح الله ينفخ فيّ قوّةً خارقةً. وبالصلاة يملأ هذا الروح قلبي.
إنّ نور الرجاء ينير الأرض، وقوى الخير هي أقوى من قوى الشرّ.
والبشريّة سائرةٌ نحو النور.
في عشرات الأنظار رأيت نورًا.
لقد عبّر القدّيس يوحنّا الصليبيّ عن ذلك، أروع تعبيرٍ، بقوله:
"لقد اجتاز الله الطبيعة، وخلّف فيها آثار قدمَيْه".

- مَن يُغلِق قلبه دون الآخر يدخل في الظلمة، ويدمّر عمق السلام في ذاته، ذلك السلام الذي يُنبئ بوجود روح العطف فينا. فمذ يشعر إنسانٌ بغضبه على آخر، يهجر السلام نفسه.

- حسبُنا فتح فمنا لكي نتقبّل فيه ما يقدّمه الله لنا.
ولنكن دائمًا متأهّبين لتقبّل ما يهبنا الله في كلّ لحظةٍ، فهو شديد العذوبة، والجمال، والحقيقة، والتعزية.
ليست القداسة أمرًا استثنائيًّا، بل هي تمارَس كلّ يومٍ، وساعةً فساعةً، بتقبّلنا ببساطةٍ، ما يأتينا من الله.

- من يموت في قلب المسيح، ليس موته نهايةً. ففي قلب المسيح يستعيد المرء حياةً تقهر الموت، ويحيا، من جديدٍ، أبديًّا.

- أشعر أنّي رشيقةٌ، لأنّ المسيح داخلي، ولأنّي أنا فيه، ونحن نحيا في الحبّ.

- الله وحدَه لا عهدَ له بالموت، فهو الحياة الحقّة، اللامحدودة في الحبّ اللامحدود. ولأنّه الحبّ، فهو وحدَه يسعه أن يهبنا حبًّا لا يموت. لقد وعدنا بالحياة الأبديّة. وأكثر من ذلك، هيّأ لنا مكانها.

- ينبغي تعلّم التطلُّع إلى أبعد من المصيبة التي تحلّ بنا، وأن نرفع أبصارنا إلى السماء، على غرار العذراء، الحاملة بين يديها، جثمان ابنها، حيث طبع جنون القتل دمغاته. ولكنّ الأمّ الحزينة تعرف تخطّي ألم الأمّ المفجوعة. وهي ليست يائسةً، بل تنظر إلى أبعد من الألم، إلى السلام، إلى ما وراء الموت: إلى الحياة الأبديّة.

- إنّ نفوس المتوفّين تحيا فينا، وتحاورنا داخليًّا. إنّها تلتمس غوثنا ودعمنا، والتغذّي بصلواتنا. وبالمقابل، هي تغذّي صلاتنا، وتصوّب نظرتنا إلى الحياة.

- في رحيلي أمضي نحو الحبّ، ونحوه أمدّ ذراعيّ. وأدخل إلى صلب الحياة.

- فقرُنا، ووَهنُنا، وآلامنا هي الدروب التي يلج منها الله إلى حياتنا.

تجرّدٌ

– لمّا عزمتُ على اختيار الحياة المكرّسة، شرعتُ أبحثُ عن المطلَق. وما كان المطلَق لي إلّا الحبّ الذي غرَسَه يسوع في قلبي كي أحمله إلى الآخرين.

وكان من شأن وجود الله في قلبي أن يحقّق كلّ رغباتي. وقد تحقّق ذلك. فمذْ ولجتُ الحياة الرهبانيّة، أصبحتُ أكثر امرأةٍ مغمورةٍ بالرضى، في العالم.

فأنا التي لم أكن أملك شيئًا، تلقّيتُ كلّ شيءٍ.

في قرية الصفيح لم أكن أملك شيئًا. ولكنّ الله كان في قلبي، فكان وجوده نبع فرحٍ للأولاد، وغدا كلُّ شيءٍ سهلًا.

فعندما يحبّ الإنسان، ويسعى كي يكون مُفجّر فرحٍ من حوله، يصبح منبع أبديّةٍ، بمساعدته للآخرين على العيش، وعلى الوجود.

إنّي، مع مؤسّساتي العالميّة، أحمل سبعين ألف طفلٍ في العالم. وهذا رائعٌ، وكلّ ما سواه باطلٌ.

– ظننتُ أنّي كنتُ فقيرةً، وسط فقراء، في قرى الصفيح. ولكن، في الواقع كنت أوفر غنًى ممّا أنا اليوم.

إنّي أفتقر، كلّ يومٍ، بقدر ما أفقد من قواي الجسديّة التي تهجر جسدي، وباختباري اللاشيء، أدنو من الكلّ.

الموت هو الافتقار الأقصى، اللاشيء الأقصى.

والتجرّد هو اغتناءٌ، فلا تجرّد إلّا من أجل اغتناءٍ. واللاشيء هو امتلاءٌ.

إنّي أبتغي الكلّ الذي هو الله، فعليّ التجرّد من كلّ ما ليس لله. طريق الكلّ هو اللاشيء، ولستُ أدري هل أبلغ اللاشيء الكلّيّ على الأرض، مثلما بلغهما القدّيس يوحنّا الصليبيّ، والقدّيسة تيريزا الأفيلّاويّة.

أثناء حياتنا على الأرض، نحن غارقون في الله، وحولنا كلّ شـــيءٍ، ولكنّنا لا ندرك ذلك، ولا ندخل في الكلّ، إلّا ساعة موتنا.

في لحظة الموت ســـنشـــهد كم نحن منفصـــلون عن حياة الله الذي أعطانا الوجود، ويهبنا الإرادة، والطيبة، والمحبّة.

– بقدر ما نعي ضـــعفَنا ووهننا، نميل إلى الالتفات صـــوب الله وعظمته، متحرّرين من الخوف، لأنّ النبع المقدّم لنا يفيض خيرًا. وهو قادرٌ على إرواء عطشنا.

– مَن لا يملك على الأرض شيئًا، تعطيه السماء كلّ شيءٍ.

– كلّما تراخى تعلّقنا بشؤون الأرض، ازداد قلبنا رشاقةً.

– الإنسان الذي يريد أن يكون معيار كلّ شيءٍ، لا يكون معيارًا إلّا لبؤسه.

– في مفارقةٍ فريدةٍ، يقول القدّيس يوحنّا الصليبيّ:

"إذا ابتغيتَ امتلاك كلّ شيءٍ فلا تمتلكْ شيئًا،

وإذا ابتغيتَ فهمَ كلّ شيءٍ، فلا تفهمْ شيئًا.

وإذا رغبتَ في حبّ كلّ شيءٍ، فلا تحبِبْ شيئًا.

اللاشيء في مفهوم هذا الصوفيّ العظيم هو كلّ مادّيّ ومرئيّ.

وأنا أجهد إلى الولوج إلى الكلّ، وأن أحيا الكلّ، في فقر شيخوختي الجوهريّ.

ندما كنتُ أعمل لم أكن محرومةً كما أنا اليوم، بل كنتُ غنيّةً بأعمالي، وبمشاريعي، وإنجازاتي.

الحرمان هو نسيان الذات، هو التجرّد من الذات، من أجل المضيّ صوب الله. هو مسيرةٌ تتحقّق على مدى الحياة كلّها، ومن خلال أعمالٍ مغرقةٍ في البساط تتوالى من الصباح حتّى المساء.

المحبّة

– قلب كلّ إنسانٍ يسعى إلى انتهاج حياة العطف والمحبّة، يُشِعُّ من حوله، لأنّ نور الله يسكنه.

– كيف لمَن لم يحبّ أن يدخل ملكوت الله، الذي هو ملكوت محبّةٍ؟

جهنّم، في نظري هي مكانٌ خالٍ من المحبّة. جهنّم هي الافتقار إلى المحبّة.

– إيماني يهبني القدرة على المحبّة.

– الحبّ الحقيقيّ يحوّل البشاعة جمالًا، والشرّ صلاحًا.

إنّه القوّة الكبرى في العالم، لأنّه نابعٌ مباشرةً من الله، الذي يرى في كلّ كائنٍ بشريٍّ، الجزء الذي صنعه هو على صورته.

إنّ يسوع يرى في أحقر إنسانٍ متردٍّ إلى أسفل دركات الضعة، ما يستأهل الحبّ.

– أعرف غير مسيحيّين يقدّمون ذواتهم، روحًا وجسدًا، لخدمة حالاتٍ صعبةٍ، وأعدّهم أكثر مسيحيّةً منّي.

– الألم هو جزءٌ من الحياة، وهو يأتي، أحيانًا، من نقصٍ في المحبّة.

– لو تحابّ الناس، لكانت الحياة على الأرض فردوسًا.

– تصبح الحياة نشيد فرحٍ، بقدر ما تضجّ حبًّا. أمّا البغض فيحوّل الحياة جحيمًا.

– بإمكان الإنسان إعطاء أكثر ممّا يملك، عندما يعطي ذاته.

– يخطئ من يظنّ أنّه لم يعد يملك شيئًا يهبه، فما زال لديه القدرة على إعطاء كيانه. وأنا قد خبرتُ غنى الفقر.

– مأساة البشر هي، غالبًا، عزوفهم عن رؤية ما هو ماثلٌ تحت أبصارهم، فيبحثون عنه بعيدًا، ولا يعثرون عمّا هو قريبٌ، وخفيٌّ عنهم.

– كان الأسّـيزيّ يعطي ما لا يوفّره المال، حيال الواقعين في ضـيقٍ، كان يجد الأقوال التي توفّر راحةً حقّةً، ويعزّيهم. أمّا المال فلا قدرة له على منح العزاء. كان يعطي ما لا يملكه الأثرياء حكمًا، فرح الاتّحاد بالله. كان يهب، قسـط السماء الثاوي في قلبه.

– الحياة الإلهيّة هي المحبّة الأبديّة.

– لا يكفي أن يعيش الإنسـان كي يكون حيًّا، فيمكن لعائشٍ أن يكون ميتًا، مثل قايين. والقدّيس يوحنّا يقول: "من يبغض أخاه، يعيش في الظلمة". بالمحبّة يعبر الإنسـان من الموت إلى الحياة. ومن لا يحبّ، يمكث في الموت. المحبّة تقهر الموت. هذه هي رسالة يسوع.

– الإنسانيّة مشاركةٌ.

– أريد أن أبقى ملتصـقةً بالإنسـانيّة المتألّمة. ولا أسـتطيع الاكتفاء بالتمتّع، لى الأرض، وحـدي، بـالنور الإلهيّ، في حين أنّ إخوتي وأخواتي محرومون منه.

ولا أريد أن أكون مميّزةً عن الآخرين. آبى أن أعطي نفسي الحقّ بذلك.

– أودّ أن يكون إخوتي وأخواتي في البشريّة أوفر سعادةً. وسأسعى إلى ذلك، حتّى نفَسي الأخير.

– الحياة هي وجـه الحبّ النيّر، والموت هو وجـه البغض المعتم. هذا يعني أنّنا، إذا أحببنا، اسـتطعنا الانتصـار على الموت، لأنّ الحبّ هو قاهر الموت. تلك كانت رسالة يسوع الذي قال: مَن يؤمنْ بي فسينتقل إلى الحياة الأبديّة.

نحن نحمل، في ذواتنا بذور أبديّةٍ تضمن انتصارنا على الموت.

– إيماني يسـتند على يقينٍ، فيه يُنشـد قلبي. فأنا أعرف أنّ حبّي لإخوتي وأخواتي في البشريّة، هو ضربٌ من حبّ الملكوت الأبديّ.

الحبّ، إذن، هو الولوج، منذ الآن، في أبديّة الأبديّات.

كفاحٌ

– اعتادت الأخت إمّانُوِيل التذكير بشعار الحكيم الرومانيّ "مارك أوريل" (Markus Aurelius): "العوائق وُجدت كي نتخطّاها"، فلا ندعنَّ أيّ عائقٍ يقضي علينا.

– ليس الإحباط سوى مرحلةٍ مهمّتها إفهامنا أنّ تثبيط العزيمة والحزن مناقضان للكيان. فنحن صُنِعنا كي نقع أرضًا، ومع ذلك، نستمرّ في الكفاح، والنموّ، حتّى ننهض.

– الإنسانيّة مشاركةٌ. وخيرُها المشاركة في الصعوبة القصوى.

– لا يغربنَّ عن بالنا أنّ الألم والموت موجودان لأنّ هناك قيامةً.

– أعتقد أنّ الفرح ينبع من الألم، وأنّ الحياة تنبع من الموت.

– بكفاحنا نكبر.

– المتمرّد على الله يتمرّد على سعادته.

الألم

– الألم سلاحٌ ذو حدَّيْن: فبقدرته تقديسُنا، وبقدرته تقسيةُ قلوبنا، ودفعنا إلى الشرّ. فمَن قاسى الألمَ طويلًا، ينزع، غالبًا، إلى إيجاع الآخرين.

ولكن عندما يتقبّل المرء الألم مع المسيح، تفتح نظرته إلى المسيح قلبَه، وتُتيح له أن يفهم، على نحوٍ أفضل، الألم السائد من حوله.

– الألم والموت موجودان لأنّ هناك قيامةً.

الموت

- الموت هو سعادة اتّحاد طبيعتنا البشريّة بالله الذي يمثّل أبديّة الأبديّات.
- الموت حسب قول فرنسيس الأسّيزيّ هو أخٌ، هو صنوٌ للشمس والقمر، وكواكب السماء التي تؤتينا نورًا.

الموت يقودنا إلى مواجهة الحبّ الذي طالما صبَوْنا إليه.

الموت ينتشلنا من عبء جسدنا كي يلقينا بين ذراعَيْ الله.

الموت أخٌ يكبر معنا، وينضج مع كرّ السنين.

إنّه رفيقٌ غير مرئيٍّ، يحرّضنا القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ على اعتباره كائنًا عزيزًا ومحبوبًا.

الموت الجسديّ، أخونا الذي يُدخِلنا إلى الرؤية الطوباويّة.

- سُمِّي المسيح سيّد الموت، لأنّه الوحيد الذي انتصر على الموت. وحبًّا بالبشريّ ارتضى أن يحتمل الموت لكي يجتذبنا إلى خارج الموت.
- الموت، لمن يتقبّله، هو أجمل لحظةٍ في الحياة.

يقول القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ إنّ نفسنا لا تموت، ساعة موتنا بل يفنى الجزء الأكثر جسديّةً منّا، بسبب توقّف جريان الدم في عروقنا.

ولذلك هو يتكلّم عن موتٍ جسديٍّ، وعن أخينا "الموت الجسديّ".

وأخونا الموت الجسديّ هذا يدخل إلينا ويحرّرنا من جزئنا الأرضيّ ويساعدنا على الانطلاق نحو السماء.

إنّي أرحّب بالموت ترحيبي بأختٍ لي في الرّهبنة، فمع تقدّمي في الشيخوخة يزداد شعوري بصحبة الموت الذي ينمّي ألمي. لقد أوكلت موتي للعذراء. وأهلًا بالموت عندما يجيء.

- الموت يجعل قلبي ينشد، لحظة أدنو من أبديّة الأبديّات، وأرى الموت مثل ارتماء

ولدٍ في ذراعَيْ والده. بالموت أدخل إلى إيماني الجوهريّ، في الربّ، أنا ابنته.

عبر المحبّة البنويّة التي واكبت حياتي أدخل في الموت، وأتأهّب للقاءٍ بنويٍّ مع ربّي، ولحبّه، وجهًا لوجهٍ، أبديًّا.

فرحٌ

- بما أنّ الله هو منبع الفرح، فمن يسعى نحو الآخر، يسعى نحو الله، ونحو الفرح.
- أودّ أن أزرع، دائمًا، الفرح من حولي، وأن أعطي الآخرين ما لا يموت، وأن أساعدهم على الازدهار في فترة حياتنا القصيرة.
- لا يحقّ لي أن أرتاح طالما ظلّ بوسعي إسماع رسالة حبٍّ وفرحٍ.
- إذا خيّرني الربّ بين دخول الفردوس، أو العودة إلى الأرض، لعدتُ إليها، وسأعود إلى العيش مع زبّالي القاهرة، حيث تذوّقتُ أحلى سعادةٍ، مدى اثنتَيْن وعشرين سنةً، مع الأخت سارة، رفيقتي في قرية الصفيح.
- لا يُظهر الإعلام سوى الأحداث السيّئة، لأنّ الجمهور يهتمّ بالقطارات التي تحيد عن سكّتها، ولا يهتمّ بتلك التي تبلغ هدفها بانتظامٍ.

العفّة

- لقد أتاحت لي العفّة تنمية قلبي بحجم العالم. لقد تغذّيتُ بفرح الآخرين، وشاركهم جسدي أفراحهم.
- لا أُطيق رؤية ولدٍ يتألّم. وأريد أن أفعل كلّ شـــيءٍ في ســـبيل إنقاذه. وأظنّ أنّ جســـدي النســـويّ ازدهر، على هذا النحو، لا في أُمومةٍ مادّيّةٍ، بل في نوعٍ من الأمومة الروحيّة التي عشتُها في تناغمٍ تامٍّ.
- لم أنذر العفّة رفضًـــا للأمومة، بل على نقيض ذلك، لكي أوسّـــع كياني، وأحيا أمومة أبناءٍ كثيرين.
- لا معنى لنذر العفّة إلّا إذا استهدف مزيدًا من الحبّ.
- إنّ محبّة الحياة المكرّسة، تستلزم حرّيّة الجسد، وحرّيّة القلب، وحرّيّة الفكر. كلّ هذه الحرّيّات وفّرها لي ارتداء الثوب الرهبانيّ.

تطويباتٌ

- من خلال التطويبات أسمع قدرة السماء تنساب على شفاه يسوع.
- يدهشـــني إجماع الإنجيليّين على القول إنّ يســـوع، كلّما همّ بالكلام، كان يرفع نظره إلى السماء.

وأتخيّل نظر يسوع محدّقًا إلى زرقة سماء فلسطين. تُرى ماذا كان يرى فيها؟

- رحابةَ السماوات، صورةَ اللامحدود، انتشارَ قدرة الآب الخلّاقة، المتجلّية لعيوننا؟

عندما يرفع يسوع عينيه إلى السماء، يستلهم كلّ حبّ أبيه للعالم، لكي يملأ قلوبنا سعادةً إلهيّةً.

التطويبات هي باب السماء.

- أعلن رجل السلم والمحبّة، المهاتما غاندي، أنّ التطويبات جعلته يحبّ يسوع، وما حبُّ غاندي الجمّ للتطويبات، إلّا لأنّه كان يحياها حقًّا، كذلك يســـوع، قد استوعبها داخليًّا استيعابًا كاملًا، لأنّه كان، في ذاته، تطويبًا، ولأنّه لم يقتصر على إعلان التطويبات، بل عاشها.
- درب التطويبات هو دربٌ رائعٌ، فهو يقودنا إلى ما لا ينتهي، على نقيض أمور الأرض التي ستنتهي عاجلًا أو آجلًا.
- التطويبات قفزةٌ نحو السماء، نحو الله الحبّ. وهي تتخطّى المنطق البشريّ وكلّ ما هو مادّيٌّ عابرٌ.
- التطويبات تنفُّس حياتي. منذ شـــبابي أدركتُ أنّ التطويبات تدفعني نحو حياةٍ أخرى لن تتوقّف، إنّها عامل تحوّلٍ منيعٌ.

وهي الآن تدفعني نحو ضفاف الأبديّة.

أرى أنّ حياتي القادمة هي حياةُ أبديّةٍ، وجمالٍ، وعطفٍ، وحقيقةٍ، وعدلٍ، وسباحةٍ في حبّ الربّ مثلّث التقديس.

في سنّ التاسعة والتسعين كلّ نفَسٍ يدنيني من هذه الحياة الأبديّة.

طوبى للفقراء بالروح، فملكوت السماوات لهم

– مَن يتأمّل في التطويبات، يكتشف أنّ الغنى الحقّ يبقى خفيًّا عن عيون العالم. فالإنسان الأكثر ثروةً، وسطوةً، يفتقر إلى السعادة، ما لم يكن قريبًا من الله.

النفس الفقيرة، وحدها، تتقبّل وجود الله في ذاتها، وهي، وحدَها، تدخل إلى فرح الله، وبها يصبح الإنسان مُواطن الملكوت اللامرئيّ.

أمّا من يلتصق بالخيرات الأرضيّة فيبتعد عن الملكوت الأبديّ.

ينبغي، إذن، إحلال المقتنيات المادّيّة محلّها الحقيقيّ

وينبغي امتلاكها، وعدم الشعور بهذا الامتلاك، واستخدامها معْبَرًا إلى الامتلاك الحقّ.

ثروات الأرض جيّدةٌ لمن لا يلتصق بها. فمَن يتجرّد عنها يلتفت نحو الملكوت. يسوع يدعونا إلى سعادةٍ لا تموت، ومن يلتصق بالخيرات المادّيّة العابرة، لا يجمع، في الواقع، أيّة ثروةٍ، ولا ينعم بأيّة سعادةٍ،

ففي ساعة الموت لا يستصحب المرء معه شيئًا.

وكم من أثرياء مالٍ هم فقراء حقًّا!

وكم من فقراء، هم أغنياء، لأنّهم متجرّدون من كلّ شيءٍ

ولا يملكون سوى حبٍّ كبيرٍ.

في بيوت الصفيح، حيث لا يملك أحدٌ شيئًا، ينزع الناس إلى التعاون، وهذا التعاون يضفي على الحياة رشاقةً وروعةً.

لم أضحك، قطّ، في حياتي، كما ضحكتُ بين الزبّالين، فبما أنّهم لم يكونوا يملكون شيئًا، لم يكن شيءٌ يقلقهم: لا بيوتٌ، ولا حساباتٌ مصرفيّةٌ. فكانوا يولون جلّ اهتماماتهم للعناية بأقربائهم. وكان كلٌّ، للآخر، الثروة الوحيدة وموضع الاهتمام الوحيد.

وكان ذلك منبع بهجةٍ كبرى.

طوبى للودعاء

- تحاكي الوداعة مرهمًا منعشًا، فهي تزيل كلّ قسوةٍ، وخشونةٍ، وصعوبةٍ. الوديع يتقبّل كلام الآخر، حتّى إذا كان مُفرطًا في القسوة، أو غير مستساغٍ. الوديع لا يخاصم، ولا يثور.

الودعاء يملكون الأرض، لأنّهم يتقنون فنّ العيش بسعادةٍ، ولا يضخّمون الأمور. رقّة أجوبتهم تمنع الصعاب من الالتصاق بهم، وتجعلها تنزلق عنهم.

لفظة الامتلاك، في التطويبات تعني التنعّم. والوداعة تتيح لممارسيها التمتّع بجمالات الأرض التي وضعها الله في متناولنا كي نسعد بها متعاملين معها برقّةٍ. ولكن بمجرّد أن نكون عبيد العجرفة، والاستعجال، ورغبة الاستحواذ، نهلك.

ثمينٌ جدًّا أن نأخذ الأمور كما هي، وكما تأتي.

الامتلاك، واقعيًّا، نقيض الاستئثار. وهو، وفق روح التطويبات، يعني استخدام الأشياء بمعزلٍ عن الاستحواذ عليها، والتنعّم الهادئ بجمالات الكون، مع اليقين بأنّها ليست حكرًا علينا. وإذا عاملنا حياتنا برقّةٍ واحترامٍ، اكتسبت حياتنا تناغمًا.

طوبى لأنقياء القلوب

الطُهر، وحدَه، يستطيع رؤية الله.

نظرنا يتشوّش بقدر ما تكون نفوسنا ملوّثةً، قذرةً.

بمعونة الله الذي هو المحبّة، نتطهّر، ونتأهّب لرؤيته.

طوبى للحزانى

- قد ترهق آلام الحرمان القصـــوى، المفتقرين إلى عزاءٍ، على الأرض، ولكنّها قد تكون دربًا إلى السعادة الأبديّة.

ليس الحزانى، في لغة التطويبات، هم الذين لم يحصـــلوا على رفاهٍ مفرطٍ، بل هم الذين حُرموا الخيرات الأساسيّة، والذين يعانون فقدانَ أعزّاء، مثل حرمان أُمٍّ من ابنها، أو انفصالًا عن حبيبٍ.

الأمّ التي فقدت ابنها، قد تجهل أنّ ابنها ينعم بالفرح في عالمٍ آخر، وينتظر أن تلتقيه وتقاسمه فرحه، لأنّ الإنسان يريد العزاء، حالًا.

وبقدر ما كان آلمها فقدان ابنها، سيتنامى تذوّق سعادة التقائه.

جميع التطويبات هي دروبٌ نحو السعادة الأبديّة.

طوبى للرّحماء

كن رحيمًا يعني: "مُدّ يدك، هبْ قلبك، بسمتَك، صداقتك.

الرحمة هي قلبٌ متعاطفٌ مع البؤس.

هي مبادرة تفاهمٍ، هي إظهار الحبّ لمن يتألّم، للبائســـة التي هوت ســـحيقًا، وترغب رغبةً شديدةً في النهوض.

العذراء

- تكمن قوّة العذراء في قدرتها على البقاء حقيقيّةً، في الفرح، وفي المحبّة، على السواء. هذه الحقيقة أتاحت لها أن تحيا أمومتها الفريدة، ببساطةٍ كلّيّةٍ، ولم تسمح لا للكبرياء، ولا للزهو بالذات أن يستحوذا عليها.

ربّما أوحى لها امتيازها توقُّع إعجاب العالم، والإشادة بها، بصفتها أمّ الله، الأبديّ، كلّيّ القدرة. ولكنّها أثبتت تميّزها بتواضعٍ مدهشٍ.

ساعةٌ رمليّةٌ

- خلال حقبةٍ من حياتي حوّلتُ حبّ الله لي، إلى حبٍّ لإخوتي وأخواتي، من خلال أفعالٍ واقعيّةٍ ملموسةٍ، إلى أن وهنت قواي، واضطررتُ إلى التوقّف عن العمل.

وحينئذٍ، تبيّنتُ أنّ وهن القوى الجسديّة لا يُضعِف قوى الروح بل إنّه ينمّيها مثلما يحدث في الساعة الرمليّة.

كلّما تضاءلت كمّيّة الرمل في الأعلى، تكاثرت في الأسفل

وفي الحياة يحدث نقيض ذلك،

فعندما تعذّر عليّ العمل المادّيّ، شعرتُ بانطلاق نفسي إلى العلاء، وأصبحتُ أكثر رشاقةً وقدرةً على التسامي صوب الربّ الحبيب.

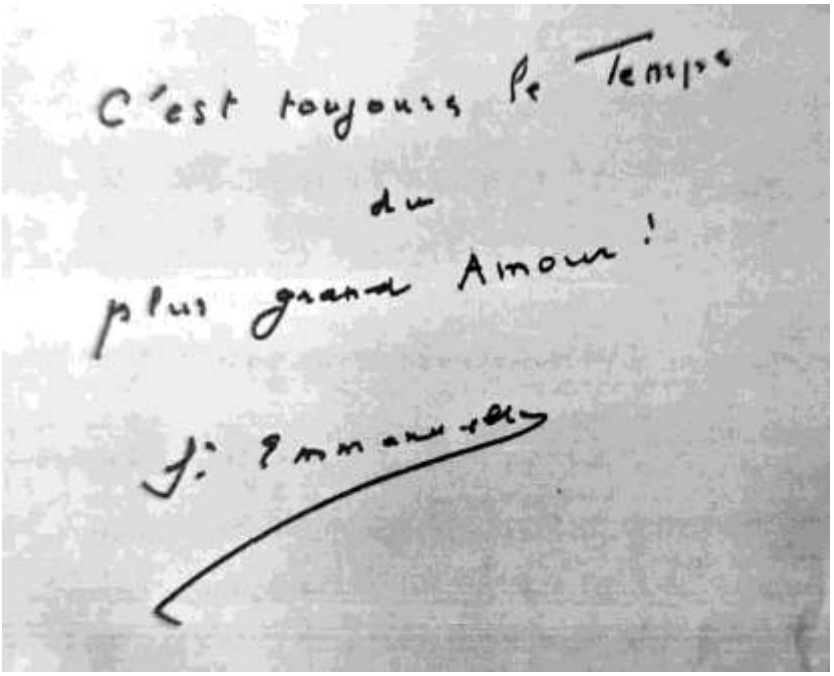

"كلّ وقتٍ صالحٌ لبلوغ أسمى قمّةٍ في المحبّة"

هكذا أنهت الأخت كتاب اعترافاتها

الفهرس

إهــداء ٥
تقديم – الأب الياس زحلاوي ٧
تمهيد..... ٩
الجزء الأوّل
الأخت المعلّمة ١٣
خطواتها الأولى نحو الربّ ١٤
بروكسيل ١٩٢٨..... ١٩
المبتدئة ٢٢
استنبول ١٩٣١–١٩٥٥ ..... ٢٧
نذورٌ مؤبّدةٌ ٣١
استنبول ١٩٤٤–١٩٤٩ ..... ٣٤
مسعًى مسكونيٌّ..... ٣٦
تعاونٌ مع المسلمين ٣٨
وداعًا يا استنبول ٤٠
المحنة التونسيّة ١٩٥٥–١٩٥٩ ..... ٤٣
عودةٌ إلى استنبول، واستعدادٌ للتعليم العالي..... ٤٩

الجزء الثاني

مع زبّالي القاهرة ٥٧
مع زبّالي القاهرة ٥٨
تجربةٌ خاطفةٌ ٦١
في بيوت الصفيح ٦٢
زفّة العروس ٦٤
خبرةٌ ساحقةٌ لموت الأبرياء ٦٦
موت "بَغْزَق" ٦٨
مآسي الإناث ٧٢
معمل السماد العضويّ (الكومپوست) ٧٥
دار السعادة ٧٨
الأخت سارة ٨١
وجوهٌ مشرقةٌ في قرى الصفيح ٨٣
رجال الأمن ٨٥
الثأر ٨٦
بسيط القاتل ٨٧
أمّ شعبان ٨٨
تقيّ ٨٩
فوزيّة البطلة ٩٠
أمّ صباح: الحبّ أقوى من الموت ٩٢
أجمل عيد ميلادٍ في قرى الصفيح ٩٤
تقييم الأخت إمّانُوِيل لسنوات إقامتها بين جامعي النفايات ٩٦

الجزء الثالث

الأخت العالميّة ٩٩
عمليّات إنقاذٍ واسعة النطاق في السودان ١٠٠
صراعٌ مع الموت في الفيليپّين ١١١

في السينيغال ١١٥
عندما يلتهب الحبّ، تتفجّر الحياة ١١٨
الإنسان الأكثر إدهاشًا ١١٩
أمام الموت، صمتٌ..... ١٢١
إخوتي السجناء ١٢٢
نظرة الأب پيير ١٢٤
مصر ومعنى الأبديّة..... ١٢٦
قناعاتٌ أخرى، ومصادر غنًى جديدةٌ ١٢٨
جيلٌ جديدٌ يُطلّ..... ١٣٠
أومن بكِ، يا كنيستي..... ١٣١
الإيمان بالإنسان هو إيمانٌ بالله ١٣٤
الجلجلة..... ١٣٦
بصراحةٍ: من أنا؟ ١٣٨
الاحتفال بالذكرى الستّين لرهبنتها ١٤٣
أمرٌ بالرحيل..... ١٥٨
وداعٌ فَرِحٌ ١٦٠
المرحلة الأخيرة ١٦١
الكتابة..... ١٦٣
إنهاض الهابطين إلى أدنى دركات الانحطاط ١٦٥
فرحة الحصاد ١٦٨
من المرارة إلى الدهشة: تجسُّدٌ..... ١٧١
نحو الضفّة الأخرى..... ١٧٤
شكرًا..... ١٧٦
سعادة المحرومين، وبؤس المُترَفين..... ١٧٨
الأخت إمّانُوِيل والشيخوخة..... ١٨١
سالةٌ من البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني إلى الأخت إمّانُوِيل..... ١٨٥

الجزء الرابع

صلواتٌ، تأمّلاتٌ، خواطر ١٨٧

وصيّتي الروحيّة ١٨٨

تمهيدٌ ١٨٨

قلبي متحرّرٌ، وأنا أُنشد ١٨٨

يسوع في حياة الأخت إمّانُوِيل ١٨٩

سرّ حيويّتي ١٨٩

مثال الفراشة ١٨٩

حبٌّ شاملٌ ١٩١

حياةٌ تتصاعد بتواترٍ نحو فائق الطبيعة ١٩١

الصلاة ١٩٢

أبانا ١٩٤

السلام عليكِ، يا مريم ١٩٦

صلاة مريم العذراء ١٩٧

توازن العذراء ١٩٧

ها أنذا أمامَك، يا ربّ ١٩٨

هَب لي، يا ربّ، وداعتَك الإلهيّة ٢٠٠

يا ربّ، هب لي، اليومَ، هذه النعمة ٢٠١

يا ربّ، علّمني أن أبتسم ٢٠٣

صلاة أزواجٍ جُدُدٍ ٢٠٤

حضور الله ٢٠٥

تجرّدٌ ٢٠٧

المحبّة ٢٠٩

كفاحٌ ٢١١

الألم ٢١١

الموت ٢١٢

فرحٌ ٢١٣

العفّة ٢١٤

تطويباتٌ ٢١٥
طوبى للفقراء بالروح، فملكوت السماوات لهم ٢١٦
طوبى للودعاء ٢١٧
طوبى لأنقياء القلوب ٢١٧
طوبى للحزانى ٢١٨
طوبى للرّحماء ٢١٨
العذراء ٢١٩
ساعةٌ رمليّةٌ ٢١٩

الفهرس ٢٢١

صدر للمؤلّف ٢٢٦

أوّلًا. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان ٢٢٦
ثانيًا. دور نشر أخرى ٢٢٨

صدر للمؤلّف

أوّلًا. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

- سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣. صوت من لا صوت لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣

٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧. جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨. سيرة المسيح (مترجم عن جوڤانّي پاپّيني) – ٢٠٠٣

٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩

١١. عملاق المحبّة القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩

١٢. معجزة العناية الإلهيّة "البيت الصغير" (القدّيس جوزيف كُتّلينغو) – ٢٠٢١

١٣. راوول فولّيرو رسول البرص ومتشرّد المحبّة – ٢٠٢١

١٤. دون بوسكو، ملاذ المشرّدين، ومربّي المهملين،
ومؤسّس الجمعيّة الساليزيّة – ٢٠٢٢

١٥. مارتن لوثر كينغ، شهيد تحرير السود الأميركيّين – ٢٠٢٣

١٦. الكاهن المصلوب، القدّيس پادري پيّو – ٢٠٢٣

- مؤلّفات منفرّقة

١. قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
٢. يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
٣. يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦
٤. يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦
٥. أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
٦. مختارات مريميّة – ٢٠٠٩
٧. أمّ الرحمة – ٢٠١١
٨. باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦
٩. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (١) السيرة – ٢٠١٩
١٠. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٢) الرؤى * – ٢٠١٩
١١. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٣) الرؤى ** – ٢٠١٩
١٢. مقتطفات من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠٢٠
١٣. قصائد وصلواتٌ وخواطر وأقوال (راوول فولّيرو) – ٢٠٢١

- سلسلة الظهورات

١. ظهورات لورد – ٢٠١١
٢. ظهورات فاطمة – ٢٠١١
٣. ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١
٤. ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١
٥. ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢
٦. ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢
٧. ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (المداليّة العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢
٨. ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩. لِمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢
١٠. الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢
١١. الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣
١٢. ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣
١٣. ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

- سلسلة صفحات روحيّة

١. أبانا – ٢٠٠٥
٢. كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣. العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤. المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥. على درب الحياة مع ألكسي كاريل،
الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

- كتب مترجمة

١. يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢. ثلاث عشرة قصّةً – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣. أيدٍ ملطّخةٌ بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤. اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥
٥. حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ثانيًا. دور نشر أخرى

١. على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
٢. حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجيّ – دمشق) – ١٩٩٨ و٢٠٠٠